(٥) نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب

رحلة إلى بلاد نجد

تأليف
الليدي آن بلنت

ترجمة
محمد أنعم غالب

الطبعة الأولى

١٣٨٦ هـ ١٩٦٧ م

٥ نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب

رحلة إلى بلاد نجد

تأليف
الليدي آن بلنت

ترجمة
محمد أنعم غالب

الطبعة الأولى
١٣٨٦ هـ ١٩٦٧ م

منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض - المملكة العربية السعودية

رحلة الى نجد



كلمة عن هذه الرحلة

كان الدكتور عمر حليق قد كتب مقالاً نشرته مجلة اليمامة، بعنوان : (مراجع أجنبية ، عن المملكة العربية السعودية) في سنة ١٣٧٣ هـ في ص ٣٤٨ — ٣٥٣ من المجلد الثاني . ورد فيه وصف موجز لهذه الرحلة .

فلما زرت مدينة (لندن) في شهر اكتوبر سنة ١٩٦٠ م بحثت عن نسخة منهـــا ، وكانت طبعت في سنة ١٨٨١ م فأصبحت نسختها نادرة ، وهـــذا ما كلفني بضعة عشر جنيهاً استرلينياً ثمنـــاً لنسخة مستعملة ، لحرصي على جمع ما يتعلق ببلادنا من رحلاتٍ ، ومؤلفات تاريخية وجغرافية .

ثم دفعت الكتاب الى اخي وصديقي الاستاذ محمد انعم غالب ، ليعرّب الملائم من فصوله للنشر ، فكان أن عرّب جُلّ ما يتعلق بنجد من تلك الرحلة ، باستثناء ما ورد فيه عن (الخيل) ونشرت ذلـــك في (اليمامة) الصحيفة — في

حلقات متتابعة – العدد ٢٧٠ في ١٣٨٠/١١/١ – وما بعده – على أمل جمعها في كتاب يضم ترجمة كاملة لتلك الرحلة، لنشرها .

وقد كتبت الى الاخ الاستاذ محمد انعم – المدرس في «كلية بلقيس» في عدن – أستحثه باكمال الترجمة، وباعادة النظر فيما ترجم، فوعد بذلك ...

إلاّ أن عدم الاستقرار في تلك الناحية، ومضي فترة غير قصيرة من الزمن – مما دفعني الى نشر الفصول التي ترجمت من الرحلة، وهي خلاصة ما فيها عن بلاد نجد، مما يهم جمهرة القراء .

صاحبة الرحلة :

وصاحبة الرحلة هي الليدي آن بلنت، نبيلة انجليزية، حفيدة الشاعر الانجليزي الشهير «بيرون» وزوجة الشاعر السياسي الانجليزي «ويلفريد سكوين بلنت»(١٨٤٠/١٩٢٢م) تزوجته بعد تركه العمل في السلك السياسي (الذي بلغ ١٥ عاماً (١٨٥٨/١٨٧٢ م) في اليونان، واسبانية، وفرنسة، والبرتغال، وجنوب امريكة .

وكان زوجها على خلاف كبير مع حكومته، لمعارضته لسياستها الاستعمارية، ومناصرته للحركات التحررية، وهو يشبه – الى حدٍّ كبير – الشيخ عبد الله فلبي . فقد قام

– مع زوجته صاحبة الرحلـــة – برحلات طويلة في شمال افريقية ، وفي البلاد العربية ، وفي الهند ، وأبدى تأييداً قوياً لحركة « عرابي باشا » في مصر .

وكان يرى ان المستقبل للاسلام ، وكانت له صلـــة قوية بالامام الشيخ محمد عبده .

وفي سنة ١٨٨٧ م اعتقلته حكومته في (ايرلندا) بينما كان يرأس اجتماعاً سياسياً ضدها ، وبقي في السجن شهرين .

وفي عام ١٨٧٢ – أسست الليدي آن مع زوجها مزرعة ، لتربية الخيول العربية ، أصبحت مشهورة في بريطانيـــا منذ ذلك الوقت الى اليوم .

والسيدة آن بلانت – كزوجها – مولعـــة بالاسفار ، ومعجبة بالصفات العربية ، ويتضح هذا جلياً من رحلتها هذه. ومن مؤلفاتها :

١ – قبائل الفرات – طبع سنة ١٨٧٩ م .

Bedouin Ttibes of The Euphrates

٢ – الحج الى نجد – طبع سنة ١٨٨١ م .

Pilgrimage To Nej (*)

(*) يرجع الفضل في هذه المعلومات للصديق الكريم سعادة الشيخ عبد الله الخيال .

والأخير هو الذي نقدم للقراء أهم فصوله ، مع مراعاة عدم التقيد بترتيب الكاتبة لها او ببعض ألفاظها لظروف خاصة. إلا أننا لم نزد شيئاً ، أو نغيّر تغييراً يحيل المعنى .

أهمية هذه الرحلة :

تظهر أهمية هذه الرحلة – بالنسبة لما يتطلبه الباحث في دراسة احوال بلادنا – من ناحيتين :

أولاهما : قلة المؤلفات التي تتعلق بالفترة الزمنية إبان حكم آل رشيد (من آخر القرن الثالث عشر الهجري الى الربع الاول من القرن الحالي) .

ثانيها : عمق الملاحظات المدونة في هذه الرحلة ، ودقتها، وصدق تصويرها .

وهي أمور ، سيؤخذ القارىء بروعتها ووضوح تصويرها.

و « دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر » تسعى لتقدم للباحثين كل ما تستطيع تقديمه مما يضيف جديداً الى معلوماتهم عن هذه البلاد الكريمة ، وهذا ما دعا الى نشر هذه الرحلة .

حمد الجاسر

فصول من كتاب :

Lady Anne Blnnt.

Pilgrimage To NEJD

The Cradle of the Arab Race,
Second Edition 1881, John Murray,

London.

القسم الاول : قُرَيَّات المِلْح

[هذا هو الفصل الخامس من رحلة اللادي بلانت الى نجد ، وفيه تقدم مشاهداتها وانطباعاتها أثناء سيرهـا من كاف – احدى قرَيّات الملح – الى الجوف ، مشاهد ربما بعضها مـــا زال قائماً ، لكن ثمانين عاماً وان أبقت على المكان كما هو ، فقد ذهبت بالسحر والخطر وروعة المغامرة]

بلدة «كاف» وسكانها :

٢٨ ديسمبر [سنة ١٨٧٩ - ١٢٩٧ ﻫ]

كاف قرية صغيرة لطيفة لها طابعها الخاص ، متميزة تماماً عن أي شيء يراه المرء في سورية ، وكل شيء نموذج مصغر ، الستة عشر بيتاً المربعة الصغــيرة ، والأبراج الصغيرة ذات المشارف والأسوار بمشارفها بارتفاعها البالغ ٧ أقـدام - والسبعون أو الثمانون نخلة في بستان يُروى من آبار ، وبعض أشجار حسبتها في البداية سرو ، ثم اتضح انهـا نوع رقيق من الاثل [١] . ومع انهـا محل صغير جداً ، فان (كاف) ذات منظر فريد مزهر ،فكل شيء هناك أنيق،وفي اصلاح حسن ، ولن تجد شرفة واحدة مكسورة أو باباً خارجاً عن مفصلاته، كما هي الحال بكل تأكيد في سورية. وهناك أيضاً عدد طيب من صغار النخيــل غرست في وسط النخلات الأكبر سناً ، وشجرات تين حديثة ، وكروم ، أشياء قل أن تجدها في الشمال .

---

(١) الاثل ، شجرة تزرع في كل قريـة من قرى بلاد العرب الوسطى ، ولكنها لا توجد هناك وحشية ، بقدر ما أعلم . (الاصل)

المترجم : بل يوجد نوع من الاثل يسمى الطرفاء ينبت في الاودية بدون أن يزرع . ولكن خشبه ضعيف .

والناس لطاف المنظر حسنو السلوك ، ولو انهم في البداية أفزعونا قليلاً بطوافهم،والسيوف في أيديهم . وهذهاما يحملونها منكسة على كلا الكتفين أو يقبضون غمدها بكلتا اليدين ،أشبه كثيراً بما يشاهد المرء في الاشكال المنقوشة على الصخر لشهداء العصور الوسطى ، أو في صور المجاهدين الصليبيين .

في ضيافة شيخ البلدة :

استقبلنا عبد الله القاسم ، شيخ القرية ، والذي اليه حملنا رسالة من حسين ، بأدب عظيم ، ونظفت غرفة في بيته من أجل استعمالنا . وككل الغرف الاخرى،فتح بابها على الفناء، الذي في وسطه ربط فُلُوٌ عمره سنتان، وكانت غرفتنا مخزناً للوقود ، كما كانت بدون أثاث من أي نوع ، ولكننا اغتبطنا أن نجدها بدون سكان أيضاً ، والهندسة المعمارية هنا بسيطة جداً ، مجرد جدران من الطين بلا شبابيك أو فتحات من أي نوع باستثناء ثقوب مربعة قليلة قريباً من السقف. وكان السقف من عمدان من الاثل بقواطع من النخل تملأ ما بينها فروع من النخل . وتسمى الغرفة الرئيسية « القهوة » أو غرفة القهوة ، وفيها يوجد موقد مربع في الجانب أو من الوسط لصنع القهوة . ولا توجد مدخنة ، ويخرج الدخان كما يستطيع ، ولكن هذا ليس غير مريح كما قد يتبادر الى الذهن ، لأن

احتراق الحطب هنا له لهب لامع جميل، ويعطي أقصى حرارة بأدنى قدر من الدخان . انـــه (الروثة) [1] أو (الغضا) (نوع من الاثل) ويجلس الناس حول الموقد ، بينما يجري صنع القهوة ، اجراءاً صامتاً يستغرق نصف ساعة تقريباً .

وبمجرد وصولنا ، أحضرت قصعة من التمر من محصول العام الماضي، وهو لزج ومهروس ، ولكنه طيب ، وفي المساء تناولنا عشاءاً معتاداً مكوناً من البرغل ولحم الدجاج المسلوق. اننا مندهشون جداً من الأدب الذي عليه كل فرد . فعبدالله، مضيفنا ، سألنا على الأقل عشرين مرة عن صحتنا قبل أن ننتقل من شيء إلى آخر ، ولم يكن من السهل أن نجـد ثناء مناسباً للرد . وكل شيء بالطبع بائس وبسيط ، ولكن المرء لا يملك إلا أن يحس انه بين قوم متحضرين . وقد اكثروا من اللجب مع محمد الذي يعاملونه كشيخ .

و (تدمر) معروفة الاسم جيداً وتعتبر على هذه المسافة مدينة هامة . ووجود انسان في مركزه يقوم بعمل شبه حقير كالذي يقوم به محمد معنا ، يعتبر مفاجأة كبيرة ، و لهذا وضع

---

(١) الروثة : من مراعي الابل المفضلة .

ومما يتندّر به على قبيلة الرّوَلة ما ينسب الى أحدهم ، أنه عند ما سمع واعظاً يعظ ، ويصف الجنة التي أعدها الله للمتقين يوم القيامة ، وانها حوت ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، سأل الرويلي الواعظ قائلا : وهـــل فيها روثة ؟ !

موضع استجواب مهذب في المساء في مـــا يتصل بالباعث وراء رحلته .

لم يشاهد (الفرنج) قط في (كاف) من قبـل ، هكذا يقول الناس،وهم لا يفهمون الاحترام الذي يقابل به الاروبيون في أماكن أخرى . وعلى أية حال،فقد شرح لهم محمد « أخوته مع البيك » ، واحتج أن رحلته هي رحلة شرفية ، لا رحلة من أجل الربح،حتى نعامل بنفس القدر من البشاشة كما لو كنا عربا بالولادة . وكان عواد الشمري ذا فائدة عظيمة لنا ، من حيث أنه معروف جيداً هنا ، فيقوم بدور التقديم .

من تاريخ « كاف » :

و (كاف) مستقلة تماماً عن السلطان ، ولو أن العساكر الترك نهبوها مرتين، مرة بقيادة ابراهيم باشا ، ومرة ثانية منذ بضع سنين فقط، عندما أرسلت حكومة دمشق حملة عسكرية إلى وادي السرحان . وشاهدنا خرائب قلعة ، قصر السعيد ، على تل فوق البلدة ، هدمها السابقون (جنود ابراهيم باشا) ، وسمعنا كثيراً من النواح حول أعمال الآخرين .

كاف تابعة لحكم ابن رشيد :

وسكان (كاف) يعترفون بأنفسهم رعــــايا لابن رشيد ، رئيس جبل شمر ، وكان بعض قومه هنا منذ أيام قليلة فقط ، يأخذون الاتاوة ، وهي مبلغ صغير جداً ، عشرون مجيديـاً (٤ جنيهات استرلينية) ، وهم يدفعونها بابتهاج مقابل حمايته لهم . وهم متحمسون جداً (للامير) ، كما يسمونه ، وحقاً ليس هناك من سبب حتى يرغبون في الانضمام إلى سورية .

تجارة كاف وأثري :

ان مدينة (كاف) الصغيرة وجارتها (آثري)حيث نحن الآن ، تجارياً ، لهما من الاتصال بالشمال أكثر من الجنوب ، لأن ثروتهما الأساسية، – كما هي الحال – تنبع من تجارة الملح مع (بصرى) . ويبدو أن عبد الله القاسم ميسور الحال ، لأنه يملك عدة عبيد ، ولديه أكثر من زوجة واحدة . إلا أن الفلو الذي أشرت اليه هو كل ما يملك من ذوات الأربع ، كان سيأتي معنا ، كما قال ، لو كان له ذلول . ولاحظت بضـــع جمال وحمير وماعز حول القرية .

وكان مقبول الكريشة ، قد عاد ، ونحن نريد الآن أن نجد شرارياً ليأخذنا إلى الجوف .

بلدة أثري :

لقد أتينا إلى (أثري) ، الواحة التوأم لـ (كاف) ، على بعد ساعتين ونصف إلى الشرق منها، في وادي السرحان أيضاً. وهذه ليست مثبتة على كثير من الخرائط الحديثة ولو أن (شسني) وضعها على خريطته بطريقة خاطئة . ولقد وجدنا على طريق (البارومتر) أنهما يقعان على نفس المستوى وهكذا يبدو أن ظننا أن وادي السرحان ليس له منحدرات قد تأيد.

وادي السرحان :

أن وادي السرحان منخفض فوضوي غريب ، من المحتمل أنه قاع لبحر قديم مثل البحر الميت ، وهو هنا ذو اثني عشر ميلاً عرضاً ، إذا كان لنا أن نحكم بالتلال التي نراها خلفه ، والتي هي بدون شك المرتفعات المقابلة للحوض .

وتوجد آبار عديدة هنا وفي (كاف) ، وهي عريضة وضحلة ، لأن الماء على عمق ٨ أقدام فقط من سطح الأرض . ومن هذه تسقى بساتين النخيل . وتوجد أيضاً آبار في الخارج، وكلها تقع على نفس المستوى ، والماء صالح للشرب ، وغير ممتاز بأية حال . عبرنا بحيرة مالحة واسعة ، وهي الآن جافة، ومنها يجمع الملح للقوافل .

محمد الدليل وعراقة حسبه !!:

وفي طريقنا سلانا محمد بحكايات عن مولده وأسلافه .

وقد سمع أهل (كاف) بـ (ابن عروج) .

وأخبروا محمداً أنه سيجد أقرباء في أجزاء كثيرة من بلاد العرب علاوة على (الجوف) ويقولون أن هناك شخصاً ما في بريدة، وأحد (آل حميدي) الذي سمع عنه محمد كأحد أبناء عمومته . وزوجة الشيخ هنا في (أثرى) من عائلة الجوف .

وفي الواقع يبدو أن كل شيء يسير تماماً كما توقعنا .

وصف بلدة أثري ... وآثارها

و (أثري) هي أيضاً محل أصغر من (كاف) إلا انهـا تفخر بالبناية القديمة ، القلعة المصغرة في داخل الأسوار ، شيء ما على طراز بيوت (هارون الرشيد) . وهذه مبنية بحجارة سود ، حسنة التربيع منتظمة الوضع ، بدلاً من الطين ، المادة العربية الشائعة في البناء .

وعلى عتبة المدخـــل توجد ، أوبالاحرى كان يوجد ،

كتابة بحروف قديمة ، ربما حميرية ، التي كنا سننقلهـــا لو أنها كانت واضحة ، ولكن الجو قد كاد يمحوها [1] .

وهنا هـــا نحن قد أضافنا (جروان) وهو شاب عديم الترتيب بنصف ذكاء ، وله شعر طويل في جـدائل ، ووجه أشبه بكلب (اسكوتلندي) ، وهو ابن مرزوقة ابنة عم محمد ذاته . ومع أنه لا شيء فيه يدعو إلى الفخر بـــه كقريب ، فانا نجـده مضيفاً لطيفاً يقظاً . وأمه امرأة ذكية وكريمة الأصل ، وانه ليبدو غريباً أن يكون لها ولد بهذه الضعة وأبناؤها الثلاثة الآخرون (جروان وهو أكبر اربعة) لهم ذكاؤهم مثل سائر الناس ، ولكنهم موضوعون في الخلفية وجاءت (مرزوقة) لتراني الآن بطبق كبير من التمر في يدها، وتوقفت لنتحدث . ان وجهها ما زال جذاباً ، ولا بد أنهـا كانت جميلة إلى حد كبير. وألاحظ أنها تلبس عدداً من الخواتم الفضية كخواتم الزواج .

وتخبرنا (مرزوقة) اننا سنجد كثيرين من اقرباء (ابن عروج) في الجوف . وهي نفسها غادرتها صغيرة ، هي نتحدث عنها كفردوس ارضي ، من حيث انتزعت لتعيش في هذه الواحة الصغيرة التعيسة ، وحقاً أن (أثري) مكان بائس كل شيء فيها ما عدا بستان جروان ، وبعد مشية في بستان النخيل ،

---

(١) أخبرنا أن هذه الكتابة ذات صلة بكنز مستور وهو وهم شائع بين العرب الذين لا يستطيعون القراءة (الأصل) .

منعني عَرَجي من الانضمام ، وجلسنا جميعاً إلى عشاء طيب مكون من خروف وخبز ثريد – وللخـــبز مذاق كالفطائر الممتازة – قام بتقديمه لنا جروان بشخصه ، وهو واقف، طبقاً للاسلوب العربي عندما يأكل الضيوف ، وتلاحظه أمه بعناية ، وتخبره مـا يجب أن يفعل ، ومن الواضح ، ولو أن لديه من الحس ما يجعله قليل الكلام أنه ينظر اليه كمن (لا وزن له) في العائلة ، ويصف (ولفرد) المشية في البستان بأنها ممتعة نوعاً ما ، فمحمد وعبد الله يلقيان خطباً طويلة ثناء على كل ما رأيا ، ويحكيان لرئيس رجال جروان قصصاً خارقة عن أبهة (تدمر) وثروتها .

وبستان جروان ، الوحيد في أثري ، يحتوى على ٤٠٠ نخلة ، كثير منها مغروس حديثاً ، ولا يوجد فيها شجرة يزيد عمرها عن ٢٥ سنة. وكان من بينها نخلة من صنف (الحلوة) ، تمر الجوف الحلو، استوردت من هناك، واعتبرت هنا من النوع العظيم الندرة. وفي هذه النقطة كان هناك ترديد حار بالاعجاب (كورس) . وبان اعجاب شديد بشجرات الاثل أيضاً. وهي تربى من أجل الأخشاب، وتنبثق من الارومة حين تقلع ، وست سنوات من النمو يجعلها على ارتفاع عشرين قدماً .

بين القريات والجوف

وصل رجلان من (الجوف) بأخبار سارة ، وهي أن

كل شيء على ما يرام بين هذا المكان وبين الجوف ، أي أنه ليس هناك عرب بعد في وادي السرحان ، سارة لأنه لم يكن هنا لدينا مقدمات ، وأي لقاء ربما كان غير مقبول . لقد تأخر الموسم كثيراً والمرعى سيء جداً بحيث أن الوادي قد هجر منذ الربيع الماضي . لن يكون هناك الآن طريق ، أو أثر من أي نوع ، وبما ان المسافة مائتا ميل على الأقل إلى الجوف ، فيجب أن يكون معنا دليل ليرينا الابار . وشخص كهذا وجدناه في بدوي صغير منظره مضحك شراري ، صادفناه هنا ، وهو سيذهب معنا مقابل عشرة مجيديات .

٢٩ ديسمبر (١٨٧٩)

كانت هناك ريح شرقية حادة تهب حينما ابتدأنا هذا الصباح ، ولاحظت زقزاقا كطائر بري في البحر ، يطير هنا وهناك تحت روضة من أشجار النخيل ، ينظر بلا أمل ، متعبا برحلته الطويلة . يالمسكين !! سيموت هنا ، لانه لا شيء هناك يأكله الطائر في أي مكان مئات الأميال . من المؤكد انه قد طرح به بعيداً عن منطقته ، ربما من الفرات !!

على ضفة وادي السرحان

ان طريقنا اليوم يمتد على طول حافة الوادي ، نعبر أحيانا رؤوسا صخرية من السهل الاعلى ، واحيانا اخوارا من الوادي وكانت ارتفاعها دائماً نوعا ما واحدة (٢٢٥٠) قدما علوا

و(١٨٥٠) انخفاضا ـ وهكذا يمكن أن تؤخذ هذه على انها الارتفاعات المقابلة لـ (الحمّاد) ووادي السرحان . وبالاضافة إلى ذلك ، يوجد هنا وهناك تلال منعزلة ، بارتفاع يزيد بما يتروح بين ثلثمائة واربعمائة قدم عن أي منهما ، أرض صخرية صعبة متكسرة طول اليوم ، مكونة بصفة أساسية من رمال مع حصي ملحية منثورة عليها ، والنبات شحيح على الأرض المرتفعة ، ولكنه أوفر في التجويفات . وفي وهدة متعرجة تقود إلى الوادي ، وجدنا شجرات (الغضا) ، وغير ذلك لا شيء اكثر من اعشاب . وهناك اخبرنا (عواد) انه نُهب منذ سنتين وُجرد بغزو من حوران . فقد جمال وكل ما يملك. كان عدد الحورانيين ثمانية وجماعته ستة وسألته: كيف حدث أن قطاع الطرق ظفروا به ؟ قال: انه كان (من الله). ويبدو ان وادي السرحان هو المكان المفضل لقطاع الطرق ، و(عواد) يعتبر الحادثة أمراً عادياً. وسألته : لماذاترك قبيلته، شمر ، وجاء ليعيش بعيداً في الشمال في (صلخد) ؟ قال: انه (نصيب) شيء مقدر ، ان زوجته من (صلخد) ، وكانت لن تترك قومها . وسألته: كيف يكسب معيشته ؟ فضحك ، وقال : (املك نصف مهر وذلولا ، واقوم بالغزو . ويوجد تسعة منا ، من شمر ، في حوران،ونحن نخرج معاً نحو(الزرقا) أو إلى (اللجاة) الغربية ونأخذ المواشي ليلاً ، أرانا بعض ندوب مفزعة لجروح أصيب بها في هذه المناسبات ، وجعل

(ولفرد) يتحسس رصاصة لا تزال مستقرة في جنبه . وهو مخلوق محب للاستطلاع ولكننا نحبه، وسواء كان قاطع طريق أم لم يكن، فان فيه روح الرجل الماجد (الجنتلمان) . وفوق ذلك فهو صاحب ملائم ، ويحسن الغنــاء ، ويروي الأقاصيص الشعرية ، وهو محبوب في كل مكان . ففي (كاف) (أثري) استقبله الرجال ، شيبا وشبانا ، بالعناق والقبل ورحبت به النساء في كل بيت .

آبار قراقر ..

كادت أجسادنا تتجمد طيــلة الصباح ، فقد كانت الريح تنفذ من خلال جببنا المصنوعة من الفراء . وفي الساعة الثانية عشر والنصف (ظهراً) بعد أربع ساعات من السير ، أتينا إلى بعض آبار تسمى (قراقر) ، ست منها في تجويف عار ، وحولها آثار جمال تؤدي من جميع نقط الدائرة نحوها . ومن الواضح أن الوادي يسكن في بعض أوقات السنة ، ويقول عواد: أن (الرولة) تسكنه في الشتاء ، غير أنه لا يوجد أحد هذه السنة . والماء ، شأنه شأن ماء (كاف) و (اثري) ، ضارب إلى الملوحة بعض الشيء .

وبالقرب من (قراقر) رأينا بعض الغزلان وطاردناها دون جدوى . وانـــه لأمر مكدر ، لأني نسيت أن أحضر لحماً ، وما لم نستطع أن نقبض أو يرمي شيئاً مـا ، فلن يكون لدينا شيء حتى نصل الى (الجوف) .

كان ينبغي أن أفكر في الأمر ، لأننا ، وإن كانت المؤن ليست وافرة في (اثرى)، كنا ربما في استطاعتنا أن نشتري خروفاً ونسوقه معنا ، إن ألـمّ عرجي صرف انتباهي — عذر سيء ، ولكنه العذر الوحيد . وعندما أركب أعاني ألما أقل من أي وقت آخر .

ها نحن الآن ، منذ الساعة الرابعة (بعد الظهر) ، مخيمون على الرمل تحت أيكة من أشجار الغضا ، وقد توقفت الريح ويبدو أنها من هنا تهب دائماً ما عدا ساعة حوالى الغروب وأخرى عن الفجر . وسنتعشى لحم بقر مسلوقاً ، وبرغلا مع (صلصة) كاري ، وحبحباً ، هو آخر مخزوننا من حوران .

٣٠ ديسمبر : (١٨٧٩ م)

طول الصباح على مستوى عال ، فوق أرض مثل (الحرة) ذات صخور بركانية ، ريح جنوبية شرقية هوجاء في وجوهنا فلم نستطع الكلام ولم نكد نستطيع التفكير ، طريقنا يمتد نحو سلسلة من التلال منظرها (غير كريم) تسمى (المسمّة) (لعلها المرتفعة) وعندما وصلنا هذه :

صيد من « الجراد » والارانب !:

اتجهت (طريقنا) الى يمينها لأننا نسير في غير طريق ،

رأينا رِجْلاًمن الجراد الأحمر يطير حول المكان، عندما أدفأت الشمس الارض ، وطاردها الرجال وصادوا بعصيّهم منها ما يكفي لصنع طبق العشاء . هذه الحشرات ، عندما تطير ، تبدو شديدة الشبه بذباب مايو الكبير ، من حيث ان لها نفس الطيران القليل الحيلة ، تجرفها الرياح . وقل أن تكون لها قوة كافية للتحكم في الاتجاه حتى تتغلب على الصعوبات . فأحياناً تطير في اتجاه معاكس للجبال ، وأحيانا تسقط بقوة على الشجر حيث يسهل القبض عليها . وحين تستقر على الأرض يصعب ، على أية حال ، أن تراها ، وتظل يقظة وتنط ثم تنساب مبتعدة مرة أخرى حين تقترب منها . ويبدو أن لها إحساساً أكثر مما لها من قوة على الحركة .

وفي الساعة الثانية أتينا إلى آبار أخرى (المُويهة)[١] ومعظمها تخنقها الرمال ، غير أن واحدة تحتوي على كميات كافية من المياه الضاربة الى الملوحة .وتقع هذه الآبار وسط أدغال من الاثل ، من حيث أفزعنا عدداً من الأرانب البرية التي لم تستطع كلابنا السلوقية أن تقبض عليها ، لأنها كانت دائماً تتملص بجفلة لتختفي. وانتظرنا – (ولفرد) وأنا – لهذا القنص غير المثمر الذي كان عشاؤنا يعتمد عليه . ولم ننضم الى بقية الجماعة مسافة أكثر من ميل . وقبل أن نلحق بهم

(١) نبهنا الى صحة (المويهة والمسمّة) الأخ سيف بن زيدان الشمري ، فله الشكر . (المترجم)

صادفنا (حنا) يجلس على هدومه (لحاف وعباءة) وابراهيم يقف بجانبه ، وكلاهما يصيح : « واه ، واه ، واه ! » ولم نستطع أن ندرك ما حدث ،كما لم نقدر أن نحصل أيةمعلومات منهما ، سوى انهما كانا سيبقيان حيث كانا . هذان الرجلان من أهل المدينة يجلسان على فراشهما وحيدين في وادي السرحان ، كانا يمثلان مشهداً للعبث بشكل لم نتمالك ، في تلك اللحظة ، من التغلب على الضحك ، إلا ان المسألة لم تكن مسألة ضحك، وكان من المستحيل ، بالطبع ، أن نتركهما هناك ، فأصررنا على أن نحصل على ايضاح . لقد كان هناك خصام بين (حنا) و (عبد الله) لأن الاخير ساق ذلول (حنا) بسرعة مع الجمال الاخرى ، ورفض أن يتركها تنيخ ثم تنهض من جديد وكان عواد وعبدالله في عجلة جديدة ليبعدا عن (المُويْـهَة) قدر الامكان ، لأن (حمدان الشراري) يقول انها بقعةخطرة ولكن (حنا) كان غاضبا ، وفي غضبه رمى عباءته ، وقفز عليها ، وسحب فراشه على أثره ، وجلس على الأرض، وهناك تركه الآخرون ، معولاً هائجاً . وعلى هذه الحالة وجدناه . واقترح ان يترك هو و (ابراهيم) هناك ليأكلهما الضبع ، الذي قد شاهدنا آثار أقدامه. وعلى أي، فابراهيم ، الذي بقي معه فقط لمصاحبته ، كان مستعداً تماما لمواصلة السير ، وعند رؤية ذلك لم يتوان (حنا) عن النهوض ، وتبعنا تاركا أخاه يحمل عنه فراشه . ولم يكن من الصالح أن نستفسر عمن كان المخطىء ومن المصيب ، وأوقفنا الجمال ، وأعدنا الذلول ملحين

على (حنا) أن يركب ، وهو ما فعله بعد مقاومة . وانتهت الحادثة . وكلف محمد بمهمة الاصرار على السلم مع العرب ونظن أننا حملناحنـّاعلى الاقتناع بألا يحمل ضغينة . انه من المستحيل على الاطلاق على أي واحد أن يعود الآن بدون أن يفقد حياته ، واني لواثقة انهم جميعاً سيكونون معقولين . انه من غير المقبول أن نفكر ان خلافاً حدث في جماعتنـــا الصغيرة ، وهي على حالتها هذه منفصلة عن بقية العالم الآن . نحن الآن مخيمون في واد جانبي حيث كلأ الجمال طيب . رأينا المـكان من مسافة كبيرة ، لأننا الآن اصبحنا ماهرين في إمكان تخمين البقـــاع فحين ترى أرضاً صخرية في خطوط يمكنك أن تتأكد من وجود كلأ . لم نر مؤخراً أية أمارة للعمران في البلاد منذ أن تركنا (أثرى) ، ولا آثار خف جمل ، ولا قدم انسان.

ان الجراد المشوية صالح للاكل !!

في بطن وادي السرحان :

٣١ ديسمبر (١٨٧٩ م) :

يوم طويل آخر من السير ، وها نحن في نهاية العام في مكان من اكثر أماكن العالم إقفاراً . كان البرد شديداً جداً ليلةأمس لدرجة أن جميـع الجراد ميت . انه طريح في كل مكان ، تاكله طيور الصحراء والقبرات والابالق . انحدرنا مرة أخرى

الى القرار الرئيسى لوادي السرحان ، وهو لا يزال على نفس المستوى كما كان من قبل ، وهو هنا مسطح تقريباً ، ومغطى بأعذاق من اليهق وأعشاب أخرى ، وكلها مالحة المــذاق ، والتربة سهلة التفتت وغير مكينة ، وبيضاء في أماكن بفعل ملح البارود (نترات البوتاسا) ويصرح عواد والشراري انه توجد رمال متحركة نقرة (َحضَوْضَى، حرفيا، هاوية)، في مكان ما مجاور ، حيث يسوخ أي شيء يمر عليها ويختفي دون أن يترك أثراً : رجال ، جمال ،وغزلان ، غير أننا لم نر شيئاً من هذا .

سير مع خوف وحذر :

ولما سرنا محاذين حافة الوادي ، قابلنا فجأة بعض الغزلان التي قادتنا الى أرض أعلى ، حيث وجدنا قفراً صخرياً من نمط (الحرة) ، وبين الصخور رأينـــا ضبعاً يمشي الهوينا . ولم نحصل على شيء على أية حال ، لا عليه ولا على الغزلان ، وها نحن لا نزال من غير لحم . ولم تحدث مصادفة أخرى حتى أتينا الى نخلة تقف وحيدة في مكان مكشوف (مــكان يسمى وُسَيْط ؟) ، وبالقرب منها يوجد نبع ساحر صغير ، بــين جذور أيكـــة كثيفة من النخيل (مكان يدعى قدير ؟) واتساع الفتحة حوالي ثلاثة أقدام ، وعمقها قدمان ، وعمق

الماء فيها حوالي قدم واحد . ويرتفع الماء من جديد بمجرد أن يؤخذ ، ولكنه لا يغيض قط . وتوجـــد آثار أقدام ضباع وغزلان حول المكان ، وهذا ، فيما افترض ، هو المكان الذي إليه تأتي حيوانات الصحراء لتشرب ، لأنه الماء الوحيد على السطح الذي رأيناه حتى الآن. ويسمى هذا النبع «معيصر ؟» بقعة سارة حيث كنا نحب لو خيمنا ، ولكنه من الخطر دائماً أن نقف بالقرب من ماء ، خوفاً من يأتي ناس .

ويقول عواد : أن هناك رواية عن مدينة أو قرية وجدت هنا في السالف ولكن ليس من خرائب ترى . والمـاء عذب وطيب ، كما يمكن أن يدرك من الحشرات التي تسبح فيـه . إن العرب يميزون طيبة الماء بهذه الطريقة. لا شيء في الصحراء أكثر ريبة من المـاء الـكامل الصفاء ، خـــال من الحياة الحيوانية .

في هدوء الليل ..

وعلى أنغام مغن من قبيلة الشرارات !!

نحن الآن مخيمون تحت حرف منخفض مجوف في شكـل كهوف كما لو كان بفعل الماء ، مغارات رئيسية للضباع. وهناك مشهد جميل يشرف الى الخلف على تـــلال (مزمة ؟)

(لعلها مرتفعة) . الليل هادىء وبارد ، ولكننا لا نحب أن نضرم كثيراً من النيران خوفاً من الأعداء . وحمدان ، دليلنا الشراري ، وهو مخلوق فظ ، متوحش ، لتنظر إليه ، كان ينشد أقصوصة شعرية جميلة جداً ، ويخبرنا أنـــه هو نفسه ناظمها . وهي في أدوار كل منها مكوّن من أربعة سطور ، مع تعاقب في القوافي ، وتتعلق بحادثـــة حدثت في عائلته ، وعندما كان ينشدها كان بقية العرب يرجعون ، مرددين دائماً الكلمة الأخيرة في البيت بمقطع التفقية ، وكان لها تأثير طيب. كانت القصة بسيطة ، وتقص كيف أن أم حمدان وأختــــه تخاصمتا ، وكيف أنهما رفعتا همومهما أمام عُبَيد بن رشيد في حائل ، وكيف ان الشيخ العجوز سوّى القضية بأن لف حبلاً حول عنق الإبنة آمراً الأم أن تمسك به ، وأن تفعل ذلك بقية أيامها . وحين قبلت الابنة امها صرفهما عبيد بهدايا ، ذلول ، وعباءة لكل واحدة منهما ، ومائة صاع من البر ، هدية استمر في تقديمها لهما كل عام الى أن مات ، ولا يزال يقدمها الآن ابن أخيه محمد ، حاكم جبل شَمّر الحاضر . وقدم لنا حمدان أيضاً تقريراً مثيراً للانتباه عن سياسة حائل ، ويكاد يتفق مع ما نتذكره من تقرير (بلجريف) (١) ، مواصلاً ذلك الى تاريخ

---

(١) هو : وليم جيفرد بلجريف ، قام في سنة ١٨٦٢ برحلة الى بلاد العرب ، بدأها من « معان » في شهر حزيران ، ماراً بوادي السرحان ، فالجوف ، فجبّة ، فمدينة حائل حيث وصلها في شهر تموز ابان حكم طلال بن ←

متأخر . وابن رشيد الحاضر ليس بأية حال تلك الشخصية المحبوبة بنفس درجة أخيه طلال ، وتقرير حمدان عن حرفته مفزع نوعاً ما ، ويظهر أنه قد أذاق الموت نحواً من١٢ شخصاً (درزن) من أقربائه ، وهو مخوف في شمر أكثر منه محبوبا ، وهذا مزعج جداً ، لأنه قد يكون سبباً لأن لا نذهب الى نجد بعد كل شيء . ولكننا سنسمع أكثر عندما نصل الى الجوف.

وإنشاد حمدان كان ، بالقدر الذي استطعت كتابة الجزء الموسيقي منه مثل هذا :

(صورة النوتة الموسيقية على صفحة ٩٩ من المجد الأول من الأصل الانجليزي) .

طعام قليل ولحم صيد ..

اول يناير ١٨٨٠ :

صقيع أسود ، ولكنه هادىء . لقد غيرنا طريقنا ، وكان اتجاهنا طول اليوم في اتجاه الجنوب تقريباً — ٢٥ ميلاً بقدر

← عبدالله بن رشيد الحاكم الثاني في الأسرة الرشيدية (من سنة١٢٦٣ الى سنة ١٢٨٥) واجتمع به وبعمه عُبيد الرشيد .

وقد أورد في رحلته معلومات مهمة عن مشاهداته في مدينة حائل :

ثم سار حتى بلغ مدينة الرياض وبعد اقامته فيها مدة ، هرب خلسة ، ثم سار الى الاحساء فالقطيف ، ومنها أبحر الى سواحل الخليج .

ورحلته مطبوعة .

مـــا نستطيع حساب ذلك بالتقريب – وفي وسط وادي السرحان ، سهل مستوى من الرمل والحصى ، مع رواب من الرمل الابيض النقي هنا وهناك مغطاة بالغضا . خطتنا أن ننهض ونقلع خيامنا في أول ومضة للفجر ، ونشرب فنجان قهوة ، ونأكل بسكويتاً أو بقسماطاً (كمك) ثم نمشي حتى الثالثة أو الرابعة بعدالظهر بدون توقف حتى ولا لحظة،ونأكل ست تمرات ،وشيئاً من البقسماط ونحن نسير . ثم بمجرد وقوفنا وقبل أن نضرب الخيام نوقد ناراً ونصنع قهوة ، تصبرنا حتى يكون العشاء معدّاً حوالى مغيب الشمس . انه لمدهش كيف أن طعاماً قليلاً يمكن للمرء أن يعتمد عليه وهو مسافر . لم نتناول لحماً مدة الاربعة الايام الماضية الى اليوم ، فقط مرق لحم بقري ، وبرغل ، وتمر ، مـع بصل مشوي أحيانا ، أو دقيق مخلوط بمسحوق (الكاري) والزبدة ، يخبز في هيئة كمك (كليجا) وهذا الأخير طيب جداً وسهل الصنع .وعلى أية حال ،فإننا اليوم في رخاء حيث ان الكلاب طاردتأرنباً برّياً فاصطدناه . والأرنب الصحراوي أكبر قليلا من الارنب الكبير ، وهو كثير جداً لواحد ،ولا يكفي لاثنين ، غير أن محمدا يتنازل بشهامة عن نصيبه ، ويقول انه يستطيع أن ينتظر .

من حكايات « محمد » الدليل ..

ان محمداً يعمل على تخفيف نزاع شب هذا المساء على اختيار مكان المخيم ، بأن يحكي لنا بعض قصص مغامراته في الصحراء، ونحن نحكي له قصصنا . كان له اخ أصغر ، وكانت امه شديدة الكلف به ، طفل عادي من المدينة ذو « وجه ابيض كفتاة » عرف القراءة ، والكتابة ، ولم يعرف شيئاً عن الصحراء (محمد نفسه ، .... ، كان دائماً جمالا) . والآن في تدمر يثور القتال والخصومات بينهم باستمرار من اجل الشياخة ، وفي مناسبة من هذه المناسبات ارسل ابواه اخاه إلى السخنة ، القرية المجاورة ، على بعد حوالي ٣٠ ميلا من تدمر ، وهناك اقام بعض الوقت مع قريب . واخيراً ، مل ، على اية حال ، من البقاء بعيدا عن وطنه ، واراد ان يرى امه . فخرج مع غلام اخر (من ١٠ إلى خمسة عشر سنة) ليسيرا عائدين إلى تدمر . وكان ذلك في منتصف الصيف ، وضلا طريقهما وهاما بعيداً حتى حماد حيث ماتا من العطش . وخرج محمد يبحث عنهما ، فوجدهما ميتين متلاصقين .

وفي مناسبة اخرى كان لمحمد نفسه لقاء مع الموت تقريبا .

فقد سار وحيداً إلى القريتين ، ووقع في غزو لقطاع الطرق من التلال . وجرده هؤلاء من كل شيء باستثناء قميصه

وطربوشه . إما بندقيته فقد دبر ان يخفيها في حرج، ولكنهم لم يتركوا له أي شيء آخر ، لا طعام ولا ماء ، وكان ذلك في منتصف الصيف . وكانت القريتين ، اقرب مكان ، على بعد حوالي ٤٠ ميلا . وكان مصابا بالعرج من ضربة تلقاها . وعلى اية حال ، اتجه بعد ذهاب اللصوص،في ذلك الاتجاه وتحامل على مواصلة السير حتى الليل واليوم التالي إلى ان وصل إلى خرابة تسمى قصر الاخيضر ، سقط فاقد الاحساس في الظل، وتمدد ٢٤ ساعة غير قادر على الحركة ، يعاني سكرات الموت من العطش . واخيراً ، حينما قال لنفسه : « الآن سيكون على ان أموت » مرت جماعة من الجمالين ووجدوه طريحا هناك . وفي البداية ظنوه عبدا ، لأن الشمس قد حولته إلى اسود ، وكان لسانه جافا فلم يستطيع الكلام . ولحسن الحظ ، عرفه واحد من الجماعة ، وعندئذ اعطوه ماء . وكان ما زال غير قادر على ان يخبر عن نفسه ، ولكنهم وضعوه على حمار واحضروه معهم إلى تدمر .

وكانت قصتنا هي خصامنا مع (أبو نجاد) واندفاعنا من العقبة الى غزة ، حينما كدنا نهلك من العطش .

برد شديد يسبب مرضاً

كان العام سيبدأ بداية رخاء ، لولا البرد الشديد الذي أصيب به (ولفرد) . لقد فقد صوته .

٢ يناير : (١٨٧٩) .

صقيع شديد – الماء متجمد في الدلو . وصلنا (ابار شيبا؟) في الثامنة والنصف ، وسقينا الجمـــال – ملوحة الماء شديدة – المستوى طبقا للبارومتر الجاف ٩٥٠ العمق حق سطح الماء ١٢ قدماً . أتينا إلى ما يشبه الدرب ، جزءاً من السباخ ، إلا أنه من الواضح غير مطروق كثيراً .

في الساعة الواحدة (بعد الظهيرة) أتينا إلى بئر آخر ، بالقرب من صخرة غريبة ، حسبناها في البداية قلعة .

« النبك » أبو قصر ، وبئر (الجراوي)

لقد عبرنا الآن الوادي وها نحن على ضفته الغربية . مررنا ببيت خرب ، ليس ذا قيمة أثرية كبيرة ، يسمى (النبك أبو قصر) بئر أخرى بالقرب منه ، وفي الساعة الرابعة والنصف خيمنا تحت تلال رملية ، تتوجها الغضا . بقعة مبهجة ليست بعيدة عن بئر رابعة تسمى بئر الجراوي – المستوى طبقاً للبارومتر ١٨٤٠ . استعاد (ولفرد) صوته لكنه ما زال يعاني بردا خبيثاً . وأنا مازلت عرجاء كما كنت ، ولو أن الألم قد قل . وأني لا أظن أحياناً انني لن استعيد قدرتي على المشي .

هجوم على الكاتبة .. وعلى زوجها

الجمعة ٣ يناير : (١٨٧٩ م) .

لقد قمنا ، بمغامرة ، أخيراً ومغامرة غير موفقة ، درس قاس يتعلق بخطر إقامة مخيم قرب الأبار ، ابتدأنا مبكرين ، ولكننا عوقنا ساعة كاملة في الجراوي نأخذ ماء ولم نغادر الأبار حتى الساعة الثامنة تقريباً . ثم درنا متجهين نحو الشرق تقريباً نحو الوادي . التربة رمل صافي البياض وكان يصعب السير فيه ، فسرنا متمهلين ، عابرين تموجات بدون أية علامة أخرى غير التلال التي تركناها خلفنا . وهنا وهناك برزت روابي يكسوها الغضا . الى واحدة من هذه هرعنا ، (ولفرد) وأنا، تاركين الجمال خلفنا،ترجلنا وربطنا مهرينا الى الأشجار، حتى يمكننا أن نتمتع ببضع دقائق من الراحة، ونأ كل نصيبنا من لقيمات منتصف النهار—بينما لعبت كلابنا السلوقية وطاردت بعضها بعضاً في الرمال . انتهينا نتحدث عن لست أعلم ماذا ، حينما مرت بنا الجمال . كانت على بعد لا يكاد يبلغ مائتي ياردة أمامنا حينما سمعنا فجأة ، وقعاً ، يتردد وقعاً على الرمال ، صوتاً يحدثه عدو . ووثب (ولفرد) واقفاً على قدميه ، ونظر حواليه ثم نادى : « اركبي على مهرك هـــذا غزو » وعندما زحفت بـــين الأشجار الى مهري رأيت كوكبة من الفرسان مندفعين بأقصى سرعتهم مشرعين رماحهم ، على بعد

لا يبلغ مائتي ياردة . كان (ولفرد) راكباً حين تكلم وكان يجب أن أكون كذلك،لولا ركبتي المرضوضة والرمل العميق، وكل منهما انتهى حينما كنت انهض . وسقطت ، لم يكن هناك وقت للتفكير ، وما كدت أقف بجهد على قدمي ، حتى كان العدو يقف علينا ، وحتى صرعت بضربة من حربة . ثم احدقوا جميعاً بـ (ولفرد) ، الذي انتظرني وثب بعضهم على الأرض يمسك بعنان مهره . وكانت بندقيتي معه ، وكنت ناولتها له قبيل قليل ، ولكنها غير معمرة ، وكانت بندقيته وسيفه على ذلوله . ولحسن الحظ كان يرتدي ثياباً ثخينة (كثيفة)، عباءتين أحدهما فوق الأخرى ، ومن تحتهما ثياب انكليزية ، ولذلك لم تؤذه الرماح . وأخيراً تمكن مهاجموه من أخذ البندقية منه وكسرها على رأسه ، مسددين له ثلاث ضربات، محطمين كرسي البندقية . وبدت لي المقاومة لا فائدة منها،فصحت باقرب فارس:(انا دخيلك .. انا تحت حمايتك)، الشكل المعتاد للتسليم . وعندما سمع ولفرد هذا وظن انه قد لقي ما يكفي من هذه المبارزة غير المتكافئة ، واحد ضد اثني عشر ، رمى بنفسه من فوق المهر .

وتوقف الخيالة (الفرسان) ، وقد قبضوا على كلا المهرين ، وما ان جمعوا انفاسهم ، حتى بدأوا يسألوننا : من كنا ؟ ومن أين جئنا ؟ اجبنا.« انكليز وقادمون من دمشق » وجمالنا قريبة من هنا . تعالوا معنا وستسمعون عنا » بينما كان هذا يجري ،

واستمر فقط ٥ دقائق ، شكلت قافلتنا مربعا ، وكانت الجمال مناخة ، كما استطعنا ان نرى هذا ببساطة من حيث كنا . وما كدت اتوقع ان يفعل الفرسان ما طلبنا ، ولكن الرجل الذي ظهر انه عقيدهم تركنا في الحال نسير (وهو عمل يسبب لي الما حادا) ، وتبعنا مع الآخرين إلى القافلة . وجدنا محمدا وبقية جماعتنا ، متحصنين خلف الجمال ومصوبين بنادقهم ، وخرج محمد متقدما إلى الامام . وكان أول سؤال : « من انتم ؟ » . « رولة .. ابن ضباع » . « والله ؟ تحلفون بالله ؟» والله ! نحلف » . « وانت ؟ » « محمد بن عروج من تدمر » . « والله ؟ » « والله ! » وهذان الفرنجيان المسافران معكم ؟ « والله ! فرنج ، اصدقاء ابن شعلان » .

سلامة .. بسبب حماية ابن شعلان

وكان كل شيء على ما يرام لقد وقعنا في ايدي اصدقاء . كان ابن شعلان ، مضيفنا في العام الماضي ، ملتزما بحمايتنا ، حتى على البعد من الصحراء . ولم يكن أحد من قومه ليجرؤ على التدخل في شؤوننا ، وهو يعلم هذا . وفوق ذلك. فمحمد كان تدمريا ، ولذلك لا يقدر (الرولة) أن يسيئوا اليه ،لأن تدمر تدفع إتاوة لابن شعلان ، وللتدمريين حق في حمايته .. وهكذا ، فبمجرد ما أصبحت الملابسات جليــــة ، صدرت الأوامر من رئيس الجماعة الى أتباعـــه أن يعيدوا مهرينا ،

والبندقية ،وكل شيء وقع في الهرج.حتى كيس دخان (ولفرد) كل شيء استعيد . وتجهم وجه الزميلين الشابين اللذين كانا أخذا المُهْرَيْن يندبان بمرارة الحظ السيء في أنهم وجدونا أصدقاء. قال : آه يا للمهرين الجميلين والبندقية الجيدة !! ولكن العرب ذوو مزاج حسن ، مهما كانت أخطاؤهم الأخرى ،وكنا حالياً على خير وفاق ، نجلس في حلقة على الرمال ، نأكل تمراً ، ونديرأنبوبة السلم . لقد كانوا الآن ضيوفنا .

ثناء على حسن معاملة أولئك الاعداء

كان ما جذب اهتمامنا كشيء غريب في كل هـــذا ، هو حسن الظن الذي به صدقوا كل كلمة قلناها . لقد تكلمنـــا بالصدق،ولكن لماذا وثقوا بنا ؟ انهم لم يعرفونا نحن ولا محمدا، ومع ذلك ، فقد أخذوا كلمتنا على اننا أصدقاء ، في حين كان يمكنهم بسهولة الاغارة علينا وعلى ممتلكاتنا بدون سؤال . لا أحد مطلقاً كان سيسمع عن الأمر ، أو يعرف من كانوا .

ويبدو ان ابن (الضبعة) [١] ، الشيخ ، وأصدقاءه كانوا جماعة صغيرة في طليعة الجماعة الرئيسية (للرولة). لقد جاءوا يستطلعون أماكن الكلأ الممكن توافرها في الوادي ، ورأوا

(١) تقدم ذكره باسم (ابن ضباع) والمعروف انه يسمى ابن ضبيعان من قبيلة الشرارات لا من قبيلة الرولة ، ويدل على هذا ان البلاد كانت تحلها اذ ذاك قبيلة الشرارات .

أثرنا على الرمال ، فتتبعوا ، راكبين في سرعة حامية،ليلحقوا بنا . كانت مجرد صدفة،أن وجدونا منفصلين عن بقية القافلة، وهدأوا بمجرد أن رأونا . كل شيء يعتمد على السرعة في هذه المهاجمات ، وقد كان هذا ناجحاً تماماً .أقل تردد من جانبهم، وكنا نجونا بجمالنا . وهناك لم يكونوا ليستطيعوا أن يمسونا بسوء ، ذلك مع أنهم ١٢ بالنسبة لثمانية منا ، لم يكن لديهم الا حراب ، بينما كان معنا أسلحة نارية .لقد أحببنا منظر هؤلاء (الرولة) الفتيان . فبالرغم من سلوكهم الخشن ، استطعنا أن نرى فيهم رجالا نبلاء . لقد شعروا بالعار لاستعمالهم لحرابهم ضدي ، وأفاضوا في تقديم الاعتذارات ، لقد شهدوا شخصاً يرتدي عباءة ، ولم يشكوا مطلقاً في ان لابس العباءة رجل . وحقاً ان خطاهم ليس مسألة ناتجة عن المفاجأة ، فانفاسهم كانت منقطعة وكان العدو قد أثارهم لدرجة انهم لم يكونوا ليروا شيئاً سوى موضوع يتعلق برغبتهم – المهرين . وفقد هذين – على اية حال – اخشى ، كان بالنسبة لهم سبباً لحزن أكبر من تصرفهم الخشن الذي عاملونا به، حينما ركبوا مولين،بعد أن أعطيت التوضيحات وتبودلت الاعتذارات . كان محمد قلقاً ألا يؤخرهم ، معتبراً بفطنة أن تآلفنا معهم قد سار بما فيه الكفاية ، وكان من الواضح ان (عواداً) كان في تململ مريع . واتوهم ان عليه ديوناً كثيرة من الدم مستحقة الاداء ، وانه الى حد ما يخجل من الغرباء . وكان الآخرون ايضاً خاضعين نوعاً ما وصامتين ، وهكذا

ودعنا ابن ضبعة وتركناه يذهب .

كانت الامهار المنتمية لهـــذا الغزو صغيرة (مدموكة) ونشيطة ، ذات أكتاف طيبة على الخصوص، ورؤوس رفيعة، ولكنها كانت من النمط البوني (السيسي) أكثر من أمهارنا المنزية . وكان معظمها كُمَيتة . ورأيت أحدهـــا مركوباً في اللجام .

من آثار الهجوم

ولما ذهب (الرولة) قارنا ملاحظاتنا . فحصت اولا جروح (ولفرد) . ولكنها ليست إلا رضوضاً . تلقى الثوب السميك الذي يلبسه حول رأسه كل الضربات ، ومع ان كعب البندقية محطم تماماً بصلبه وخلافه ، فما زال رأسه سليماً . ولم تستطع الرماح ان تخترق ملابسه . أما فيما يتعلق بي ، فان الضرر الوحيد الذي أصبت به هو تجديد للالتواء الذي كنت مصابة به . غير اني لم أستطع تقريباً ان أنسى آلامه في غضبي عليه، باعتباره سبب القاء القبض علينا . ولولا هذا لربما أمكننا ان نعدو مبتعدين الى جمالنا ، وان نستقبل العدو باسلوب آخر تماماً . وسئلت فيما اذا كنت قد خفت ، ولكن الواقع انه في البداية لم يكن هناك وقت ، وبعد ذلـــك ابتلع الغضب كل احساس آخر . ويقول ولفرد غير اني لا أصدقه -: انه احس بالخوف ، وكان على وشك ان يهرب ويتركني ، ولكنه بقي

بعد التفكير . وتبدو المسألة الآن ، وهي منتهية ، أكثر ارعاباً ، وقد يكون أمراً طبيعياً .

أما بالنسبة للاخرين ، فمحمد مطأطىء الرأس بشكل مريع،بسبب عدم قيامه بنصيب بطولي في العملية . وكان الموقف الدفاعي المحض للقافلة حصيناً بدون شك ، غير انه بدا لا يتناسب تماماً مع المثل الأعلى للفروسية التي يعترف بها محمد دائماً . ويستمر في تأنيب نفسه ، ولكننا نخبره انه فعل عين الصواب . كان ، بكل تأكيد ، خطأنا اننا فوجئنا بهذه الطريقة . ولو ان العدو ، كما كان محتملاً ان يكون ، كانوا حقاً قطاع طريق وخارجين على القانون ، فان سلامتنا كانت تعتمد على احتفاظنا بالقافلة سليمة كقلعة لنعود اليها بعد ان نكون قد نهبنا . فلو انهم هرعوا في فوضى لمساعدتنا كان سيعرض القافلة للهزيمة ، التي كانت لن تعني في منطقة مقفرة كهذه ، شيئاً اقل من الموت برداً ومسغبة .

حقاً قد نكون ممنونين ان الامور لم تكن أسوأ . لن أترجل أبداً ما دمت عرجاء ، ولن اربط حصاني الى شجرة ما حييت .

ويبدو أن نذوراً كثيرة من الأغنام نذرت من قبل المشاهدين أثناء الواقعة ، وهكذا ستكون عندنا وليمة في الجوف – اذا وصلنا هناك .

كل شيء هادىء الآن ، وحمدان الشراري يغني غراميات

شاب وعذراء فرق بينهما المفسدون ، ودبرا فيما بعد استمرار وصالهما بربط اشاراتهما الاصطلاحية (من الخرق والورق والعظام). في الماعز حين تخرج هذه الى المراعي .

في الحماد : بين وادي السرحان والجوف

٤ يناير ، (١٨٧٩م)

لم يكن هناك تلكؤ هذا الصباح ، فكل واحد قد أصبح جاداً ، وانطلقنا في السابعة ، وواصلنا السير ثلاثين ميلاً بدون توقف ، بسرعة ثلاثة أميال ونصف في الساعة . لقد تركنا وادي السرحان نهائياً ، وها نحن نعبر (الحماد) إلى الجوف . لا ماء يوجد في هذه الطريق ، ولكنه أقل عرضة للغزو . وكانت التربة حصباء خفيفة ، قل أن يوجد فيها نبات أو عدم استواء يعوق خطو الجمال . وأتينا في الساعة الواحدة (ظهراً) إلى بعض تلال من الصخور الرملية (يغطيها الحديد) ، وهي بداية الأرض المتكسرة ، التي تقوم فيها الجوف ، كما يقولون . لقد كنا نسير صعداً بالتدريج طول اليوم ، وحين وصلنا ذاك ، أعلى نقطة على طريقنا ، سجل (البارومتر) ٢٦٦٠ قدماً . وجدنا هنا عدداً من الحفر ، تستعمل ، كما أوضح حمدان ، لجمع وتنقية السمح[١]، وهو حب صغير أحمر ينمو وحشياً (شيطاني)

(١) السمح : نوع من النبات يؤكل ، ويسميه بعضهم (البسيسة) .

في هذا الجزء من الصحراء ، ويستعمله أهل الجوف كطعام .

وبعد قليل أبصرنا رجلين على ذلول ، أول من رأينا من الناس عدا الغزو ، منذ أن تركنا (كاف) وعدا (ولفرد) ومحمد ليريا ماذا يكونان، وأطلق محمد عدة أعيرة نارية، ليكفر عن جموده، كما افترض، في المناسبة الأخيرة ، ونجح في افزاعهما وإطارة صوابهما . كانا رجلين في غاية الفقر ، يرتديان قمصان بالية ، وكان معهما قربة من التمر في أحد جانبي الجمل وقربة من الماء في الجانب الآخر . قالا انهما خرجا بحثاً عن رجل ظل في وادي السرحان أحد الرجال الذين أرسلهم ابن رشيد إلى كاف من أجل الأتاوة . لقد أخذ مريضاً ، وتوقف خلف رفاقه ، ولم يره أحد منذ ذلك الحين . وقد أرسلهما حاكم الجوف ليبحثا عنه . وقالا: إننا كنا على بعد بضعة ساعات من المدينة فقط .

وفي نفس الوقت ، بقينا مع جمالنا نستمع إلى ملاحظات عواد وحمدان ، يقتلهما حب الاستطلاع عن (الزلمتين) من الجوف . وأخيراً لم يعد في مقدرة عواد أن ينتظر ، ورجا حمدان أن يذهب معه . وقفز الاثنان من فوق جمليهما وانطلقا يجريان بأقصى ما يستطيعان ليقابلا الجوفيين ، اللذين كانا في هذا الوقت قد تقدما في طريقهما ، بينما كان (ولفرد) ومحمد عائدين . ومد ولفرد عند عودته إليّ حفنة من أحسن التمر

الذي ذقته في حياتي [1]، كان الرجلان قد أعطياه إياه. وعاد عواد والشراري الآن بلا تمر ، بل بقدر كبير من القيل والقال عن الجوف .

نحن مخيمون هذا المساء بالقرب من بعض التلال العجيبة من الصخور الرملية ، الحمراء ، والصفراء ، والارجوانية ، تكوين مشابه تماماً لأجزاء من شبه جزيرة سيناء . وهناك منظر فخم إلى الجنوب ، ونستطيع أن نرى في البعيد خطاً أزرق من التلال (جبال الطويل) ، وهي كما يخبروننا خلف الجوف في طرف النفود .

الدليل الشراري يتحدث عن قبيلته

لقد ظللنا نسأل حمدان عن قبيلته ، الشرارات ، وقدم ما يأتي باعتباره البطون الرئيسية [2] :

الحميرة ... الشيخ الحاوي .

الحلبة ... الشيخ ابن حديجة .

الخيالي ... الشيخ زيد الوردي .

(١) هو النوع المعروف بالحلوة (حلوة الجوف وبقعاء) .

(٢) التحريف واضح في هذه المعلومات وقد نعود الى تصحيحها بمعرفة القراء الكرام .

الشملات ... الشيخ فتح الله الدندة .

وليس للشرارات خيول،ولكنهم يربون أرفع أنواع الهجن في بلاد العرب . وأحسن فصيلة تسمى (بنات عدهان)[1] وبنت عدهان ، كما يقال ، لو ابتدأت من حيث نحن الآن عند الغروب ، لكنت في الغد . عند الشروق في (كاف)، مسافة تقدر بمائة وثمانين ميلاً .

منذ مدة ليست بالطويـــلة سرق لص ذلولاً شرارية في (المزاويب) ، وركبها إلى حائل في سبعة أيام بلياليهن .

الوصول الى الجوف

٥ يناير : (١٨٧٩ م)

ركوب طويل متعب مسافة ميلين ، متوقعين دائماً أن نرى الجوف ، ودائماً نصاب بالخيبة . والسطح مكسر الى تلال وسلاسل رائعة ، ولكن على مستوى ارتفاع أدنى من الأمس ، في الحقيقة ظللنا في انحدار طول اليوم ، وبين اونة وأخرى كنا نلمح وادي السرحان في البعيد إلى اليمين ، مع تلال زرق خلفه ، ولكن بدا أمامنا متوالية لامتناهيـــة من

(١) عدهان محل مشهور عند الشرارات، وهم ينسبون الابل النجيبة اليه فيقولون (من ساس عدهان نسل عيدهية) .

السلاسل الصخرية . وفي النهاية من قمة واحدة من هذه ،أصبح خط أسود ممكن الرؤية ، ينتصب بسواده مواجهاً التشويش الاصفر تكونه تلال من الصخور الرملية ووديان جديبة،عرفنا انها يجب أن تكون قلعة مارد . ولقد بدت ، حقاً ، حصناً يوحي بالجلال والهيبة . ولو أنهـــا موحشة بشكل كاف في وسط هذا القفر . ونحو هذا اندفعنا رغبة في منظر أقرب ثم جئنا الى طريق طبيعي مرتفع من صخور بيضاء ، أكد كل من عواد وحمدان انها استمرار لطريق الرومان الى (صلخد). كنا حريين أن نصدق هذا ، غير أنه كان واضحاً جداً أن الطريق صنعتها الطبيعة .وعلى طول هذه ، سافرنا بعض أميال حتى اختفت .

وفجأة أتينا الى ما يشبه طرف حوض ، وهناك بالقرب منا الى الاسفل، امتدت واحة واسعة من النخيل محاطة بسور ذي أبراج على مسافات بينها ، ومدينة صغيرة ملتفة حول القلعة السوداء .

لقد كنا في الجوف .

القسم الثاني :

بلاد الجَوْف [دومة الجَنْدل ، وسكاكة [1]]

(في هذا الفصل - وهو الجزء السادس من الكتاب - تقدم المؤلفة وصفاً شيقاً لمدينة الجوف ، وسكاكا ، ولمحات عن الأحوال السياسية في ذلك العهد .

وترسم - في الفصل السابع ، المضاف الى هـــذا القسم - صورة واضحة للمجتمع النسائي في الجوف ، حيث اختلطت بكثيرات من النساء ، قائمة بدور الخاطبة لدليلها التدمري من،محمد آل عروج مناسرة آل عروج في الجوف!).

(١) سمتها الكاتبة (مسكاكا) وهو تحريف .

ليست الجوف مطلقاً كما توقعنا . كان ظننا أننا سنجدها منطقة واسعة عامرة ، ويتحول ذلـــك لتكون مجرد مدينة صغيرة ، لا شيء هناك على الاطلاق خارج الأسوار سوى بضع بقع مربعة ، كل منها نحو نصف فدان ، مخضرة بالحنطة الفتية . وتسقى هذه ، من آبار ، وتروى تماماً مثل البساتين داخل الأسوار ، بمجاري صغيرة رسمت بعناية في أشكال ، مثل كعك المربى .

حوض الجوف كان بحراً :

وكل حوض الجوف بحق يكاد يبلغ ثلاثة أميال عرضاً في أوسع نقطة منه ، ويبدو ، وهو كذلك بدون شك ، الحوض الخالي لبحر داخلي ، أما كيف ، أو متى ، أو لماذا جف في الأصل ، فأمر فوق طاقتي لأخمن (يستطيع المرء فقط أن يقول مع محمد، انه « من الله ») ، لكن براهين أصله البحري واضحة في كل مكان . ويبدو أوطأ من بقية وادي السرحان ، الذي من المحتمل انه يتصل به ، وفي البداية ظننا انه ربما كان آخر التجويف المائي ، عندما كان ، للبحر ، حينما جف . ولكن القضية ليست كذلك في الواقع ، من حيث أن أوطأ جزء منه بالضبط على مستوى واحد مـــع جميع تجويفات الوادي .

آبار الجوف وبساتينها

واباره بين ارتفـــاع ١٨٠٠ و ١٩٠٠ قدم فوق سطح البحر ، وهي ضحلة ، بضعة أقدام فقط من سطح الأرض ، وينزح المـاء بواسطة جمال تجر حبلا طويلا ذي دلو ، يفرغ نفسه عندما يصل إلى السطح في ما يشبه الحوض .

بنيان البلدة ، وسوقها : —

والمدينة ، مع بساتينها ، محاطة بسور من اللبن ، ارتفاعه عشرة أقدام ، وطولها نحو ميلين من الشمال إلى الجنوب ، ونصف ميل عرضا . وبقية السهل تقريبا مسطح موات من الرمل ، مع بقعة هنا وأخرى هناك من الأرض الصلبة ، وصلصال رملي حيث تتجمع المياه عندما ينزل المطر ، ويبقى الملح عندما تجف .

وأينما حُفِرَتْ بِئْرٌ اتخذ بستان صغير ، مسيّج بحائط ، ومزروع بنخل .

ويوجد حوالي اثنى عشر من هذه الحقول القاصية يحتل كل واحد منها حوالي فدانين أو ثلاثة .

وفي مكان واحديوجد اربعة أو خمسة بيوت بساتينها معها ولها منظر قرية . والحوض بكامله ، باستثناء هذه الواحات ، أبيض يخطف البصر ، وتظهر احراج النخيل كبقع سوداء على سطحه .

والجوف نفسها لا تحتوي على أكثر من ستمائة بيت ، وهي كصناديق مربعة من اللبن ، ملتمة ، معظمها ، حول خربة (مارد) ، لكن ليس جميعها ، إذ يوجد حوالي ستة منها منفصلة تلتم في أجزاء مختلفة من الحرج، وكثير من هذه البيوت لها نوع من الابراج ، أو طابق علوي،وهناك ابراج صغيرة على مسافات غير منتظمة حول السور الخارجي . ان احدى القسمات الرئيسية للمدينة ، بالاضافة إلى مارد ، هي قلعة جديدة خارج صحن الحصن تماما ، يعيش فيها نائب ابن رشيد وتقع على أرض مرتفعة ، وهي مبنى مؤثر في النفس ، مربع الشكل ، وله أسوار ذات شرفات ، وذات ارتفاع قدره ٤٠ قدما ، تتاخمها ابراج دائرية ومربعة تستدق أطرافها مرتفعة ٤٠ قدماً على البقية، وليس لها نوافذ، بل ثقوب للرمي منها، ولكل برج زوائد تشبه القلنسوة لنفس الغرض .

وليس في الجوف ما يمكن ان يعتبر سوقا ، ولا حتى شوارع ، كما يفهم المرء عموما من هذه الكلمة ، مجرد عدد من الخطوط المتعرجة ، ذات جدران من اللبن على الجانبين

السكان، وبعض اخلاقهم

وعندما دخلنا المدينة راكبين وجدنا هذه الخطوط مزدحمة برجال مسلحين ، جميعهم يحملون سيوفا بالطريقة التي رأيناها في كاف ، مسودي الوجوه ، وغير مسرورين من رؤيتنا ، كما

ظننا . وردوا على تحيتنا (السلام عليكم) ببساطة ، وبدون حركة ، وتركونا نمر دون بادرة معينة للكرم . ان نفترض أنهم غيرمكترثين كان على أيّة حال خطأ، كان برودهم البادي مجردرسميات عربية،فعندما بدأ محمد يستفهم عن بيت اقربائه، أشاروا إلى الطريق بكل مدنية ، وجاء معنا واحد أو اثنان منهم وأخذنا باتجاه عدد من المسالك الضيقة، ومن خلال بساتين النخيل إلى الجانب الآخر من المدينة،ثم خارج المدينة من خلال بوابة أخرى إلى الخلف إلى أحد الحقول المنعزلة التي رأيناها من المرتفع . وكان قريبا ، على بعد لا يبلغ الميل ، وفي بضع دقائق أخرى ترجلنا ، وعوملنا بكرم بالغ في (قهوة) حويسين الانيقة .

في ضيافة أحد أقرباء الدليل

أما عن ما هي بالضبط علاقة حويسين بمحمد ، فلم أستطع بعد اكتشافه – ومحمد نفسه لا يكاد يعرف – غير أنه من الواضح هنا ان أية قرابة عصب مهما كانت خفيفة،تعتبر ذات أهمية عالية .

لم نكد نجلس الى نار حويسين نراقب تحميص البن ، حتى وصل قريب آخر ، جذبه نبأ وصولنا ، ثم آخر ، وكلاهما يضجان بالمعاتبة لكوننا قبلنا ضيافة حويسين لا ضيافتهما .

وُقبّل محمد ، وعونِق ، وكل ما استطاع أن يفعله

لتهدئة هذين القريبين المجروحين هو أن يعد بأن يقيم أسبوعاً عند كل منهما بمجرد ما تنتهي زيارتنا لحويسين . حقاً ان الدم هنا قوامه أثقل من قوام الماء . ان الظهور المفاجيء لابن العم العشرين يكفي لأن يولد الخصام عند كل أحد .

ذبح خروف، واستمتع كل واحدمنا بترف الحمّام في خيمتنا . وتغيير تام للملابس . ان الخيمة منصوبة في بستان صغير للنخل خلف المنزل ، ونحن هادئان في سلام ، وفي قدرتنا أن نعيد التفكير في كل ما حدث ، ونضع مشاريعنا من اجل المستقبل .

دعوة من الحاكم الرشيدي

٦ يناير : (١٨٧٩ م)

البارحة ، بينا كنا جالسين نتناول القهوة للمرة للتاسعة أو العاشرة منذ وصولنا دخل الى القهوة شابان وجلسا . كانا في ملابس زاهية ، جُبَب حريرية وقمصان مطرزة تحت عباءتهما الصوفية السنجابية اللون . وكل منهما وضع على رأسه كوفية (غترة) حمراء من القطن ، وعقالاً أبيض ، وكان سيفاهما بمقبضين من الفضة . وقف كل واحد في (القهوة) عند دخولهما وظن كلانا انهما ابني الشيخ ، أو من شخصيات الجوف البارزة . وهمس (ولفرد) بسؤال عنهما الى حويسين ، الذي ضحك وقال : انهما لم يكونا من أبناء المشايخ ولكن « زلمات

ابن رشيد » - رجال ابن رشيد ، من جنوده ، في الواقع . كانت الكوفية (الغترة) الحمراء والسيف ذو المقبض الفضي ، نوعاً من الزي الرسمي . لقد جاءا ، كما اتضح الآن ، من عند دوّاس الحاكم بالنيابة في الجوف ، ليدعوانا الى القلعة ، ومع اننا كنا آسفين أن نترك بستان حويسين الهادىء وكرمه اللطيف ، فقد ظننا أن من الحكمة أن نستجيب .

في قصر الحاكم الرشيدي

وبدا انه لا حويسين ولا أي شخص آخر يفكر أنه من الممكن أن نستطيع أن نرفض ، لأن حكومة ابن رشيد مطلقة في الجوف ، ورغبات نائبه ينظر اليها كأوامر ، ولا يبدو أن هناك أي شعور سيء بين الحامية والمدينة .

ويظهر ان الجنود الذين رأينا على وفاق تام مع كل انسان وهم حقاً ذو أرواح مرحة بحيث أنه سوف يكون من الصعب أن تتخاصم معهم . ولكن الجوف محل مقهور ، وفي حالة حصار دائم ، والنظام المحافظ عليه صارم جداً . وعلى ذلك فقد انتقلنا بكل مخيمنا الى أرباض المقر الرسمي ، وها نحن مخيمون تحت أسواره .

ان القصر ، وهو - كما قلت - خارج المدينة قام ببنائه منذ حوالي اثني عشر عاماً ، متعب ابن رشيد ، أخو الأمير

طلال (صديق المستر بلجريف) ، ورغم أنه حديث جداً في تشييده ، فله مظهر العصور الوسطى الكامل ، لأن الهندسة المعمارية لا تتغير قط في بلاد العرب .

وهو مبنى بهيج بأبراجه الأربعـــة في الأركان ، تتخلله الثقوب ولكن بدون نوافذ . ويوجد باب واحد فقط، وذلك صغير في زاوية من زوايا السور ، ويبقى دائماً موصداً . وفي داخله يدور المدخل ويتعرج،وبعد ذلك يوجد فناء صغير تحيط به أسوار عالية،و (قهوة) ، بالاضافة الى بضع غرف صغيرة وكلها مظلمة وكئيبة كالجب .

هنا يعيش نائب الحاكم مع ستة جنود شبان من حائل ، الذين يحكمون ويقومون بأعمال الحامية وأعمال الشرطة في الجوف . والحاكم نفسه غائب الآن فقط في (سكاكا) ،المدينة الصغيرة الأخرى في نطاق منطقة الجوف ، وهي على بعد ٢٠ ميلاً من هنا وهو عبد زنجي ، كما أخبرنا ، ولكنه شخص على درجة كبيرة من الأهمية ، وصديق شخصي للأمير .

من تاريخ الجوف الحديث :

والجوف ، بقدر ما استطعنا أن نعلم من محمد ، لأننا لا نحب أن نسأل أسئلة كثيرة ، كانت في السابق اقطاعية لآل شعلان مشايخ (الروَلة)، ولا تزال تدفع اتاوة (لصطّام)، ولكن متعب بن رشيد فتحها منذ حوالي ٢٠ سنة ، وعوملت

منذ ذلـــك الحين كجزء من نجد . وقد حدث تمرد مرة أو مرتين ، غير أنه أخمد بعنف ، وتخاف الجوف الآن من أن تحرك أصبعاً ضد الأمير . وبمناسبة واحدة من هذه التمردات قطع متعب عدداً كبيراً من أشجار النخيل ، وترك المدينة في حالة نصف خراب ، وهكذا أجبروا على الاصطبار والانتفاع بها . وفي الحقيقة قل أن تستطيع الحكومة أن تكون شديدة الجور فهؤلاء الستة الجنود بأقوى ارادة في العالم لا يستطيعون أن يستبدوا كثيراً في مدينة ذات أربعة أو خمسة آلاف من السكان . انهم جميعاً شبان أشداء ، نشيطون ، لطاف الروح ، يخدمون هنا سنة دفعة واحدة ، ثم يعفون . انهم متطوعون ، ولا يحصلون على رواتب ، ولكن لهم ، كما افترض ، بعض ميزات حينما يكونون قد أدوا خدمتهم . ويبدو عليهم الاخلاص للأمير .

محاولة تركية للاستيلاء على الجوف

يخبروننا أن حاكم دمشق التركي ، منذ أربع سنوات ، أرسل حملة عسكرية ضد الجوف (نفس الحملة التي سمعنا عنها في كاف) ، ولكن ابن رشيد شكا من هذا إلى السلطان ، وهدد بطردهم وبعدم استمراره بدفع الاتاوة لشريف المدينة إذا لم تسحب القوات ، وهكذا كان عليهم أن يذهبوا من حيث أتوا .

ابن رشيد كان يدفع اتاوة للترك

وهذه الأتاوة يدفعها الأمير بسبب أملاكه النائية مثل (كاف) ،و(تيما) و(الجوف) التي حاول الترك في مناسبات متعددة أن يتحرشوا بها . وهو ، على أية حال ، مستقل تماماً عن السلطان ، ولا يعترف بالسيادة لأي مكان .

ان عظمة ابن سعود والوهابيين الآن شيء يتعلق بالماضي ، ومحمد بن رشيد أقوى حاكم في جزيرة العرب .

استقرار الامن في نجد

اننا نسمع تقريراً ساحراً عن نجد ، على الأقل عن الجزء الشمالي منه ، يمكنك أن تسافر في أي مكان ، كما يقولون ، من الجوف إلى القصيم بدون حراسة . ان الطرق آمنة في كل مكان . إن قطع الطريق لم يعرف في مسالك بلاد الأمير سنين كثيرة ، والناس الذين يوجدون يتلكأون قرب الطرق تقطع رءوسهم . ولا يسمح ابن رشيد بغزو يشن على المسافرين ، وعندما يقوم بحرب فهي ضد أعدائه . وابن هذال وابن معجل صديقان له،ولكنه ليس على وفاق مع صطام وشيوخ السَّبَعة.

ويوجد في القلعة مدفعان زنة ١٢ رطلاً ، انجليزيا الصنع .

وهما قطعتان قديمتان لا قيمة لهما ، ولكنهما استعملا كما يبدو ؛ في حصار الجوف بواسطة متعب .

سكان بلاد الجوف

ان الجوفيّين من عنصر مختلف عن شمر نجد، فهم خليط في أصلهم تقريباً مثل التدمريين أو القرويين في الفرات .

يحدثنا حويسين الكلب، مضيفنا الأول، انه ينتمي (لطى)، وان آخرين من جيرانه من السرحان أو(بنى لام) وهو ليس في الحقيقة ابن عم لمحمد ولكن ابن عم لابن عم ، فأبناء العم الحقيقيون يعيشون في (سكاكا) .

الحاكم وجنده

ومع أننا كنا مرتاحين جداً معه، فلسنا هنا أقل ارتياحاً، وانه لأمر أكثر امتاعاً أن نكون في القصر . ودواس ، نائب الحاكم ، امرؤ ينتزع الحب ، وجميع جنوده لطفاء وفضلاء للغاية . انهم مجموعة من الناس تثير البهجة ، وانهم ليتكلمون معنا بصراحة ، في السياسة وفي كل شيء . انهم يؤكدون لنا أن ابن رشيد سوف يسر لرؤيتنا ، ولكن ينبغي علينا أن نرى (جوهر)، الحاكم الأسود، أولاً . هناك عدد من الأرقاء

الحقيقيين في الحصن ، غير أنه لا نساء . ان الجنود يتركون زوجاتهم خلفهم في حائل حينما يذهبون في الخدمة العسكرية .

الحيوانات في البلدة

لا توجد خيل في الجوف ، باستثناء فلو عمره سنتان يملكه (الطويجي ؟) أحد الجنود ، الذي يبدي إعجابــاً شديداً بشقرائنا (مهرة الكاتبة الشقراء) بقوله : انه ليس هناك في نجد شيء في جمالها . كما لا يوجد أي نوع من حيوانات الحمل ، حتى الحمير . والجمال القليلة الموجودة في المدينة يحتفظ بها لمتح المياه من الآبار ، وكل ما رأيته من المخلوقات ذات الأربعة أطراف هي فقط عدد قليل من الماعز ، وثلاث بقرات في القصر يعانين المسغبة .

ولا توجد ذرة من الخضرة في نطاق أميال من الجوف ، وعلى الجمال وهذه البقرات أن تأكل قشاً مقطعاً ولا تقبل أن تأكل التمر .

مائدة غير شهية • بعدها سهرة

تألف غداؤنا اليوم من حمل وثلاثة أطباق أخرى ــ احدها

نوع من المعجون يشبـــه العجينة المستعملة في لصق الورق ، وآخر مجرد زبدة زنخة مع بصل مفروم (مُهَذّى)، والثالث خبز مفتوت في الماء – وكلها قذرة ما عدا الحمل . وعلى اية حال ، فقد كان هناك دور اضافي احضر لنا كمفاجأة ، لحم (فليتو) بقر وحشي من النفود ، مشوي في الرماد ، وكان من احسن اللحوم التي ذقتها .

وفي المساء رتب لتسليتنا رقص وغناء ، واشترك فيـــه دواس والجنود . لعبوا نوعاً من رقصة السيف ، وكان احد اللاعبين يدق على طبل صنع من خشب النخل وجلد الحصان بينما رفع الباقون سيوفهم على اكتافهم وغنوا لحنـــاً مهيباً ، ورقصوا بمهابة وجلال . ومن وقت لآخر كانت السيوف ترفع ويلوح بها ، ثم تنطلق صرخة تشبه الى حد كبير ما قد يسمع في حلبات الصيـــد في بلادنا . ومرة او مرتين كان هناك « هو – هوب » مميزة، ومضبوطة في المفتاح الموسيقي الملائم، وبالتفخيم المناسب . كانت اكثر الألحان أخاذة ، على طريقة الموسيقى العربية . وجرى احدها على النحو التالي :

(صورة النوتة الموسيقية على صفحة ١٢٢ من المجلد الأول من الكتاب) .

انتهى الرقص ، وفي طاسة ضخمة مزج الدبس وعصير الاترج ، وشربت كميات هائلة من هذا السائل المهدىء . نحن الآن هادئان خارج القلعة ، التي توصد طيلة الليل، وفي حريتنا

لنكتب او نضع رسوماً تخطيطية على ضوء القمر ، أشياء لا نجرؤ على فعلها أوقات النهار .

دعوة لزيارة (سكاكا) :

٧ يناير : (١٨٧٩) .

حمدان ، دليلنا الشراري الذي كان قد اختفى ، عاد هذا الصباح خفية من أجل الحساب المستحق له. يقول: انه خائف من القوم الذين في القلعة ، ولا يستطيع البقاء معنا .

جاء رسول من (سكاكا) بدعوة من جوهر لنا ، ولهذا فنحن ذاهبون هناك غدا . وسوف لا نقيم مع جوهر ، على أية حال ، حيث انه ليس له منزل خاص به ، بل سنقيم مع اقربائنا ، آل عروج ، الذين اكتشفناهم اخيرا . وقد ارسل ناصر بن عروج رأس الاسرة عند سماعه بوصولنا ، ابنه برسالة تتضمن كل صنوف الأدب ، وإلى بيتـه سنذهب . والشاب متواضع ، وحسن التهذيب بدون تظاهر بالأمانة والاستقامة ، لو كان بامكان أي واحد ان يقرأ شيئا ما في الوجوه ، ومن الواضح انه شديد التأثر بالشرف الذي ناله بزيارتنا المعتزمة .

لقد كنا نقوم بزيارات طيلة الصباح ، الأولى لمضيفنـا

السابق حويسين الكلب ، والاقرباء الآخرين ، ثم لواحد أو اثنين من وجهاء المدينة ويقول حويسين انه يوجد (بيت حبوب) التي ذكرها المستر بلجريف .

شيخ الجوف السابق

ولكن انبل الأسر هي اسرة (محسن بن دره) ، شيخ الجوف السابق ، ولكنه الآن انزل إلى حالة واحد من رعايا الأمير. و(ابن دره) (يخبرنا محمد) ليس راضيا عن التغيرات السياسية في الجوف بأية حال ، ولكنه يخاف ان يظهر اكثر من عدم رضا، نصف كظيم ، لأن محمد بن رشيد يحتفظ برهينة على حسن سلوكه في شخص ابنه الاكبر . ويقيم هذا الشاب في حائل ، وهو هناك ليس سجينا بالمعنى الحرفي ، لكنه لا يستطيع ان يعود إلى اصدقائه . اطعمنا ، واكرمنا في كل المنازل .

القهوة والتمر ..

وكان علينا أن نشرب اكوابا لا نهاية لها من القهوة المتبلة بالهيل وان نأكل ما لا يحصى من التمر ، حلوة الجوف ، التي يقولون عنها : انها اجود ما في جزيرة العرب. انها ذات نكهة

ممتازة ، ولكنها شديدة الحلاوة وشديدة اللزوجة للاستعمال العام . ان اهل الجوف يكادون يعيشون كلية على التمر ، ليس على (الحلوة) ، على أية حال ، وهي ليست بأية حال نوعا شائعا . توجد هنا اصناف من التمر هي من الكثرة بقدر التفاح في حدائق بلادنا ، وكل صنف مختلف عن الآخر تماما . والنوع المفضل لدينا للأكل الاعتيادي مجعد خفيف اللون ، واكثر استدارة من (الحلوة) ، في حين ان هذه لا شكل لها ، وبلون الفرس الشقراء .

انه لخطأ كبير ان تفترض ان التمر احسن ما يكون لأنه حديث الجنى ، على العكس انه ينضج مع الحفظ . واحلى الانواع تحتوي على سكر كثير ، لدرجة انها حين توضع في طبق مكشوف تنحل (نصفيا) إلى شراب يتكون فيه السكر قطعا كبيرة . ولا أشك في أن السكر العادي يمكن ان يصنع منها .

طريقة صنع القهوة :

ان طريقة صنع القهوة هنا هي الى حد كبير نفس الطريقة المعروفة بين بدو الشمال ، باستثناء انها أكثر املالا . فهناك ، أولاً ، عملية لا متناهية لتنقية وفرز حبات البن ، وهي أصغر حجماًوأخف لوناً مما يلقى المرء في أوروبا،ثم ، بعد التحميص،

عملية سحن طويلة في الهاون (النجر) ، ولو أن البن لا يسحن ناعماً قط ، ثم غسيل مفرط لآنية القهوة ، خمسة أو ستة منها ، وأخيراً الغلي الفعلي ، وهو يجري ثلاث مرات . ان (اهوان) الجوف أنيقة جداً، ومصنوعة من الصخر الرملي الأحمر ، الذي هو الصخر الشائع في البلاد ، وهي ، كما اعتقد، سلعة للتصدير . واني لأحب أن آخذ واحدا منها معي ، ولكنها ثقيلة جداً،كل واحد منها ربع حمل البعير . وتصميمها بسيط ولكنه أنيق، ولن تكون مفاجأة لي لو انها قديمةجداً.

صناعات الجوف :

أما صناعات الجوف الأخرى التي سمعت عنها فهي فقط احزمة وعباءات صوفية.والاولى بهية المنظر ومطرزة بالفضة، وجميع الخدم ، اشتروا منها ، أما الأخيرة فهي مصنوعة من الصوف الذي يجلب من بغداد . واشترى عواد واحدة بستة مجيديات ونصف .

قلعة (مارد) :

بعد ذلك ألقينا نظرة على قلعة (مارد) ، البنايةالوحيدة من الحجر في الجوف . ويرجع تاريخ تشييدها ، كما يمكن أن

إقول ، إلى العصور الوسطى[1] وإنها بالتأكيد ليست كلاسيكية وليس لها ملامح خاصة تجعلها مثيرة للاهتمام . وتبدو أجمل على بعد . أجد الخرائط تضعها على طـــول الطريق من الجوف ، ولكنها في الحقيقة داخل أسوار المدينة ، على الطرف الغربي . وتقف على ارتفاع ٢٠٠٠ قدم فوق سطح البحر .

دعوة الى الصلاة بالقوة :

بينما كنا نجلس في منزل ابن (درة) رأينا مثلاً لحكومة ابن رشيد الأبوية (البيتراركية) وأولى علامـات الوهابية . نودي لصلاة الظهر من سطح المسجد القريب ، إذ ليس هناك منارة في الجوف ، إلا أنه لم يبدُ على أي فرد لبرهة من الزمن ، أي ميل لأن يتحرك ، متخذين من زيارتنا عذراً . ثم ابتدأ رجل مسن ذو وجه فظ يحاضر الأصغرين ويخبرهم أن ينهضوا ويذهبوا للصلاة ، وعندما لم يجد لأمره أي جدوى معهم ، ضرب لهم المثل في النهاية . ومع ذلك ظلت المجموعة الرئيسية للضيوف قاعدة ، الى أن نهض فجأة الجنديان الشابان اللذان جاءا معنا ، وهما يصيحان : « قم ، قم » واضعين صفحات سيفيهما على البقية وساقاهم جميعاً الى المسجد ، جميعاً ما عدا مضيفنا الذي جعله مركزه بهذه الصفة مرعوبا من الاهانة .

---

(١) مارد : حصن قديم في الجوف ، غزته الزبّاء ملكة تدمر ، فامتنع عليها ، وفيه وفي الأبلق حصن تيماء جاء المثل : تمرّد مارد ، وعز الأبلق .

ومن الواضح جداً ان الدين ليس مقدراً هنا ، وباستثناء الرجل ذي المنظر المسن والوجه الفظ لم يبد أن أحداً ينظر الى الصلاة نظرة جدية ، لأن الجنديين بعـــد أن أديا واجبهما في سوق الآخرين الى المسجد عادا من المسجد بدون صلاة . ان المظهر الخارجي للدين لا يبدو طبيعياً بين العرب .

رقصة السيف مرة أخرى هذه الليلة ، ووليمة أخرى من الليموناده .

هدية : اترجة كبيرة !: —

٨ يناير : (١٨٧٩ م)

صباح غائم ، ضبابي تقريباً ومطر .ودعنا دواس وجنوده. وبدا عليهم الأسف حقاً لفراقنا . انهم أناس ذوو مزاج حسن وأمناء بشكل غير عادي ، ولقد عاملونا بلطف بالغ . كانت آخر التفانة من دواس نحوي هدية من الاترج هـــائلة في كبر جوزة الهند الضخمة . ان الاترج ليمون حامض وليس حلواً ، ولكن له قشرة سمكها بوصة ، وذات حلاوة تكفي لأن تؤكل ولو انها كثيرة الزغب (الصوف) .

بين (سكاكا) و (الجوف) :

تقع سكاكا ، حيث أتينا اليوم ، على بعد حوالي ٢٠ ميلاً من الجوف ، ويوجد خط بين المكانين مطروق كثيراً . كنا

جماعة كبيرة العدد نسبياً ، من حيث ان عـــدداً من الجوفيين جاءوا معنا للمرافقة ، ومعنا ابن عروج ، ابن ناصر ، وعروج آخر ، ابن عم له،ورجل ذو بندقية الذي هو في طريق ذهابه معنا الى حائل . كل الجماعة ما عدانا كانت تسير على الأقدام ، لأن الجوفيين لا يركبون أبداً ، فليس لديهم خيل ولا جمال حتى ولا حمير . وكان مع أحد الرجال صدفة بيضة نعام مدلاة في شبكة من نوع ما ، وتستعمل كقلة لحفظ الماء . أخبرني ان النعام مألوف في النفود ، الذي هو الآن قريب من هنا . كان المنظر على طول الطريق رائعاً ، وأحيانا يستحق التصوير . عبرنا أولا حوض الجوف الى الناحية الاخرى ، مارين بعدد من الحقول الخراب ، السطح جديب تماماً ،وأدناه مغطى بالملح. ان هذا الانخفاض بكامله ليس الا ميلاً عرضاً .ثم فجأة ارتفعت طريقنا مائة قدم فوق ضلع من الرمل واقف الانحدار، ثم مرة أخرى مائة وستين قدماً فوق سلسلة صخرية ، منحدرين مرة أخرى لنعبر سبخة ذات حاشية من الاثل في حالة إزهار الآن ثم بقع من حصباء ناعمة من صخر الحديد لا يستطاع تمييزها عن فضلات الاغنام .

وعلى بعد ساعتين من الجوف تجويف مائي يسميه الجوفيون نبعاً ، والماء على انخفاض حوالي ٨ أقدام تحت سطح الأرض . وفي الوديان حيث قد جرى الماء (لأن المطر نزل هنا منذ شهر تقريباً) ، وجدت نباتات بصلية زاهية ذات زهور زعفرانية تخلع على المكان مظهراً زائفاً للخصوبة .

وفي أماكن أخرى أحجار عجيبة من الصخر الرملي الوردي مكللة بالحديد .

وعلى بعد ، ناحية الشمال عدد من الكتل الرفيعة لتل ، جبل الحمامية ، (أو جبال الحمام) ، وهي أكثر شيء جدارة بالملاحظة . وهذه يمكن أن تكون أعلى من الجوف بألف قدم. وبعيداً وراء ذلك ، الى الشمال الشرقي وإلى الشرق جرى خط الأفق مستوياً على ارتفاع مساو ، طرف الحماد ، لان كل الجهة التي كنا نقطعها هي في نطاق بحر قديم ، من المحتم انه شمل ، كما نفترض ، وادي السرحان ، والجوف ، وسكاكا .

وعلى احدى الصخور لاحظت نقشاً ، أو بالأحرى صور جمال وخيول ، محفورة على وجه مسطح عرضه حوالى خمسة أقدام . ولم نستطع ، على أية حال، في مثل ظروفنا أن ننقله.

وصف بلدة (سكاكا) ..

ان سكاكا ، مع انها ليست مقر حكومة جوهر ، مدينة أكبر من الجوف – سبعمائة بيت ، كما يقولون ، وبساتين للنخيل على الأقل ضعف ما في الاخرى. ومركز المدينتين يكاد يكون واحدا ، تجويف عريض محاط بجروف من الصخور الرملية ، ولكن حوض سكاكا اقل انتظاما وتنتصب فيه تلال رملية وتلال نائية من الصخور .

وسكاكا كالجوف ذات قلعة قديمة تجثم على مرتقع يبلغ علوه

حوالي مائة قدم ، وتسيطر على المدينة ، والمدينة نفسها مبنية بطريقة غير منتظمة ، وليس لها سور متصل حول بساتينها .

وتوجد بساتين كثيرة ومجموعة منازل منفصلة ، وهذه لم تخرب مثل تلك التي في الجوف من جراء الحروب الاخيرة. وفي جملتها ، لها منظر بالغ النضارة ، ولم يترك فدان واحد قابل للري بدون استنبات . كل شيء مرتب ونظيف ، والاسوار جديدة الشرفات ، وكل منزل منسق ، كما لو كان بني حديثا . والقطع المربعة الصغيرة المزروعة شعيرا يحيط بكل منها سياج من اغصان. النخيل المجدولة ، والشوارع والازقة انيقة بشكل دقيق .

في ضيافة (ال عروج) :

من خلال هذه عبرنا راكبين بدون توقف وجاوزناها بميلين ، الى مزرعة (نصر) .

نحن الآن في قلب عائلة ابن عروج ، وفضلا عن ذلك لا خرافة بل حقيقة فهي مضيافة ، تتلقانا بسواعد مفتوحة ، كما لو كانوا يتوقعوننا كل يوم طيلة المائة سنة الاخيرة . انهم يعرفون اقصوصة ابن عروج الشعرية ونسب محمد احسن بكثير مما يعرف هو نفسه . وهكذا يمكننا الآن على الأقل ان نأمل ان نكون في النعيم ، وإذا لم نذهب إلى ابعد من هنا ، بعد كل شيء ، فربما نحس اننا لم نسافر قط عبثا .

ثلاثة ايام للراحة

مكثنا ثلاثة أيام مع ناصر وبنيه وزوجات بنيه وأطفالهن في بيتهم الريفي الهادىء .

كانت راحة كنا في أشد الحاجة اليها،وبرهنت –الى جانب ذلك– على أنها تجربة مثيرة للاهتمام،وفرصة ممتازة لنعرف عن الحياة العربية المنزلية أكثر مما عرفنا في رحلاتنا السابقة .

حديث عن (آل عروج) أسرة الدليل

وليس آل عروج اصحاب (سكاكا) في أنفسهم ذوي أهمية خاصة ، فكأقربائهم في تَدْمُر ، قـد أصبحوا مستقرين منذ مدة طويلة كمجرد سكان مدينة ، يتزوجون من بنات البلاد ، ويقتبسون من الميول الحقيرة للمدينـــة ، ولكنهم كانوا أمناء وذوي قلوب ذات عَطْفٍ ، وتقاليد أصيلة خاصة بهم ، وما زالوا محافظين دينياً ، ويلقون أحياناً ومضة من شيء مـــا كالخيال (رومانس) على ما عـــدا ذلك من شؤونهم المتعلقة بحقائق الحياة .

عميد الاسرة

وناصر، أفضل الجيل الارشد ، يشبه سيداً (اسكوتلندياً)

صغيراً ، فقيراً وشحيحاً ، ولكنه مدرك لحقيقة كونه ذا دم في شرايينه أكرم من دم جيرانه – الانسان الذي يفكر، كل يوم من أيام السنة إلا يوماً واحداً ، كيف يدخر ستة بنسات، ولكنه يظهر نفسه كل يوم انه رجـــل ماجد (جنتلمان) ، ورئيس بيت .

كان ابناؤه هادئين، ومتواضعين، وغير مدّعين ، ومثل كل شباب العرب، ميالين الى (الرومانتيكية) أكثر من أبيهم. بل ان لهم تقديراً من نوع ما للافكار الفروسية خاصة (تركي) الأكبر ، وفيه يتغلب الدم البدوي والتقاليد البدوية تقريباً الى الحد الذي لا تترك مكاناً للغرائز التجارية، بينما هذه الأخيرة في أخيه (عربي) هي فوق ما ينبغي لموازنة الأولى . أحببنا كلا الأخوين مفضلين بالطبع (تركي) ، ومعه أقام (ولفرد) صداقة كبيرة .

شيء من تاريخها

ان قرابة محمد لهؤلاء القوم أقل بعداً مما كنت قد افترضت ان سلفه ، علي بن عروج ، كان أحد الأخوة الثلاثة ، الذي ترك العارض في نجد ، في اعقاب ثأر ، أو ، كما يظن (ولفرد) انه الاكثر احتمالاً ، هرباً من الطغيان [1] الذي ساد نجداً منذ

(١) الكاتبة متأثرة بما تسمع عن الحركة الاصلاحية التي قام بها الشيخ محمد ابن عبد الوهاب – رحمه الله – قامت الدولة السعودية الكريمة بنشرها قياماً قضى على نفوذ الدولة التركية في قلب جزيرة العرب ، ولم يبق لها الا أن تبث الدعايات المضللة عن تلك الدعوة . خشية من امتداد انتشارها ، ومن هنا كانت الكاتبة متأثرة بما سمعت من تلك الدعايات .

مائة سنة ، وجـــاء الى الشمال حتى وصل الى تدمر ، حيث تزوج (علي) وأقـــام ، وأخ آخر ، عبد القادر بن عروج ، توقف في الجوف واستقر هناك ، وصار جداً لناصر . أمـــا بالنسبـــة للثالث ، مطلق ، فان نسل الاثنين السابقين ، لا يعرفون شيئاً عن مصيره ، سوى انه لم يحب لا تدمر ولا الجوف ، فعاد في اتجـاه نجد . وصل اليهم تقرير غامض عن موته ، الا ان أحداً لا يستطيع ان يجزم متى أو كيف مات. وجاء ناصر من الجوف الى سكاكا منذ سنوات ليست كثيرة .

ونصر الآن رئيس الأسرة ، على الأقل ذلك الفرع الذي يسكن الآن واحة (سكاكا) . ولكن يعيش هناك في منزل ملاصق لمنزله، ابن عمه المباشر جازي بن عروج، أخ لصديقتنا (مرزوقة) ، وأب لابنتين جميلتين . وهؤلاء ، مع قليـــل من الأقرباء الآخرين ، يكونون أسرة صغيرة بهيجة ، يعيشـــون جميعاً في مزرعة نائية .

نساء الاسرة

أول فكرة في مجيئنا اليهم ، بالطبع ، كانت من أجـــل زوجة لمحمد، وبناء علىطلبه اغتنمت فرصة مبكرة للتعرفعلى نساء العائلة . وجدتهن جميعاً ودودات ومحبوبات ، وبعضهن ذكيات . ومعظم الصغيرات كن جميلات المنظر . وأهم شخص في (الحريم) كان زوجة ناصر ، سيدة صغيرة عجوز تدعى

شمعة ، نحيفة وذابلة ، ومتجعدة ذات ضفائر طويلة رمادية ، وعينين ضعيفتين تنبئان عن شيخوخة طاعنة . ولو انها لم تكد تتجاوز الستين ، فقد بدت منهكة تماماً . كانت أم (تركي) و (عريبي) ، وسمعت من محمد ان (نصر) لم يتخذ زوجة أخرى غيرها . وكان في هذا مخطئاً ، لأنه في نفس زيارتي الأولى،استدعت زوجة أصغر سناً من الحجرة الملاصقة وقدمتها الي في الحال . ودخلت الزوجة الثانية مع غلامين في الثالثة والثانية من العمر ، وأكبرهما (لان لهما اسمين غير معتادين) يسمى مطرق (عصا) ، بالرغم من انه يبدو طفلاً محبوباً وحسن المزاج . وهو في هذا يشبه أمه ، التي أثر فيّ بشكل حسن سلوكها المهذب نحو زميلتها الأكبر منها سناً شمعة . وفوق ذلك ، كان لها وجه جميل حقاً .

أما الغلام الصغير ، (مطرق) ، فقد أدركت انه الغلام الذي لما رأيته في الصباح مع ناصر،الشيخ في بستاننا، افترضت انه حفيده .

هدية لاحد الاطفال

كان ناصر يحاول جهده لتدليل الطفل ، طبقاً لأسلوب الرجال الشيوخ (المسنين) بين العرب . وحينذاك اعطيت (مطرق) ثوباً أحمر (فراء)، وهو الذي كنت اشتريته من أجل ولد (صطام) ، منصور ، حينما ظننا اننا كنا ذاهبين الى

(الرولة) ، وفي هذا كان الطفل الآن يتبختر ، مبدياً حليته لفتاتين صغيرتين جميلتين جداً ، هما اختاه . وجرت هاتان داخلتين خارجتين أثناء زيارتي ، تساعدان في احضار أطباق التمر ، ولتأكلا تمراً كلما أتتا ببعض منه .

نساء الاسرة يحتفين بالطاتبة

وظهرت بعد ذلك زوجتا تركي ، واحدة منهما جميلة ، والأخرى بسيطة ، وزوجة عربيي الوحيدة ، جميلة ومتزوجة حديثاً. وبدت هؤلاء مع بعضهن على خير وفاق مما عليه الحال عادة بين الزوجات المختلطات وزوجات الأبناء. كن حريصات على سروري ، وبالطبع ، فعلت كل ما أستطيع من أجل ارضاء رغباتهن المضيافة فيما يتعلق بالأكل . قدمن لي تمراً من أنواع لا تحصى – تمراً جافاً ورطباً ، وحلواً وأقل حلاوة ، عتيق التجفيف ، وجديداً ، وكتلاً . كان مستحيلاً بالنسبة لشخص واحد ان يعدل بين كل هذه الانواع .

عاملت (شمعة) كل الناس بطريقة شخص يتمتع بسلطة ، ولو ان أسلوبها معهم كان لطيفاً . وهي ، على اية حال ، قليلة الكلام، بينما كانت الأخريات يتكلمن بدون انقطاع ، ويسألن كل انواع الأسئلة ، التي تتطلب معرفة بالعربية أكبر مما لدي حتى أجيب . وفي وسط الزيارة وصلت (نازك) ابنة ناصر المتزوجة ، أخت لتركي وعربيي ، مع ابنتها وجفنة كبيرة

من التمر . لقد مشت طول الطريق من مدينة سكاكا ، حوالي ثلاثة أميال، تحمل هذه الطفلة، وهي مخلوق سمين في الرابعة، والتمر ، ودخلت ، لاهثة ضاحكة ، لتراني. انها تثير السرور وذات حيوية ، كثيرة الشبه باخيها تركي في الوجه ، أي انها طيبة الخلق أكثر من كونها جميلة المنظر. أية واحدة من هؤلاء السيدات الشابات كانت تفي بشروع محمد للزواج ، ولكن ، لسوء الحظ ، كن جميعاً إمـا متزوجات او صغيرات جداً . وسألت فيما اذا كان هناك بعض السيدات الشابات في «الخارج» فأخبرت انه لا يوجد أحد من بيت ناصر ، ولكن ابن عمـه (جازي) له ابنتان كاملتا النمو ، لم تتزوجا بعد ، فحافظت على هدوئي حتى تسنح لي فرصة لرؤيتهما .

البحث عن زوجة للدليل

وفي نفس الوقت ، كان محمد قد بدأ بالفعل يجمع معلومات على حسابه الخاص ، ولم ينته اليوم الأول من زيارتنا قبل أن يأتي إلي بتقرير عجيب عن نفس ابنتي (جازى) هاتين . كان هناك ثلاث بنات ، كما قال ، وجميعهن جميلات ، كل واحدة أجمل من الأخريات ، عسر ، وحامو (؟) ، ومطرة والاولى والثانية لسوء الحظ قد خطبتا بالفعل ، ولكن مطرة ما زال في الامكان الحصول عليها . واستطعت أن أرى انه كان قد وقع في الحب المدنف فعلاً ، فعند العرب القليل يقطع شوطاً

طويلاً ، ومن حيث انه لا يسمح لهم إطلاقاً برؤية السيدات ، فانهم يقعون في الحب من خلال الحديث عنهن: كان يلح كثيراً انه يجب على ألا أضيع الوقت وان اذهب لزيارة أمهن ، وبدا أنه يفكر أنني كنت اضيع وقتي سدى وبحزن في زيارة ابنة العم المتزوجة . وقد صرح محمد أنه يجب أن يستأنس برأيي ، وسأعرف ، كما تظاهر ، في الحال ، ليس فقط ما إذا كانت (مطرة) جميلة ، بل أيضاً ما إذا كانت حسنة الطبع ، وحرية بأن تصبح زوجة صالحة .

حول المهر :

قال انه كان يجمع ويطرح ، وظن ان أربعين جنيهاً سوف تطلب بصفة مهر . وإنه لمبلغ كبير بالتأكيد ، ولكنها حقاً صيلة، والمناسبة فريدة، ابنة جازى !– ابنة أخ مرزوقة !– فتاة من عـــائلة ممتازة كهذه ! – ابنة من آل عروج ! وآل عروج لا يمكن الحصول عليهم كل يوم ! – أربعون جنيهاً قد لا تكون كثيراً جداً .

الكاتبة تصبح خاطبة

كان لدي فراسة كبيرة، وقد رأيت زوجات وبنات جميع شيوخ (عَنَزة)، يجب أن أعرف ما هو هذا وما هو ذاك ،

ويجب ألا اخطىء . ومع ذلك فهو يريد أن يذهب عبد الله معي ، فقط ليتجسس على الأشياء. ويمكن لعبد الله ، كقريب، أن يسمح له بالدخول ، في مناسبة كهذه ، ولو أنه هو ، أي محمد ، لا يستطيع ذلك بالطبع ، ويمكن ، ربما ، حتى أن يسمح له برؤية الفتاة ، كما لو كان، بالصدفة . أما بالنسبة لنا ، آل عروج، فإن الزوجات والبنات دائماً محجبات ، عادة أتينا بها معنا من نجد ، لأننا لسنا كالبدو ، ومع ذلك وفي مناسبة هامة كهذه ، مناسبة تدبير زواج ، قد يسمح أحياناً لرجل من سن معين ، تابع ، أو قريب فقير ، أن يرى وينقل ما رأى . ووعدت أن أفعل ما أستطيع لانجز الأمر .

وعلى ذلك أرسل لتركي في اليوم التالي ، وأشعر بالأمر موضوع البحث باختصار ، وأرسل في الحال ليعلن عن زيارتي لأم بنات (جازي) — محمد يوضح أن من الذوق (ايتيكيت) أن الأم يجب أن تعرف بموضوع زيارتي، ولو أنه ليس ضرورياً بالنسبة للبنات . ثم ذهبنا إلى منزل (جازي) ، تركي وعبد الله ، وأنا .

في سبيل اختيار الزوجة :

يقع منزل (جازي) بالقرب من منزل ناصر ، يفصلها فقط سور البستان ، وهو أيضاً أصغر من هذا الأخير ، فكرت انه مكان فقير لنأتي اليه بحثاً عن أميرة ، ولكن في بلاد العرب

يجب على المرء ألا يحكم أبداً بالظواهر . وفي الباب ، بين عدد من النساء ، وقف سعد ، أكبر أبناء (جازي) ، الذي قادنا خلال فناء إلى حجرة داخلية ، مظلمة تماماً ، باستثناء ما قد يأتي من نور من خلال فتحة الباب. من المحتم أنه في بلاد العرب حيث اخترع التعبير : « يطأ عتبة دار فلان » لأن النوافذ لا وجود لها في البيوت الصغيرى . كان هناك رائحة مـاعز في أنحاء المكان ، وبدا كإصطبل أكثر منه ردهة استقبال . وفي البداية لم أستطع أن أرى شيئاً إلا أنني استطعت أن أسمع (سعداً) ، الذي غاص في الظلام ، يهز شيئاً ما في الزاوية ، وعندما تعودت عيني على الشفق ، اتضح هذا انه سيدة شابة ، واحدة من الثلاث اللاتي جئت لأزورهن . كانت (عسرا) ، الفتاة الثانية ، العظيمة ، الجميلة المنظر ، تشبه كثيراً ابن عمها عريبي ، بأنفه القصير المعقوف وعينيه السوداوين . خرجت إلى النور بمظهر كبير للخجل والاضطراب مخفية وجهها في كفيها ، معرضة عن الجميع حتى عني ، ولم تكن حتى لتستجيب لأي شيء من محاولاتي للتحدث. ثم فجأة ، انفلتت منا ، واندفعت عبر الفناء إلى خلوة اخرى صغيرة ، حيث وجدناها مع أمها وأختها (مطرة) . وبصعوبة ، عرفت أن أجد تعليلاً لكل هذا ، فإلى جانب الخجل ، ظننت انني استطعت أن أرى ان (عسرا) قصدت حقاً أن تكون فظة ، وأكد فكرتي هذه الطباع المهذبة لكل من أمهـا (حالية) وأختها الصغيرة (مطرة) .

احاديث مع الفتاة المفضلة :

ولقد أحببت (مطرة) في الحال · ان لها نظرة ، خاصة ، أمينة ، صريحة ، تحدق في المرء رأساً بعينيهـــا السوداوين كالغزال ، ولها أيضاً لون شديد الصفاء والنضارة ، وصوت يثير البهجة والسرور. ولذلك ، فلم الق كبير اهتمام إلى فظاظة (عسرا) وسألت الفتاة الصغيرة أن تسير معي في أنحـــاء البستان ، ففعلت ، وفرّجتني على الأشياء القليلة التي يمكن أن تشاهد هناك ، موضحة لي كل ما يتصل بالبئر ، وطريقة متح الماء . وما احتوى البستان ، بالاضافة إلى أشجار النخيل، على تين ، وبرقوق ، وكروم ، كما كان هناك رقعة من الشعير الأخضر ، وعليه كان يرعى بعض الجديان .

أخبرتني (مطرة) انهم في الصيف يعيشون على الفواكه ، ولكنهم لا يحتفظون مطلقاً بالبرقوق أو التين ، التمر فقط هو الذي يحتفظون بـــه . ولاحظت عدداً من أشجار النخيل الصغيرة ، وهي دائماً علامة على الرخاء . كانت البئر حوالي عشرة أقدام مربعة في أعلاها ، مغطاة بعناية بصخرة ، والماء على عمق بضعة أقدام فقط من السطح . وأخبرتني أن المـــاء يمكن أن يوجد في أي مكان في (سكاكا) بالحفر ودائماً على نفس العمق . سررت جداً بالذكاء الذي أظهرته مطرة في هذه المحاورة، كما سررت بأساليبها الحلوة ومحياها المخلص ، وقررت

في عقلي بدون صعوبة أن (محمد) سيكون أكبر محظوظ ، إذا هو حصل عليها بالزواج . وكان ما يبعث على الرجاء ، أيضاً ، من اجل سعادتهما في المستقبل ، ان تلاحظ ان (حالية)، الأم بدت امرأة حساسة ، إنما لم أستطع أن أفهم السلوك الغريب للفتاة الاكبر سناً ، (عسرا) .

وفي نفس الوقت كان عبد الله ، الواقف على الباب ، قد كون ملاحظاته ، وخلص إلى حد كبير إلى نفس النتيجة التي خلصت اليها . وهكذا عدنا بتقرير ممتاز لننقله إلى طالب الزواج النافذ الصبر ، المنتظر في الخارج .

استبدال « ليا » بـ « راشيل » :

كانت رغبة محمد الجارفة الآن تكاد أن تفسد المفاوضات ، لأنه بدأ في الحال يتحدث عن نيته في الزواج . وكنتيجة لذلك حدث له نفس الشيء ، الذي حدث منذ زمن طويل ليعقوب بن اسحاق . وتقليداً لسلوك (لايان) واعتماداً على لهفة ابن عمه على الزواج ، كان أول ما عمله (جازي) أن زاد المهر من أربعين إلى ستين جنيهاً ، ثم حاول أن يستبدل (ليـّا) بـ (راشيل) [1]، عسرا السيئة الطبع بطرة الجميلة.

---

(١) إشارة إلى ما جاء في التوراة : (سفر الشعوب) : وكانت ليا حالية النظرة ، ولكن راحيل كانت جميلة .

مجلس عام لبحث الموضوع :

كانت هذه ضربة شديدة لآمال محمد ، ودعى إلى مجلس عام من جميع العائلة لبحث الأمر وإتخاذ قرار بصدده . اجتمع المجلس في خيمتنا برئاسة (ولفرد) ، وفي جانب جلس محمد، مع ناصر كرئيس للعائلة ، وعلى الجانب الآخر جلس (جازي) وسعد ، ممثلين للعروس ، بينما ركع بينهما على ركبتيه بتواضع رجل صغير متجعد الوجـــه ، ولم يكن عضواً في العائلة ، ولكنه ، كما فهمنا بعد ذلك ، كان وسيطاً محترفاً. وفي الخارج اجتمع الأصدقاء والأقرباء الأبعدون، عبد الله وابراهيم قصبر ، وأكثر من ستة من آل عروج . بدأ هؤلاء بالجلوس على بعد لائق ، لأنهم بمجرد ما حمى النقاش بدأوا يقتربون إلى أن أدلى كل واحد منهم برأي .

اضطراب الخاطب :

كان محمد في اضطراب تام، وشاحباً جداً ، وتولى (ولفرد) تصريف قضيته عنه . وسوف تكون قصة طويلة لو ذكرت كل شيء عن النزاع ، الذي كان أحياناً يحتد بحرارة ، إلى الحد الذي بدت المفاوضات على حافة الفشل . وادعى (جازي) ان من المستحيل أن يزوج ابنته الصغرى ، في حـــين تظل

الكبرى غير متزوجة . « حقاً ، ان (حامو) مخطوبة ، ولا أشكال بشأنها ، ولكن (عسرا) ، ولو انها مخطوبة ، كانت حرة حقاً ، فجروان ، ابن مرزوقة المرجوج الرأس ، الذي خطبت له لم يكن الزوج الجدير بها انه ابله ، وعسرا لن تتزوجه أبداً . وإذا صرحت فتاة بأنها لن تتزوج خطيبها ، فهي ليست مخطوبة ، ولا يزال لها الحق في أن تنشد زوجاً تعجب به . ولكن هذا لا يغني . ضربنا مثلاً بزواج (جدعان) بفتاة مخطوبة ، والعاقبة السيئـــة ، كدليل على أن موافقة جروان بالنسبة لعسرا كانت ضرورية . وقال محمد بلباقة : « يا ابن عمي ! يا غازي ! كيف يمكنني أن أفعل هذا ؟ وان أرتكب خطيئة ضد ابن عمي ؟ ان هذا حقاً سيكون عاراً علينا جميعاً .

اصرار على خطبة (مطرة) :

وقصاري القول ، اننا الححنا على انه اما « مطرة » أو لا أحد ، فسحب غازي طلب (عسرا) . ومع ذلك فقد التمس عذراً ، بأن مطرة لم تكن سوى طفلة ، لم تكد تبلغ الخامسة عشرة ، وغير مهيأة جداً لمثل تلك الرحلة الكبيرة جداً حتى تدمر . حقاً ، أين هي تدمر ؟ من من الجوفيين قد ذهب إلى مثل هذا البعد ؟

وعلى أية حال ، فقد أجاب محمد بأنه إذا كان صغر السن

عقبة ، فسنة ، أو سنتان ، ستتكلف بإصلاح ذلك . كان راضياً بالانتظار سنة أو سنتين أو حتى ثلاث سنوات ، إذا دعت الحاجة . لقد كان ابناً لعروج ، وقد تعود على الصبر . أما بالنسبة لتدمر ، فهي بعيدة ، ولكن ألم نأت من هناك حالاً ، أو لا نستطيع العودة إلى هناك ؟ انه سوف يرسل واحداً من اخوته في الوقت المناسب ، مع عشرين ، ثلاثين ، خمسين رجلا لمرافقتها .

موافقة مبدئية . .

ووفق على مشروع الزواج في النهاية ، فيما يتعلق (بمطرة). ولكن مسألة (التسويات) لم ينته منها بنفس السهولة . وهنا كان الأمر على وشك أن يتحطم كلياً وإلى الأبد. كان (ولفرد) قد نوى أن يدفع المهر عن محمد ، ولكنه لن يقول ذلك حتى يستقر الأمر، وترك محمد يكافح في مسألة الصداق حتى يتوصلون إلى أفضل صفقة مستطاعة . وهذا ما كان محمد جد قادر على القيام به ، بالرغم من عدم ثبات قلبه ، وبتقوية عبد الله له ، الذي نظر إلى الموضوع بكامله نظرة تجـــارية محضة أمكن الاتفاق على مبلغ وسط ، وانفض المؤتمر .

هدايا للفتاة .. وحديث عن الجراد !!

لم تكن الأمور على أية حـــال ، حتى الآن لتسير تماماً بسكون . ففي اليوم التالي ، عندما ذهبت إلى بيت (جازي) ببعض هدايا صغيرة من أجـل العروس ، قابلني (جازي) نفسه على الباب ، واستقبلني ، كما شعرت في الحال ، بارتباك وكذلك فعلت (حالية) لأنها هي كانت تجلس في (القهوة) ومعها قريب غريب . وكانت الأجوبة على اسئلتي عن (مطرة) قصيرة ، وفي الحال تحول الحديث إلى (الطقس والمحاصيل) أو على الأصح إلى بديل هـــذه الأشياء في جزيرة العرب ، حديث عن الجراد .

لقد كان هناك رعد عاصف هذا الصباح ، وهو ما اثار فينا الامتنان . انه سيسبب نمو الحشائش في النفود ، ولكن الجراد هناك لم يكن أبداً بمثل كثرة هذا العام . ومرة أخرى سألت عن الفتيات ، غير اني لم اتلق إجابة ، وفي النهاية ، تحت احساس بالتعب ، من حديثهما العقيم ، وبنفاذ صبر قلت متعجبة :

« ما هذا يا جازي ؟ انني واثقة انك – وانت يا (حالية) – مسرور بهذا الارتباط بمحمد » فأجاب بصوت مملول : « ان شاء الله ، ان شاء الله » ، ورددت حالية : « إن شاء الله »

وكذلك فعل الغريب . ورأيت أن من المحتم أن هناك شيئاً ما خطأ ، لأنه لم يكن جواب على سؤالي ، ونهضت لأذهب . ثم خرجت حالية معي إلى الفناء ، وشرحت لي ما حدث . يبدو أن عسرا ، بمزاجها العنيف ، كانت تفزعهم إلى درجة تذهب بألبابهم . انها لن تسمح بأختها تتزوج قبلها ، أو ان تحظى بقرين أفضل . انها تحتقر (جروان) ولو أنه شيخ (كاف) ، فأرادت أن تتزوج شيخ (تدمر) ، هي نفسها . لقد اكرهت (غازي) الشيخ على سحب موافقته ، و (مطرة) كانت خائفة منها . وما العمل ؟ قلت : انه لا فائدة من النقاش في هذا مرة ثانية ، وانه إذا لم تكن هي وزوجها حقاً قادرين على التصرف مع بناتها، فيجب علينا أن نبحث لمحمد في مكان آخر عن عروس، وانني مؤملة وواثقة ان (عسرا) لن تكون حمقاء إلى درجة أن تقف في طريق سعادة أختها ، لأن ذلك لن يحقق لها ربحاً . ان طبعها السيء هذا جعل من المؤكد أكثر انها لن تتزوج محمد ، وباختصار ، ان على العائلة أن تصل إلى قرار ، نعم أو لا ، في موضوع (مطرة) وفي الحال ، لأننا كنا مغادرين (سكاكا) الآن ، ويجب أن تسوى المسألة . وعندئذ رأيت الفتاتين ، وتحدثت اليهما بنفس الشدة ، وبتأثير بلغ إلى حد أن محمد ، الذي كان قد أحس بمعنوية ضعيفة ، جاء بعد ساعات قليلة ، ومحياه يطفح بالبشر ليقول : ان عقد الزواج سيوقع في ذلك المساء .

مساومة .. حول « المهر » ثم وفاق

وقع عقد الزواج ، اذن ، ولو ان صعوبة فوق صعوبة اثيرت حتى اللحظة الاخيرة ، واظهر الجميع ، الا (تركي) ، روح مساومة فاجعة في مسألة المهر ، خمسون جنيها تركيا كان هو المبلغ الذي تقرر في النهاية ، على أية حال ، ورفض (ولفرد) باقتضاب ان يقدم (بشلكا) واحدا زيادة على ذلك ، حتى ليرشو ابن عم ظهر على غير انتظار ، وطالب بحقه (في مطرة) أو في ما يعادلها نقدا . لم تكن مشرفة هذه المساومة في الثمن ، وان الناس في انكلترا ليصنعون افضل ، بتركهم هذه الأشياء لمحاميهم ليسووها .

حفل الخطبة :

وعلى أية حال ، فقد نظم كل شيء في النهاية ، كتب عقد الزواج ووقع ، وصار كل واحد سعيدا . ثم قضى بقية المساء في ابتهاج . ذبح جَدْي وأكل ، وغنيت اغاني ، ورويت قصص ، ولم تترك اقصوصة ابن عروج الشعرية ، كما يمكن ان يتوقع ، خارج البرنامج . وناصر شاعر ، فانشد ارتجالا قصيدة في المناسبة . وكان بين الضيوف حاجان من (مكة) — على الأقل هكذا سميا نفسيهما — وبعض الرجال الذين فروا من

التجنيد الأجباري التركي في سوريا . وتناول هؤلاء الطعام مع الباقين كما لو كانوا ايضاً اقرباء . وهكذا انتهت مفاوضات زواج محمد . وهو سيعود في العام المقبل (لمطرة) أو يرسل من يأتي بها ، ولكن بالنسبة للحاضر عليه ان يرضى وينتظر.

مفاوضة أكثر أهمية :

بينما كانت هذه الترتيبات العائلية تجري ، كان بين ايدينا ايضاً مفاوضة اكثر أهمية ، وكانت تلك هي الحصول على موافقة الحاكم على رحلتنا إلى حائل . كان أول شيء يجب عمله هو ان نقيم صداقة مع جوهر ،لأن كل شيء في هذه البلاد الاستبدادية يعتمد على حسن نيته ورضاه ، وإذا اختار ان يعيدنا إلى (كاف) عند وادي السرحان ، فأني لااعلم اننا كنا نستطيع ان نقدم أية مقاومة .

والجوف ليست مكانا يسهل الخروج منه . انما على بعد يزيد عن ثلثمائة ميل من أقرب نقطة على الفرات ، وبدون تصريح من الحاكم لم يكن أي انسان ليجرؤ على ان يسافر معنا ميلا واحدا. وعلى ذلك ، ففي اليوم التالي لوصولنا (سكاكا)، زرنا (جوهر) ، الذي كان قد حذر من زيارتنا ، واستقبلنا في ابهة .

« جوهر » نائب الحاكم

وجوهر زنجي اسود تماما ، ذو ملامح افريقية كريهة ، طويل وسمين جداً ، ومختال جداً . كان قد ارتدى افخر ملابسه لاستقبالنا ، عدد من الجبب الحريرية المزخرفة واحدة فوق الأخرى ، وسراويل بزرقة السماء – أشياء جديدة علينا في بلاد العرب – وعباءة سوداء ومذهبة وكوفية (غترة) ارجوانية . كان قميصه قاسيا بسبب النشأ ، وتصدر عنه فرقعات كلما تحرك ، وبدا بشكل عام كحاكم بربري مستبد ، يتمنى المرء مشاهدته . لقد جعلنا ننتظر عشر دقائق في القهوة تقريبا ، ليزيد ، كما افترض ، من اهميته ، ثم دخل خلف موكب من الرجال المسلحين ، وكلهم مجهزون بسيوف ذات مقابض فضية ، وأحزمة مزخرقة بالفضة ، وكوافي (غتر) زرقاء وحمراء ، مثبتة بعقالات بيضاء ثخينة . وتصنع اضفاء جو من اللطف ، باهت نوعا ما ، لشخصية ملكية ، متنقلافي الحديث من موضوع إلى آخر بدون تمهيد ، واحياناً يطلب تفسيرا لملاحظاتنا أواسئلتنا من شخص أو آخر من الحاضرين. ولقد ادهشني كأمر محال للغاية أن اشاهد هذا الزنجي ، ولما يزل مملوكا ، مركزاً لمجموعة متملقة من رجال البلاط البيض ، لأن العرب ، وكثير منهم نبلاء كرام المحتد ، كانوا ينحنون

امامه ، وعلى استعداد لاطاعة أدنى اشارة من طرف عينه ويضحكون لاتفه نكتة من نكاته .

احاديث عن مشايخ العرب

بعد بضع لحظات من الصمت المهيب ، أصبح (جوهر) ، كما قلت ، ودوداً ، وبدأ يسأل عن الاخبار . اننا قدمنا من الشمال ، وكنا قادرين على أن نخبره بكل شيء عن الحرب . ماذا كان يفعل (صطام) وماذا كان يفعل (ابن سمير) ، من الواضح ان الأخير بطل بالنسبة للجوفيين أو على الاصح لأهل حائل ، لأنهم ليسوا أصدقاء لـ (صطّام) ، ومحمد الدوخي ، الشيخ ، يعتبر (صطام) منافساً كبيراً . وكنا مسرورين اننا نستطيع أن نقول أننا رأينا (ابن سُمَير) في دمشق منذ مدة لا تبلغ الشهر .

وأخبرنا (جوهر) عن تقرير حمله مؤخراً الى سكاكا بعض (الصُّلَّب) ان (الرولة) قد هزمت في قتال مع محمد الدُّوخِي وان (صطام) قد قتل . تقرير أسفنا لسماعه .

« السلطان » و « المسكوف »!!

ثم سألنا ، ولكن بنغمة ذات اهتمام أقل ، عن السلطان .

لقد عقد صلحاً مع المسكوف (الروس) ، وسر جوهر لسماع ذلك : الصلح خير ! والآن « إن شاء الله السلطان مبسوطين» قال هذا بلهجة عاطفية مصطنعة معاضدة ، وبرنين أغن في الصوت ، كان مضحكا الى منتهى الحد . وعندئذ دار همس قصير بين محمد وواحد من الحاشية ، انتهى بخروجهما معاً ، ليسلما لجوهر الهدايا التي جئنا بها من أجله .

هدية .. ثم تصريح بالسفر الى حائل

وأعتقد أن محمدا وضع موضع الاستجواب بالنسبة لمركزنا وأهداف رحلتنا ، وأجاب ، كما كنا اتفقنا من قبل أن يفعل ، بأننا ذاهبون إلى البصرة لمقابلة أصدقاء ، وأننا جئنا بطريق الجوف حتى نتجنب الرحلة البحرية كان هذا حقاً ، ولو أنه لم يكن بأية حال كل الحق ، كان حقاً بالنسبة لما حدث ، وكان قصة سهلة الفهم ومقبولة من أولئك الذين رويت لهم . وأضاف محمد فوق ذلك ، أنه من حيث أنه حدث أن نمر في أملاك الأمير ، فإن (البيك الانكليزي) كان حريصاً على أن يقدم احتراماته لابن رشيد في حائل قبل أن نذهب أبعد من ذلك ، ورجا جوهر أن يمنحنا الادلاء اللازمين . وكان هذا ما اقتنع الحاكم بفعله ، بعد بحث وبعض النفور من قبله . لقــد رق قلبه بالثياب الجميلة التي قدمناها له ، وأعتقد أن هدية صغيرة في شكل نقود جرى حديث في أمرها بينه وبين محمد .

(جوهر) يقيم مأدبة افطار :

عندما أحضرنا مرة أخرى الى مجلس جوهر ، في أعلى البيت هذه المرة ، وجدنا وجهاً زنجياً غارقاً في الابتسامات ، وان رحلتنا قد بحثت كأمر مفروغ منه . ثم مدت البسط ، وجلسنا جميعاً على السطح ، وتناولنا طعام الافطار ، لحماً مسلوقاً ورزاً ، و (صلصة) لذاعة (حريفة) توضع على الرز ، وبعد الغسل المعتاد و – الحمد لله – انسحبنا ، في غاية السرور لنتخلص من الذباب والشمس المحرقة في سطح جوهر ، ولم يكن امتناننا قليلاً لتحوُّل الامور لصالحنا ، وكما لاحظ (ولفرد) عندما استوينا على أمهارنا مرة أخرى متجهين الى المنزل ، كان جوهر صورة لمستبد متقلب الاطوار ، الذي كان يمكن ، إذا كان مزاجه متكدراً ، أن يأمر بقطع رؤوسنا ، باحتفال أكبر من احتفاله باصدار أمر باعداد طعام الافطار . لقد كان يومنا في سكاكا يوماً هادئاً .

مناخ بلاد الجوف وجوها

١١ يناير : – (١٨٧٩ م)

كل صباح منذ أن أتينا هنا يوجد ضباب ،واليوم (السبت)

كما قلت ، نزل المطر غزيراً ، جاء المطر مع رعد وبرق ، وكما اعتقد، فان الحال هي دائماً في الغالب هكذا في هذا الجزء من العالم. واني لمندهشة أن أعلم، عند الحديث عن البرق ، انه لم يسمع أحد في سكاكا عن أناس قتلهم ، ومحمد يؤكد ذلك بقوله : ان القضية هي بعينها في تدمر . وبدا مندهشاً عندما سألته ، كما اندهش من أن البرق يظن انه خطر ، ويقول: إن حوادث بسببه لم تحصل مطلقاً في الصحراء . ان هذا غريب . ان سطح التربة في سكاكا يكاد يكون رملا نقيا ، ويجري المطر من خلالهـــا بالسرعة التي يسقط بها ، ويبقى فقط في تجويفات قليلة ، حيث يوجد نوع من الرواسب صلباً بحيث يكفي لان يحتجزه .

صفا الجو بعد الظهر ، وقمنا باستطلاع صغير إلى قمة التل المنخفض خارج مزرعة ناصر والتل من الصخر الرملي ، ذو لون برتقالي من الأسفل ، ولكن عوامل الجو جعلت لونه اسود على سطحه العلوي ، وارتفاعه لا يزيد على مائة قدم ، وينتصب وحيدا ، ويسيطر على منظر ممتد ، غريب ككل المشاهد في اقليم الجوف ، وجميل جداً بالاضافة إلى ذلك . وفي الاسفل تماما عند صدر المنظر تمتد مزرعة ، حوش مربـــع مسور مكون من ثلاثة أو أربعة فدادين ، بنخيله وأثله ، ومنزليه الواطئين المبنيين باللبن ، وآباره ، بكل هذا يبدو منسقا ومرتبا وكثير الخيرات . وما وراء ذلك ، يرى الناظر

إلى ناحية الغرب ثلاث حقول أخرى ، بقـع من الخضرة العميقة ، في برية متكسرة من الرمال والصخور الرملية ، ثم خلفها (سكاكا) ، ذؤابات نخيلها فقط يمكن أن ترى ، والكتلة السوداء للقلعة ترتفع فوقها في معلم رائـع . وامتد الخط الطويل لحرج النخل إلى الجنوب ، مختفية في النهاية في كتلة مشوشة من التلال الرملية . جذبت هذه بصفة خاصة ملاحظتنا ، لأنها حددت معـالم بداية النفود ، ليس النفود الكبير حقا ، بل مجموعة من الكثبان المنعزلة نما عليها الغضا ، وليست بأية حال غير شبيهة بتلك التي تمر من خلالها سكة حديد (بلونيا) و(كاليه). ان طريقنا كما نعرف ، تمتد عبرها، واننا سننطلق غداً .

كتابة أثرية .

بينما جلست اعد رسميا تخطيطيا لهذا المنظر الغريب ، عاد (ولفرد) الذي كان قد تسلق إلى قمة صخرة طويلة ، تتوج التل ـ عاد ليخبرني انه اكتشف نقشا . لقد كنا نبحث ، منذ وصولنا في منطقة الصخور الرملية ، عن آثار لكتابات قديمة ، ولكننا حتى الآن لم نجد شيئا الا بعض خدوش مشكوك فيها ، وقليل من هذه هي تصميمات بسيطة يجدها

المرء في كل مكان الصخور الرملية، تمثل جمالا وغزلانا . وهنا، على أية حال ، كانت ثلاثة أحرف واضحة التكوين (رسم الأحرف على ص ١٤٨ من المجلد الاول من الكتاب) اثنان منهما ينتميان إلى الابجدية اليونانية .

وكان واضحا ، ايضا ، من لون الحز انها وجدت هناك منذ سنين كثيرة .وعلى هذا بنينا عددا من التخمينات التاريخية تتعلق بسكاكا ، وحالتها في الأزمنة الكلاسيكية .

استعداد للسفر الى حائل

وعندما عدنا إلى المنزل،وجدنا أن محمدا كان يعدالترتيبات الاخيرة مع جوهر من أجل رحلتنا . لقد أثار الرجل العظيم اعتراضات على نقطة من نقط المفاوضات ، ولكن هذه سويت بذهب (أو بقطعة ذهبية) ، وقد وافق الآن ان يرسل رجلا معنا ، دليلاً محترفا لعبور النفود .

ويبدو ان هناك خطين بهما يمكن الوصول الى حائل ، احدهما يقطع في ثلاثة عشر يوماً والآخر في عشرة أيام . ويقولون ان الأول أفضل بالنسبة للجمال الموقرة ، لأن الرمل أقل عمقاً ، الا ان من المحتمل ان نختار الطريق الأقصر ، اذا كان من أجل أن نرى النفود في جزئها الاسوأ فحسب . لأن

النفود كان موضوع احلامنا طيلة هذه الرحلة ، كصحراء ليس ما يفوقها في العالم . لقد سمعنا عنها تقارير عجيبة هنا ، وعن الناس الذين فقدوا فيها . ان رحلة العشرة أيام هذه تمثل شيئاً كمثتي ميل ، وليس هناك الا بئران على الطريق ، الأولى في نطاق مسافة اليوم الثاني ، والأخرى في اليوم الثامن . سيحضر الدليل جمله ، وسيحمل قربتين من الماء ، وقد اشترينا نحن أربعاً أخرى ، ليصبح المجموع ٨ قرب . وهذه سوف تكفي امهارنا وتكفينا ، وعلينا أن نكون حريصين . لقد حملنا كميات كافية من التمر والخبز ، ومــــا زال لدينا واحد من الجديين ، لنستعمله لحماً ، اما الآخر فقد أكل كما سبق أن قلت ، ولا يمكن التعويض عنه بآخر . ان الميرة من كل نوع يصعب الحصول عليها في سكاكا .

اختيار بين طريقين

واستطاع جوهر أن يحصل لنا على حمل جمل من الحنطة باستعمال بعض التهديد تقريباً بالأسلوب التركي .

كف المطر والقمر مشع ، وعدتنا لعبور النفود مُتهَيّئةٌ وفي بضع ساعات سنكون في طريقنا . سنحتاج الى كل قوانا من أجل الأيام العشرة التالية .

القسم الثالث

« النُّفُود [1] » ـــ بين « الجَوْف » و « جُبَّة »

[لعل أهم ما ستصادفه في هذا الفصل – وهو الثامن من الجزء الأول من الكتاب – إلى جانب انطباعات الكاتبة عن النفود » موضوع أحلامها ، التي تحققت - وصف لـ « جيولوجية » النفود، وطبيعة أرضه ، ونباتاته ، والحياة فيه] .

(١) النفود هي الكثبان الرملية ، التي تشمل مساحة كبيرة في الجزيرة، ولعل اصل الكلمة التي لم نعثر لها على ذكر في المعاجم «النهود» بالهاء، فحرفت وهذا « النفود » الذي تتحدث عنه الرحالة الجزء الشمالي من الدهناء، ويعرف قديماً برمل « عالج » .

[كنا الان نعبر محيطاً واسعاً من الرمل الحمر غير المتماسك ، غير محدود بالنسبة للعين ، متراكماً في سلاسل هائلة تجري متحاذية من الشمال الى الجنوب، تموجا اثر تموج، وترتفع كل منها الى مائتين او ثلثمائة قدم في المتوسط ، بجوانب منحرفة وقنن مستديرة متجعدة في كل الاتجاهات بفعل انواء الصحراء المتقلبة الاطوار . وفي الاعماق ، بينها يجد المسافر نفسه كما لو كان سجيناً في حفرة رملية خانقة، محاطا باسوار لاهبة من كل جهة ، واحياناً ، وهو يكد في صعود المنحدر ، يطل على ما يبدو بحراً واسعاً من النار تتصاعد تحت ريح موسمية شديدة ، وتتجعد بفعل انفجار مضاد في موجات حارة حمراء صغيرة] .

بلجريف

في وداع « آل عروج » :

١٢ يناير : (١٨٧٩م)

غادرنا المزرعة هذا الصباح في ضباب كثيف ، وسط

تبريكات آل عروج . لقد عاملونا بلطف ، وكنا آسفين أن نودعهم ، خاصة تركي وعربي ، ولو اننا أصبنا بخيبة أمل — بعض الشيء في توقعاتنا عن العائلة بصفة عامة . فبالرغم من كرم محتدهم وتقاليدهم النجدية ، فان لهم نقائص عرب المدينة بالنسبة للنقود .

في انتظار هدايا .. ! :

وكان صدمة لشعورنا أن (نصراً) مضيفنا ، توقع هدية صغيرة في شكل نقود عند رحيلنا ، اسمياً للنساء ، ولكن في الواقع وبدون شك له هو نفسه. ان شيخاً من شيوخ الصحراء، مهما كان فقيراً ، لن يضع في جيبه مجيدياً . والغلمان ، أيضاً ، طلبوا هدايا ، إذ طلب الأكبر معطفاً ، لأن واحداً كان قد أعطى لأخيه ، والأصغر جبة ، لأنه كان لديه بالفعل معطفه، وجاء أعضاء آخرون في العائلة بعياب صغيرة مملوءة تمراً أو سمناً يحملونها في أيديهم ، في شكل (قرابين للوداع) ، ثم تريثوا انتظاراً لشيء مقابل . وكان كل هذا بالطبع عادلاً ، وكنا مسرورين أن نجعلهم سعداء بنقودنا ، ولكن قل أن يتناسب مع العواطف الجميلة التي اعتادوا أن يعبروا بها، بمناسبة وبدون مناسبة ، عن واجبات الضيافة . وخيبات أمل كهذه يجب أن تحتمل ، وأن تحتمل بابتهاج ، لأن الناس ليسوا كاملين في أي مكان، والمسافر ليس له حق أن يتوقع في الخارج

أكثر مما كان سيلقى في وطنه. ففي انجلترا ربما لم نكن لنستقبل على الإطلاق، بينما كان الترحيب بنا هنا صادقاً تماماً منذ البداية، مهما تكن الفكرة اللاحقة (الطارئة بعد ذلك).

قبلات الوداع ! :

وهكذا قبّلَ (ولفرد) الأقرباء جميعاً، وتبادل معهم وعود حسن النية المتبادلة وأمال اللقاء، وذهبت إلى (الحريم) لأودع بقية العائلة، ولحسن الحظ لم يكن متوقعاً مني أن أقبلهن جميعاً، ثم انطلقنا في طريقنا.

ثم انطلقنا في طريقنا :

امتد دربنا في اتجاه الجنوب فوق تلال رملية رأيناها أمس، وهي الآن تحجب عن ناظرنا (سكاكا) وأخراج نخيلها، ومرة أخرى نقص عددنا إلى جماعتنا المسافرة المكونة من ثمانية أنفس، مع راضي دليلنا الجديد، وسرنا باعتدال في الطريق إلى حائل. هذه الكثبان الرملية ليست حقيقة هي النفود، وهي تشبه كثيراً ما يمكن أن يشاهد في أي مكان من الصحراء في الصحراء الكبرى مثلاً، أو في بعض أجزاء من شبه جزيرة سيناء. انها جديرة بالتصوير، من حيث كونهـــا من الرمل الأبيض النقي، بين خمسين إلى ١٠٠ قدم ارتفاعاً، تتداخل بينها مسافات ذات أرض أصلب، وهي مغطاة بالنبات.

وينمو الغضا هنا بحيث يصير شجرة،ذات جذع رفيع ملتوي، أبيض تقريباً ، وورقة ريشية غبراء .

قابلنا بعض الرعاة مع قطعانهم ، أرسلوا هنا من المدينة للرعي ، وجماعات من النساء يجمعن حطباً .

عود الى محمد وعروسه :

سلاّنا محمد كثيراً جداً طيلة الصباح ، بحديثه إلى هؤلاء الخاطبات . لقد دبر أن ينال لمحة من عروسه المقبلة وأختها قبل أن نبـــدأ السفر ، وهو يتخيل نفسه في حب قانط ، ولو أنه لا يستطيع أن يقرر أية الاثنتين يفضل . فأحياناً هي مطرة، كما يجب أن تكون ، وأحياناً الاخرى ، لا لسبب أوجه ، في مبلغ علمنا ، أكثر من أنها أطول وأكبر سناً ، لأنه لم ير وجهيهما . وأظهر حديثه اليوم مع الخطابات سذاجة في العقل ، لم يرتب أحدنا فيها . كان يركب منطلقاً كلما رأى جماعة من هؤلاء النساء، وعندما نلحق به كنا نجده في الغالب في محاورة جادة مع أكبرهن سناً وأقبحهن خلقة في موضوع قلبه. وسيبدأ في سؤالهن ما إذا كن من(سكاكا) وسوف يدور في الحديث إلى اسرة (ابن عروج) ، وإذا وجد ان النساء يعرفنها، فسوف يسأل بغموض : كم توجد في بيت(جازي)؟وما إذا كن متزوجات أو غيرمتزوجات ؟ ثم سوف يلمح إلى انــه سمــع ان الكبرى جميلة جداً ، وسوف يسأل باحتراس عن

الصغرى ، منتهياً دائمـــاً إلى الكشف عن انه هو نفسه (ابن عروج) من (تدمر) ، وانه خطب أية واحدة من غير المتزوجات، التي بدا ان النساء قد أطرينها في وصفهن . وبهذه الطريقة فقد عقله تمـاماً حول الاختين ، أحياناً يتخيل انه أسعد الرجال، وأحياناً ان (جازي) قد خدعه باعطائه أقل ابنتيه قيمة. وفي مثل هذه المناسبات كان يلتفت إليّ ويرجوني أن اكرر للمرة المئة وصفي لفضائل مطرة ، الذي سيعزيه حتى يقابل أي انسان لتثور شكوك في عقله .

(قارة) احدى قرى الجوف

بعد سفر ثمانية أميال خلال كثبان الرمل ، خرجنا فجأة إلى قرية (قارة) وهي آخر ما سوف نرى لأيام كثيرة . وتسيطر عليها رابية صخرية عليها خَرِبَةٌ .

وهي تحتوي على سبعين أو ثمانين منزلاً . وحرج النخل المحيط بها جدير بالاعجاب لنخله وأثله .

انقشع الضباب وصارت الشمس حارة بمـا يكفي لجعلنا نشعر بالبهجة أن نجلس بضع دقائق تحت السور الطيني الذي يحيط بالواحة .

خرج بعض القرويين ودار حديث قصير عن (قارة) وشيخها ، بينما كانت أمهارنا تروى من بئر قريبة . اخبرونا

اننا سنجد مخيم (الرُّوَلة) ليس بعيداً في طريقنا ، لأن إبلهم تروى من نفس هذه البئر . وفيما سلف كانت (قارة) مثل (الجوف) و (سكاكا) ، اقطاعية لابن شعلان ، وما زالوا يدفعون اتاوة صغير (لصَطّام) ، ولكنهم بدورهم يجعلون البدو يدفعون من أجل الماء .

ليس هناك خطر مهاجمة (الرولة) أو غيرهم لنا ، لأننا الآن في بلاد ابن رشيد ، حيث قطع الطريق أمر غـــير مسموح به . كان القاريّون كرماء في عروضهم لاستضافتنا إذا كنا سنبقى في (قارة) ، إلا أنه لم يكن في المكان من شيء مثير بمـــا يكفي لتعويقنا ، وعلى ذلك فقد واصلنا سيرنـــا ...

إنها كالجوف وسكاكا ، تحتوي على قلعة خربة على تل منخفض ، ولكن الاطلال الآن ليست أكثر كثيراً من أساسات لأسوار صخرية قديمة بنيت من غير (سمنت) .

السفر من (قارة)

بعد مغادرتنا القرية بوقت غير طويل ، صادفنا جماعة من الرولة مع عدة مئات من الابل قادمين الى (قارة) من أجل الماء . كانوا غير مسلحين ويسيرون مسالمين كما يفعل الفلاحون في إيطاليا . اخبرونا ان مخيمهم كان خارج طريقنا وبعيد جداً ، لأن نبلغه الليلة ، ولكننا سنجد بُنَـيّة بن شعلان ، ابن

عم (صطام) قريباً من (بئر شقيق؟) موزه ريتنا غداً .

انه لبرهان واضح على استتباب الأمن في البلاد ان تجد جماعات من القرويين، كما وجدنا الآن، في كثبان الرمال وراء (قارة) بأميال كثيرة، مع كل هؤلاء البدو . إلا انه يبدو حقيقة وجود القانون والنظام في حكومة ابن رشيد .

بعد استمرارنا في السير ساعتين اخريين ونصف ساعة في أرض متكسرة انتهينا أخيراً الى مرتقى واقف الانحدار بَرْهَن — عند صعودنا له — على انه اقصى طرف لمنخفض (سكاكا)، وفوقه وجدنا أنفسنا في سهل حصباوي .

وصف (جيولوجي) للجوف وما حوله

ان المنظر من هذا الطرف، وأنت تنظر الى الخلف، كان مدهشاً، وقدم لنا في الحال فكرة عن (جيوليجية) المنطقة كلها، حوض (سكاكا) الكبير بتلاله والتلال الرملية، وسلسلة التلال الطويلة التي تقع الواحة تحتها وسلسلة جبل (الحمامية) أيضاً، كلها مجرد جزر في الحوض، وهو يبدو بالاضافة الى ذلك انه يضم الجوف وكذلك القرى الشرقية في المحيط الرئيسي له . و (ولفرد) الآن لديه شك قليل في ان (سكاكا) والجوف هما حقاً الذيل، كما كان الأمر بالنسبة لوادي السرحان أو على الأصح رأسه، لأن من المحتم أن يكون الكل في شكل شيء

ما ، يشبه حيواناً مائياً كالضفدع (أبو ذنيبة) ، وهذه النقطة هي أنفه .

ان (الحماد) أو السهل حيث كنا الآن ، أعلى من (قارة) و(سكاكا) بـ ٣٥٠ قدماً ، أو ٢٢٢٠ قدماً فوق سطح البحر . وهو مستو تماماً وخال من النبات ، امتداد مسطح أسود من تربة حصباوية مغطاة بحصى صغيرة مدورة ، يمتد الى الجنوب الغربي حتى الأفق ، ولا يشبه أي شيء في الحوض الأسفل .

اندهشنا كثيراً أن نجد سهلاً مفتوحاً كهذا أمامنا ، لأننا الآن لم نتوقع شيئاً غير الرمال ، ولو أننا لم نستطع أن نراها ، إلا أنها لم تكن بعيدة ، وهذا فقط كما لو كان شاطىء النفود الكبير .

(النفود) من بعيد :

وفي الساعة الثالثة والنصف(بعد الظهر) رأينا خطاً أحمر على الافق أمامنا ، انتصب وتجمع عندما اقتربنا أمـــامه ، وممتداً الى الشرق والغرب في خط غير منكسر . وربما ظن في البداية انه من تأثير السراب ، ولكن عند الاقتراب منه أكثر وجدناه منكسراً الى موجات عظيمة ، وفـيما عدا لونه الازرق فإنه غير بعيد الشبه ببحر عاصف يشاهد من الشط ، لأنه يعلو ، كما يبدو أن البحر يعلو ، عندما تكون الامواج عالية ، فوق مستوى سطح الارض . وهتف شخص مـــا :

« النفود » ! ومع أننا كنا لبرهة غير مصدقين ، فاننا اقتنعنا بسرعة . ان ما أدهشنا هو لونه ، الذي بلون (الراوند) ، و (المغنيسيا) ، والذي لا يشبه أبداً أي شيء من الرمال التي رأينا حتى الآن ، ولا أي شيء توقعناه . ومع ذلك فقد كان النفود ، صحراء أواسط بلاد العرب الحمراء . وفي بضع دقائق كنا قد وصلنا نخبُ اليها وكانت أمهارنا تقف بحوافرها على موجاتها الأولى .

عن خصائص (النفود) الطبيعية

١٣ يناير : (١٨٧٩ م)

لقد كنا كل طيلة اليوم في النفود ، وهو مثير للاهتمام فوق ما أملنا ، وساحر فوق الحد الذي توقعناه ، وهو الى جانب ذلك ، مختلف تماماً عن الوصف الذي أتذكر أني قرأته عن (النفود) للمستر بلغريف ، والذي يؤثر في المرء ككابوس لرعب مستحيل . صحيح انه عبر النفود في الصيف ، ونحن الآن في منتصف الشتاء ، ولكن السمات الطبيعية لا يمكن أن تتغير كثيراً بتغير الفصول ؛ ولا أستطيع أن أفهم كيف تغاضى عن خصائصها الرئيسية . ان الشيء الذي يدهش المرء عن النفود لأول وهلة هو لونها .. انه ليس أبيض ككثبان الرمل التي مررنا بها أمس ، ولاأصفر كما هو الرمل في أجزاء من الصحراء المصرية ، ولكنه في الواقع أحمر فاتح ، قرمزي تقريباً في

الصباح حين يكون ندياً بالطل . إن الرمل خشن نوعاً ما ، ولكنه نقي تماماً ، لا تخالطه أية شائبة من عنصر أجنبي ، حصباء ، أو حصى ، أو طين ، وهو في نفس التلوين والنسيج في كل مكان .

نبات (النفود) الغضا، والارطى :

وأنه لخطأ كبير أن نفترض أنه مجدب ، فالنفود ، على العكس ، أوفر بالاشجار وأغنى بالكلأ من أي جزء آخر من الصحراء مررنا بهمنذ أن تركنا دمشق . انها مكسوة بأجمات الغضا في كل مكان . واجمات من نوع آخر يسمى «بالارطى» ، التي هي في هذا الوقت من السنة حيث لا أوراق بالضبط مثل كرمة كثيفة التعريش . ان فروعها ذات العقد وجذعها ذا الالياف يعطيها الى درجة كبيرة، منظرا ، تنطوي عليه قصة عن انها كانت في الاصل كرمة . يقول راضي: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء ذات يوم إلى مكان يوجد فيه حائط عنب ، فوجد بعض الفلاحين يشذبون أشجاره . فسألهم عما كانوا يصنعون، وعما كانت تلك الشجيرات. وخوفا من سخطه أو طمعا في السخرية به أجابوه : بأنها شجرات « الأرطى » وكان « الأرطى » هو أول اسم قفز إلى أذهانهم . فرد النبي ﷺ : « أرطى ان شـــاء الله ، فلتكن ارطى إذن » . ومنذ ذلك اليوم توقفت عن أن تكون عنباً ولم تحمل ثمراً .

وإلى جانب ذلك توجد أنواع عديدة من كلأ الابل ، خاصة نوع جديد بالنسبة لنا يسمى العاذر ، الذي يقولون إن الغنم يمكنها أن تعيش عليه شهراً بدون أن تحتاج إلى ماء ، وأكثر من نوع واحد من الحشيش. ومن أجل ذلك فقد سرت كل من الابل والامهار بالمكان ، وابتهجنا نحن بوفرة الوقود من أجل مخيماتنا .

الحياة في (النفود)

ويقول (ولفرد) أن النفود قد حل له في النهاية السر الغامض لتربية الخيل في أواسط بلاد العرب . ففي الصحراء القاسية لا شيء هناك يمكن للخيل أن تأكله،ولكن هنا يوجد الشيء الكثير. ان النفود يفسر كل شيء . فبدلاً من أن يكون المكان الموحش الذي وصفه عدد قليل من الرحـــالة الذين شاهدوه ، هو في الواقع موطن البدو أثناء جزء كبير من السنة . ان حاجته الوحيدة هي الماء ، لأنه لا يحتوي الا على آبار قليلة ، وعلى طول أطرافه تشتد كثافة السكان .

ويخبرنا راضي أنه في الربيع ، حين تخضر الحشائش بعد المطر ، لا يهتم البدو بالماء ، من حيث أن ابلهم تكون حلوبة ويعيشون أسابيع بدونه ، يجوبون موغلين في الجزء الداخلي من الصحراء الرملية .

المنخفضات فى (النفود)

كان سفرنا طيلة اليوم خلال النفود ببطء ، وشغلنا أنفسنا بدراسة ملامحها الطبيعية . وبدت لنا من أول نظرة فوضى شاملة ، ومكومة هنا ومجوفة هناك ، وسلاسل وتقاطع سلاسل ، وعقد آكام كلها في اضطراب كلي ، إلا أننا بعد سيرنا بعض ساعات بدأنا نكتشف اطرادا في عدم النظام ، نحن مشغولون بمحاولة تعليله . ان أكثر ملامح النفود اثارة للدهشة هي التجويفات الكبيرة لها شكل حافر الحصان ، وتنتشر في كل مكان (ويسميها راضي فلجا) . وهذه ، ولو انها تختلف في الاتساع من فدان إلى مائتي فدان ، جميعها متشابهة في شكلها واتجاهها بكل دقة .

انها تشبه بالضبط أثر حافر حصان بدون حذوة ، أي أن حزة مقدمة الحافر حادة وعمودية ، بينما ان حرف الحافر يستدق تدريجياً الى لا شيء عند الكعب ، وكلوة الحافر رغم أنها تقريبية إلا أنها ممثلة في المركز بأرض منكسرة ، مكونة من تلاقي مجاري المياه. ان قطر بعض هذه — الأفلاج — يجب أن يكون على الأقل ربع ميل ، وعمق أعمقها ، وهو ما قمنا بقياسه اليوم ، أثبت أنه ٢٣٠ قدماً ، وذلك يجعلها تنخفض تقريباً الى مستوى السهل الحصباوي الذي عبرناه أمس ، والذي يستمر تحت الرمال، مع احتمال قليل للشك في هذا ..

ويبدو هذا أكثر احتمالاً ، من حيث أننا وجدنا في قاع أعمق (فلج) ، ودون أي مكان آخر ، قطعة من الأرض الصلبة .. كان أعمق ثاني - فلج - قسناه مائة واربعين قدماً فقط ، وكان مع ذلك رملياً في أوطأ نقطة منه ، أي تحت نقطة كلوة الحافر فقط . ومع أن التربة المكونة لجوانب الافلاج وكل جزء فيها هي من الرمل الخالص، وأن السطح المباشر من المحتم انه في حالة انتقال مستمر ، فان من الواضح تماماً ان التخطيط العام لكل منها بقي سنين ، وربما قررنا ، بلا تغير. والنبات يثبت هذا ، لأنه ليس نمواً حدث بالأمس ، ولأنـه يغطي الأفلاج كما يغطي غيرها . وفوق ذلك ، فدليلنا الذي سافر في النفود جيئة وذهاباً أربعين سنة، يؤكد أنها لم تتغير. وما من عاصفة رملية تملأ قط التجويفات، أو تذهب بالحوافي. وانه ليعرفها جميعاً ، وقد كان يعرفها منذ أن كان صبياً . « لقد خلقها الله هكذا » !! .

تعليل تجويفات (النفود :

وعلى أية حال ، فقد كان ولفرد .. يبحث عن نظرية طبيعية لتفسر تكوينها - أي الافلاج - ، ولكنه لما يستطع بعد ان يقرر ما اذا كانت راجعة الى فعل الريح أو المـاء ، أو الى عدم التساوي في الأرض الصلبة تحتها . ولكنه الآن

يميل الى نظرية الماء . وربما نستطيع أن نقول عنهـا أكثر فيما بعد ، عندمـا نكون قد رأينا كثيراً منها ، ومن أجل ذلك فسأحتفظ بملاحظاتي .

لقد سافرنا يوماً بطوله ، نكدّ في السير في الرمال التي تغوص فيها أخفاف الابل حتى الرسغ ، والآن قد حان الوقت لأن نهتم بأمر (حنـّا) الذي هو مشغول بالطبخ. ان ارتفاع مخيمنا ٢٤٤٠ قدماً ، ولكن أعلى مستوى عبرناه خلال اليوم كان ٢٥٦٠ قدماً . لم نشاهد أحداً طول اليوم إلا واحداً من الرولة على ذلول ، أخبرنا ان معسكراً يوجـــد على يسارنا . بحثنا عنه ، ولكنا ميزنا فقط جمالاً على مسافة كبيرة .

١٤ يناير : (١٨٧٩ م)

صباح آخر مشرق وضاح ، ولكنه مع ريح باردة من الجنوب الشرقي . لا شيء يمكن أن يكون أكثر إشراقـــاً وتوهجاً من شمس الشتاء منعكسة من هذه الرمال الحمراء . ها هي – الأفلاج – مرة أخرى موضوع انتباهنا . اننا نجد أنها جميعاً تشير الى نفس الاتجاه ، أو تقريباً هكذا ، أي باتجاه مقدمة حافر الحصان نحو الغرب ، ولو أن جزء الميل الأشد انحداراً يختلف قليلاً ، مع كون المظهر الجنوبي أحياناً وأحياناً المظهر الشمالي اكثر وعورة من ذلك المواجه للشرق . وهذا يبدو أنه إشارة إلى الريح أكثر من المـــاء كسبب اصلي للانخفاض . وفوق ذلك ، فعلى طرف – الافلاج – الكبيرة

يوجد بصفة عامة رابية مستطيلة من الرمل ، ذات رأس ، كالذي يراه المرء على رأس قمة ثلج ، ومن الواضح أنه تسبب عن الريح ، من حيث أن الجزء المحجوب عن الريح ذو انحدار فجائي حاد والجزء المعرض للهواء مستدير .. ويبدو أن هذه تتغير بتغير الريح وهى بصفة عامة عارية من النبات ، ورملها أخف صفرة مما عداها ، وهو أمر فريد . يمكن للمرء أن يخمن وجود فلج عميق عن بعد كبير ، بوجود واحدة من هذه الآكام ذات المظهر الثلجي على الافق. ومن النادر أن يستطيع المرء الرؤية البعيدة في النفود، من حيث أنه دائماً يكِدّ صاعداً أو هابطاً منحدرات رملية ، أو يزحف كعربة ذات حصان واحد حول حافات هذه الأحواض الكبيرة . والارض بصفة عامة على درجة من الاستواء ، فقط حول الحافات والمرء يذهب من فلج إلى آخر من أجل أن يستفيد من المستوى .. ولقد صعدنا إلى رأس واحدة أو اثنتين من أعلى القمم الرملية ومن فوق واحدة منها استطعنا أن نميز صفاً من التلال على بعد حوالي ١٥ ميلا إلى الغرب – بجنوب غرب ، مع رأس منعزل إلى ما ورائها ، عرفناه كـ (رأس الطويل) الذي دللنا عليه يوم وصلنا الجوف . ومن هذه الارتفاعات أيضاً استطعنا أن نلاحظ وضع الافلاج ، ونميز أنها تتوالى الواحد بعد الآخر في صفوف ، ليست دائماً في خط مستقيم ، بل كما يتجه واد متعرج تعرجاً لطيفاً . وهذا ما جعلنا نفكر مرة أخرى في نظرية الماء .

ويظن ولفرد أنه ربما يوجد انحدار تدريجي في السهل تحت الرمل ، وانـــه حينما ينزل المطر ، كما يجب أن يحدث هنا أحياناً ، يتسرب خلال الرمل إلى الأرض الصلبة ويجري تحت الرمل على طول وديان ضحـــلة متعرجة ، وأن الرمل بهذه الطريقة ينزلق باستمرار بالتدريج إلى المنحدر ، وحينما يوجد انحدار في السهل من أسفل ، هناك يحدث الفلج فوقه .

إن هذا الرأي يسنده ما لاحظناه من الأماكن المجدبة ، حيث يحدث مثل ذلك ، لأنها دائماً تنحدر إلى الغرب . ويؤكد لنا راضي أن الماء لا يتجمع قط في الافلاج حتى بعد المطر انه يجري اليها ثم يختفي .

حول خصائص بعض القبائل

وبينما كنا نبحث هذه النقط المتعلقة بالتاريخ الطبيعي ، شاهدنا فجأة ابلا ترعى في حافة فلج لا يبعد نصف ميل أسفل منا ، فامتطينا أمهارنا على عجل شديد، لقد اخترعت عصابة تمكنني من الركوب بسرعة ، ومنذ حـادثة الغزو في وادي السرحان ، مـــا زلنا حريصين على الاحتراز من الأعداء . وانحدرنا راكبين لنرى ما أمكن رؤيته ووجدنا في الحـال ستة — نصف درزن — من الناس ، رجالاً ونساء ، في فلج ، وعدداً آخر من الابل ترعى قرب خيمة . كانت الخيمة مجرد

ظلة مع خلفية لها ، وبمجرد ما رأونا أسرعت النساء إلى قلعها ، في حين اندفع الرجال إلى أقرب الجمال وأناخوها . من الواضح أنهم كانوا في خوف ، وبسرعة كبيرة تم كل شيء إلى حد أنه في الوقت الذي وصلنا اليه كانت الخيمة وأثاثها ، مثلما وجد ، قد حملت ، وأصبحوا على استعداد للذهاب .

إن العرب يفخرون بقدرتهم على قلع مخيم ، والسير عند اخطار ، مدته لحظة تقريباً ، وفي هذه الحال أظنه لم يكد يستغرق ثلاث دقائق . وبدا أنهم فوجئوا وصاروا في حيرة من ظهورنا حينما تقدمنا ، وفي البداية قالوا انهم (رولة) ، ولكن عندما لحق بنا أصحابنا اعترفوا أنهم من (الحويسين) قبيلة فقيرة يحتقرها البدو وتحتل نفس المنزلة التي يحتلها (الصلّب) . وعلى أية حال ، فقد كانت أعيننا غير قادرة على تمييزهم من البدو الآخرين .

سألت « محمداً » بعد هذا ، كيف أن كل قبيلة في الصحراء يسهل على أفراد من قبيلة ، أو قبائل أخرى ، معرفتها بهذه الدرجة ، فأخبرني أن كل قبيلة لها خصائص في الملبس والملامح معروفة جيداً للجميع . وعلى ذلك (فشمر) بصفة عامة طوال ، و (السبعة) قصار جداً ، الا أن رماحهم طويلة . ورماح (الرولة) أقصر . وخيولهم أصغر و (شمر نجد) يلبسون عباءات بنية ، و (حرب) سود الوجوه ، كالعبيد تقريباً ، حدثني محمد بتفاصيل اخرى كثيرة بالنسبة للقبائل التي لا

أتذكرهـــا . وقال ان راضي عرف ان هؤلاء الناس من (الحويسين) مباشرة ، من خيمتهم الحقيرة البائسة . ثم ذكرنا كيف خدعنا في العام الماضي بالغزو الذي واجهنا في (الحماد) في اليوم الذي لقينا (جدعان) لقد كان توفيقاً - كما صرح - ان شيئاً غير ملائم لم يحدث آنذاك ، لأننا اكتشفنا منذ ذلك الوقت أن التسعة الأشخاص الذين ذهب (ولفرد) اليهم راكباً ليتحـدث اليهم ، كانوا في الواقع غزاة من (العمارات) ، برأسهم (رجـــاء) نفسه ، شيخ بطن (الأرفدي ؟) من تلك القبيلة . ودخل (رجاء) بعد أسابيع ليست كثيرة إلى (تدمر) ليشتري حنطة ، وأقام يومين في بيت عبدالله ، وعرف فيه الرجل الذي كان مع (البيك) في ذلك اليوم . ان هؤلاء (العمارات) كانوا يبحثون الطريقة التي سيهاجمون بها قافلتنا عندما ركب (ولفرد) اليهم ، وحقيقة أنه حينما قام بذلك وحده جعلهم يتصورون أن قافلتنا كانت قوية ، وهكذا قرروا أن يتركونا وشأننا .. أصبح محمد و (رجاء) الآن صديقين ، فقد قدم رجاء لمحمد عند انصرافه صقراً ، وقدم له محمد هدية غريبة ، كَفَنَاً ! ويوضح محمد أن الأكفان يقدرها البدو كثيراً ، وهذا الكفن بالذات صنعته أم محمد .



حليب (الابل)

بعد هذا مباشرة أتينا الى مخيم (الرولة) ، على الأقــل مخيم لعبيدهم . لم يكن الرجال زنوجاً ، ولو أنهم كانوا شديدي السواد وقبيحي المنظر . أوضحوا لنا أنهم مملكون لبنيّه ابن شعلان،ابن عم لـ (صطام) . ورئيس القبيلة الآن في (النفود). أعطونا بعضاً من حليب النياق الطازج . وهو أول ما ذقنا هذا العام . ثم بدأنا ننحدر الى واد طويــل يتقاطع هنا مع (النفود) ، وفيه تقع آبار (شقيق) . بالقرب من واحدة من هـــذه نحن الآن ، مخيمين على قطعة من الأرض الصلبة ، تحت أول موجة من رمل ما وراء الآبار .

على آبار (شقيق ؟) :

هناك أربع آبار معروفة باسم (شقيق) ، الأولى حيث نحن الآن وأخرى قريبة منها ، وثلاث أخر ، على مسافـــة ثلاثة أو أربعة أميال في أماكن متفرقة من الوادي . وهي جميعاً ، كما سمعنا ، على نفس العمق ، ٢٢٥ قدما ، ومن الواضح أنها قديمة لأن هذه البئر مطوية بصخور منحوتة ، وأطرافها متهرئة من طول استعمال الحبال في سحب الماء ، ويوجد هنا ، على أية حال ، بكرة خشبية صغيرة من أجل أن يمر

عليها الحبل ، وهو ترتيب ثابت غير معتاد كثيراً في الصحراء، حيث كل شيء قابل للنقل ينقل كأمر منتظر . فأي حبل أو دلو لن يكون له فرصة البقاء أسبوعاً في أية بئر . كان هناك جمل ميت قرب البئر ، ومنه كان نسران وكلب ينهشون ، ولا شيء آخر ذا حياة كان هناك .

وبينما كنا نلقي نظرة على حبالنا ، ونتعجب فيما إذا كنا نستطيع أن ندبر - بلم الشوارد معاً، لنصل إلى الماء ، أقبلت فرقة من الجمال نحونا متهادية تخب في مشيئتها ، ورءوسها ممتدة وأخفافها تضرب في الهواء ، ويتبعها بعض الرجـــال على ركائبهم الذلول . واتضح أن هؤلاء من قوم ابن شعلان ، وأحدهم، وكان ذلك مفاجأة سارة لنا ، رجل يسمى (راشد) عرفنا كأصدقاء قدماء ، كنا قابلناه في العام الماضي في مخيم (الرولة) في (الصقيل) في الشمال الأقصى . قال انه جاء مع (أبو جديلي) ، إلى خيمتنا واننا لنتذكر المناسبة تماماً . انه لأمر سار أن تفكر في العثور على أصدقاء في مكان كهذا ، وانه ليظهر البعد الذي تتجول فيه القبائل أثناء السنة . إن (صقيل) على بعد خمسمائة ميل من (شقيق) .

حديث عن بلية بن شعلان :

وفي الحال عرض راشد أن يمنح لنا كل الماء الذي أردناه ، لأنه كان لديه حبل طويل معه ، وشربت كل الجماعة القهوة ،

وأكلت تمراً ، وكان بينهم ابنا (بُنيّة) ، محمد وأسعد ، والأكبر شاب خجول جلف ، بينما الأصغر ، في التاسعة من عمره ، غلام صغير لطيف . واليه أودعنا رسالة شكرنا إلى أبيه . وبنية بن حنيفي بن شعلان وهو شيخ قسم كبير من (الرولة) ، نفس الشخص الذي سمعنا في العام الماضي بأنه استقر في نجد . وهو على علاقة سيئة مع (صطام) بسبب المهر الادهم الذي أخذه منه (صطام) بالقوة ، منذ بضع سنوات . ان الطفلين لم يكونا قد رأيا أوربياً قط في حياتهما ، ولم يذهبا شمالاً إلى أبعد من (وادي السرحان) . نود كثيراً لو نزور (بنية)، ولكن خيامه على بعد أميال كثيرة خارج طريقنا ، ولا نجرؤ على الاستهانة بالنفود .

مشاهدة (حوار) :

اليوم ولد حوار بجوار البئر،ذهبت لالقي نظرة علىالمخلوق الصغير الذي ترك وراء أمه ، وسيقت بقية الابل الى منزلها ، لاحظت أنه لم يكن لديه هذه الاماكن العارية (الثفنات)التي تصاب بها الجمال الاكبر سناً على ركبها وفي صدرهـــا بسبب بروكها ، كما لاحظت أن ركبتيه كانتا مرضوضتين من جراء جهده للنهوض . ساعدناه على أن يقوم، وفي ثلاث ساعات من الزمن كان قادراً على أن يعدو مبتعدا مع أمه .

جد في السير وتوفير للماء :

١٥ يناير : (١٨٧٩ م)

عندما نظرت ، هذا الصباح . خارج الخيمة ، رأيت هالة حول القمر ، وظننت ان مطراً سينزل ولكن خطأ كهـذا لم يأت ، ولو ان السماء كانت ملبدة بالغيوم والنهار حاراً رطباً ، بذلنا جهداً كبيراً لكي نبدأ سيرنا مبكرين ، ولقد كان هناك قدر كبير من « ياالله ، ياالله » يصرخ بها محمد ولم تكن نتيجتها كبيرة ، لأن الرجـال قد كانوا يحتفلون بعبورنا (النفود) ، الذي بدأ بجد اليوم ، بوليمة على جَدْي . وكانت النتيجة ان أصبحو كليلين (وخمين) وبطيئين . وفي البـــارحة ، القى (ولفرد) فيهم خطبة عن طبيعة الرحلة الجادة التي كنا نقوم بها ، ومئات الاميال من الرمل العميق التي علينا ان نعبرها ، وعن ضرورة توفير كل قوانا لهذا الجهد . بأحسن سرعة قـل أن نستطيع ان نأمل الوصول الى (جبـّـة) في طرف خمسة أيام . وربما ستة او سبعة قبلها من قافلة موقرة كقافلتنا قـــد عبرت (النفود) عند هذه النقطة ، إذا كان لنـا ان نصدق (راضي) ، فاذا انهدت قوى الجمـــال ، فلن تكون هناك وسيلة للحصول على مساعدة ، كلا ، ولا توجد أية بئر بعـد (شقيق) . وعلى ذلك فقد عين عبدالله **(شيخا للماء)** ،مع اوامر ان يوزعه بالتقتير في (جرايات) كل مساء ، وألا يسمح

لأي شخص ان يشرب أثناء النهار . ان العرب كالاطفال فيما يتعلق باللحم والشراب ، يأكلون ويشربون طـــول اليوم اذا وجـــدوا الفرصة ، ولا يتركون شيئاً للغد . لكن اسرافهم يمكن فقط ان ينتج كارثة ، واننا لنظن ان عبدالله وكذلك محمد متأثران بالموقف . هناك شيءما في هذه الاصقاع العظيمة يثير الوقار والخشوع ، حتى بالنسبة لأشد الارواح وحشية ، ولقد بدأنا سيرنا اليوم بأسلوب منظم جداً .

(راضي) الدليل الجديد

برهن راضي ، الدليل الصغير (واسمه يعني المُرِيد) ، على انه كان كسباً عظيماً لجماعتنا ، ويرغب في ان يعطينا كل أنواع المعلومات عندما كنا نسأل ، ولم يكن مهذاراً عجولا . انه شيخ صغير غريب ، ناحل وأسود وذابـل ، كالبقايا الميتة لاحراج الارَطى التي يراها المرء هنـــا ، عود عائم يتقاذفه (النفود) . ان له ذلوله يصطحبها معه ، كيس من العظام العتيقة التي تبدو كما لو كانت لن تستمر خلال الرحلة ، وعليها يقعد جاثماً ساعة اثر ساعة في صمت ، مشيراً بيـده المرتعشة بين آونة واخرى نحو الطريق الذي علينا ان نسلكه .

وهو يحمل معه على راحلتـه مهراساً (نجر) من الصخر الرملي الاحمر من صناعة الجوف من أجل قريب لابن رشيد ،

ويبدو ان هذا يحدث توازناً مع قربة الماء المعلقة في الجانب الآخر .

عظام .. وبقايا أجسام !:

وهو يتكلم من وقت لآخر ، ولقد قص علينا اكثر من حكاية ممتعة عن اولئك الذين هلكوا في سالف الايام . ففي كل تجويف تقريباً توجد عظام ، غالباً عظام جمال ، (جمال حسين) يسميها راضي وان احد سأل عمن يكون حسين فهناك ضحكة . وفي قعر واحد من الافلاج توجد ، على أية حال ، عظام من نوع آخر . هنا حملة غزو هلكت ، نجائب ورجالها . لقد كانوا (رولة) عبروا (النفود) ليغيروا على شمر ، ولم يكونوا بقادرين على ان يبلغوا (شقيق) في طريق العودة . كانت العظام بيضاء ، ولكن كانت هناك قطع من الجلد لا تزال ملتصقة بها ، مع ان راضي يقول: انها حدثت منذ عشر سنوات .

وفي مكان آخر ، أرانا كومتين من الاحطاب ، منفصلتين احداهما عن الاخرى بثلاثين ياردة ، وهما تحددان النقطة التي بوغت فيها غزو من شمر ، كانوا يسوقون جمالا من (وادي السرحان) - بوغتوا من قبل مالكها ، شيخ من السرحان الذي رمى حربته من بعد الثلاثين ياردة هذه على عقيد شمر فشكته ، مهراً ورجلا . ومرة أخرى ، أشار الى بقايا أربعين

راكباً من ركاب (جمال السليمات) ، ضلوا طريقهم ، وهلكوا عطشاً .

في طريق «أبو زيد الهلالي» ! :

كان الرمل ، لمسافة أميال عديدة بعد مغادرتنا الآبار ، مغطى بآثار أخفاف إبل ، إبل (الرولة) بدون شك . وهنا وهناك كنا نصادف آثار حصان ، ويبدو أنه كلما توغل المرء أكثر في بلاد العرب أصبحت الخيل أكثر ندرة .

وبعد عبور هذه الأميال القليلة ، لم يبد هناك — على أية حال — أي أثر للكائنات الحية ، باستثناء السحالى . واتجه بنا (راضي) أولاً في اتجاه جنوبي تقريباً ، حتى قابل خطاً من العلامات لا يبين بالنسبة لنا ، إلا أنه معروف لديه تماماً ، يتجه جنوباً — بجنوب الشرق ، وهو يسمي هذا الطريق ، طريق (أبو زيد) وحكى لنا الاسطورة التالية بهذه المناسبة (لم يكن هناك أي أثر للطريق أكثر مما يمكن أن يوجد في البحر) ..

حكاية بني هلال :

يقول راضي :

منذ سنين كثيرة ، كانت هناك مجاعة في (نجد) ، وأصبح

بنو هلال بدون قوت . وعندئذ تحدث (أبو زيـــد) شيخ القبيلة مع قريبيه (مرعي) و (يونس)، فقال لهما: «فلنخرج في اتجاه الغرب ، ولنبحث عن مراع جديدة لقومنا » .

وساروا حتى أتوا الى (تونس الغرب) ، التي كان يحكمها في ذلك الزمـــان الأمير (الزناتي) ، ونظروا الى الأرض فأحبوها ، وكانوا على وشك العودة بالاخبار الى قبيلتهم ، عندما وضعهم « الزناتي » جميعاً في السجن .

وكان « للزناتي » بنت باهرة الجمال اسمها « سفيري » ولما رأت « مري » في السجن « الدَّبّـــاب » وقعت في حبه ، واقترحت أنه يجب أن يتزوجها ووعدت ان حياته وحياة رفيقيه ستنقذ ، ولكن « مَرّعي » لم يهتم بها ولم يكن ليرضى في البداية . ومع ذلك فقد استمرت في حبها ، وقصدت أن تصنع جميلاً نحوهم ، وتشفعت الى أبيها أن يبقي على حياتهم . وعندئذ أخذ « الزناتي » يحتار في أمر سجنائه ، وهو يسمع من ابنته أنهم من أصل كريم ، ولم يعرف ماذا يصنع بهم . وعندما أخبرتهم بهذا ، اقترحوا أن واحداً منهم يجب أن يطلق ويذهب الى وطنه من أجل ان يحضر فدية لرفيقيه ، ولكنهم في قلوبهم كانوا مصممين على ان « أبو زيد » هو الذي يجب أن يذهب وأنه يجب أن يعود – ليس بفدية – بـــل بجميع قومه الى تونس ، واطلاق سراح رفيقيه . وحملت « سفيري » المقترح الى ابيها ، وقالت : « اثنان من هؤلاء

الرجال من أصل كريم ، ولكن الثالث عبد مملوك ، إلا أنني لا أعرف أياً من الثلاثة هو . واذن فدع العبد يذهب ويأتي بالفدية من أجل سادته » .

وقال الزناتي : « وكيف نكتشف العبد من بينهم ، ونميزه عن الآخرين ؟ » .

فقالت : « بهذا .. خذهم الى مكان وَحْلٍ ، حيث يوجد ماء ، ومرهم أن يمروا من فوقه ، وسترى أن العبد فيهم ، أياً كان ، سيجمع ثيابه حوله بعناية ، في حـــين أن نبلاء المحتد سيتركون ثيابهم يعلق بها الطين »

فوافق أبوها ، وحدث كذلك الثلاثة الرجال في اليوم التالي من سجنهم ، وأمروا بالمرور فوق جدول وحل ، فوضع أبو زيد ، وكان قد حذر من قبل « سفري » ، عباءته على رأسه ، ورفع قميصه حتى خاصرتيه ، بينما مشى « مرعي » ويونس ، بدون احتياط .

وعلى ذلك فقد أطلِق أبو زيد وعاد إلى نجد ، وبعد أن جمع كل قومه هناك ، قادهم عبر النفود في نفس هذا الطريق ، متخذا الدرب الذي رأيناه الآن ، حتى يمكنهم من الوصول الى السلامة . ثم واصل سيره بهم إلى تونس ، وضرب حصاراً على المدينة .

حاصر ابو زيد (تونس) سنة الا أنه لم يستطع دخولها ،

وما كان ليستطيع أخذها ، لولا « سفري » التي كانت تحبك المؤامرات من أجل نجاحه .

كانت « سفري » امرأة حكيمة . كانت تعرف القراءة والكتابة ، وتعرف السحر وتستطيع تفسير التنبؤات. وكانت هناك نبوءة تتعلق بالزناتي مؤداها أنه لا يمكن قتله في أية معركة الا بواسطة شخص معين اسمه « ذياب بن غانم » قاطع طريق في الصحراء المجاورة .

وأرسلت سفرى كلمة عن هذا الموضوع الى « أبو زيد » ، الذي ضم قاطع الطريق هذا الى خدمته ، وأرسله في الفرصة التالية ضد الزناتي ، حينما خرج الى القتال ، وذبح الامير .

ثم صار أبو زيد أميراً لتونس وتزوج مرى «سفرى».

تلك هي قصة راضي ، ويرجى ألا تكون صحيحة تماماً فيما يتعلق بخديعة سفرى لأبيها .

وعورة السير في « النفود »

أما فيما يتعلق باسطورة الطريق ، فمن المستحيل القول ان الطريق هناك « لتشهد اذ كان يكذب » .وسواء كانت طريقاً أم غير طريق ، فقد مكثنا نتجول في تعرجات طيلة اليوم ، أحياناً نكدّ صاعدين منحدرات وعرة مستقيمة ، وأخرى نتخذ طريقاً دائريا طويلا لنتجنب فلجا ، واحياناً نسير في

تعرج لغير ما سبب معين . ومع ذلك ، فدائماً على سطح غير مطروق من الرمال اللينة . ان الأرض متكسرة أكثر من ذي قبل ، والافلاج اكبر ، والسير أشق، ولكن الأمهار والجمال سارت بشجاعة ، وقد قطعنا اليوم حوالي عشرين ميلا،مخيمنا الليلة ،وان كان في فلج ، أعلى من« آبار شقيق» بـ ٥٦٠ قدماً.

١٦ يناير (١٨٧٩ م)

عاصفة في الليل حولت الرمل الى لون قرمزي . «راضي» يهنئنا على هذا من حيث أننا الان ، كما يقول ، سنبلغ «جبة» ان شاء الله ! يبدو انه كان يشك بعض الشيء من قبل . غير أن المطر الثقيل قد جعل الارض صلبة ، وكنا قادرين على ان نندفع في سيرنا بمعدل طيب ، كما لو كنا نسير على حصباء .

وكلما تعمقنا في النفود ، تصير « الافلاج » أكثر تباعدا ، والحروف المتقاطعة اكثر انخفاضاً .

يبدو أن الافلاج تسير على نحو ما ، في خطوط منتظمة من الشرق الى الغرب – أو على الاصح – من الشرق بجنوب الى الغرب بشمال .

حيوانات « النفود » وحشراته :

وانه لأمر مثير أن تلاحظ آثار أقدام حيوانات برية على الرمل ، لأن علاماتها الان ظاهرة بوضوح ، كما لو كانت على ثلج حديث السقوط . وأكثر تلك شيوعاً هي آثار الأرانب

البرية المطابقة في الحجم لأرانب بلادنا . واليوم بصرت الكلاب السلوقية وطاردت عدداً منها ، ولو بدون جدوى ، لأن أشجار الغضا والاحراج سرعان ما تحجبها عن الكلاب .

لقد عدونا مرة او مرتين وليس هناك خطر أن نفقد أنفسنا ، لان علينا فقط ان نعود على آثار خطوتنا لنجد القافلة .

وبالاضافة الى الأرانب البرية توجد انواع عديدة من الطيور الصغيرة: طيور الأطيش، وطيور النمنمة ، وقُبَّرات الصحراء والأبلق ، والغربان أحياناً .

ورأيت أيضاً زوجاً من الصقور البلدية ، من الواضح انها في موطنها .

أما الزواحف فأنها أكثر عدداً ، فسطح الصحراء بأكمله تظهر عليه آثار السحالى ، بينما كانت هنا وهناك آثار عبور الثعبان .

قتل رفاقنا اليوم اثنين - من النوع المسمى « **سليمان** » ، وهو مألوف في معظم اجزاء الصحراء ، ثعبان فضي طويل ، نحيف ، ذو رأس صغير ، وغير ضار على الاطلاق . لقد أخرجها بعد المطر أشعة الشمس الدافئة .

لقد كنا نستفهم من راضي عن انواع أكثر خطراً فوصف لنا بدقة فائقة الافعى المقرنة و « الكوبرا » . أدهشني أن أسمع عن الاخيرة ، ولكن من المستحيل ان أخطىء وصفه

لثعبان يقف على ذيله ، وينفخ عنقه كأجنحة . وهـذه – كما يقول – ترى في الصيف فقط .

بقر الوحش « المها » :

والغزلان يبدو أنها لا توجـد في « النفود » ، الا أننا صادفنا آثاراً جديدة لبقرتين وحشيتين . ويؤكد لنا راضي أن هذا الحيوان ، لا يترك « النفود » أبداً ، ولا يشرب . حقاً لا يوجد أي ماء هناك فوق سطح الأرض في أي مكان أقرب من « جبل أجا » ويجب أن يستغنى – أي الحيوان – عنه . كان أثر الحافر تقريباً في حجم حافر غزال كامل النمو. اننا متشوقون الى رؤية الحيوان نفسه ، الذي يؤكدون لنا أنه بقرة حقيقية. ، ولو ان من الصعب أن يكون ذلك. ولقد ظللنا نتطلع جيداً من اجل النعام بدون جدوى .

أما عن الحشرات ، فقد رأينـا قليلاً من الذباب ، مثل ذباب المنزل ، وبعض اليعاسيب وفراشات صغيرة . ويوجد نوع أفضل من الحشيش في النفود وأكثر مما يوجد منه على التخوم ، وافترض أن ذلك بسبب غياب الابل .

الاهتداء الى الطريق : –

إنني أجد أن راضي يعرف طريقة كلية تقريباً بواسطة

العلامات . فعلى كل تل رملي عـــال ينزل من فوق ذلوله ، ويجذب بعضا من أغصان الغضا ، وهي سهلة الكسر جداً ، ويضيفها إلى ركائز من الخشب يكون أقامها قبـلا . وهذه يمكن أن ترى من بعد لا بأس به . ولقد تعلمنا – أيضاً – أن نميز طريقا نوعا ما ، بعلامات متقطعة من بعر الإبل ، وأحيانا يوجد على جانب منحدر حاد ممر للقدم متميز . وعلى طول هذا الخط يتحسس دليلنا طريقه ، ملقيا نظرة هنـا وهناك ، كما تفعل الكلاب السلوقية عندما تقص الأثر ..

لا هو ولا محمد ، ولا أي من العرب الذين معنا ، عندهم أقل فكرة عن معرفة الاتجاه بالشمس ، وعندما سأل «ولفرد» محمدا إذا كان يظن أنه يستطيع أن يجد طريقه عائداً إلى (شقيق) ، أجاب : « كيف أستطيع أن أفعل ذلك ؟ كل واحد من هذه الكثبان يشبه الآخر » .

من قصص الدليل (راضي) :

لقد سلانا راضي بقصص أخرى من قصص الدم والعظام ، التي من أشدها فظاعة قصـة بعض الجنود الاتراك [1] الذين تخلى عنهم غدرا في النفود) كانوا احتلوا حائل في الأيام الأولى لابن رشيد الأول، وتركوا هناك بصفة حامية . ولكن

---

(١) كان هؤلاء بدون شك من جنود جيش ابراهيم باشا الذين تركوا في عنيزة . (الأصل)

السلطان أما انه لم يستطع الاتصال بهم ، وأما أنه نسيهم ، وبعد زمن ما رغبوا في الذهاب إلى ديارهم . كثير منهم مات في حائل ، وبقيتهم ، وحوالي خمسمائة ، اتفقوا ببساطة على الانطلاق إلى دمشق تحت حراسة عُبَيْد ، أخى الأمير • الذي عقد العزم على افنائهم . غادروا حائل على ظهور الخيل واتبعوا أدلاءهم الشمريين حتى هذا المكان ، وكان هؤلاء يجيبون على كل الأسئلة المتعلقة بأماكن الآبار ، كانوا يجيبونهم «بعد قليل» . ! اوفي النهاية تركهمالبدو ويبدو أنهم كانوا رفاقا شجعانا ، لأن آخر ما سمع عنهم كان أغنية من نوع ما ، أو ترديدا غنائيا (كورس) ، كانوا يغنونها أثنـــاء صراعهم للمشاق : —

« نحن عسكر ما نحن عطاشى ، نحن عسكر مـــا نريد ميّه » اولكنه من المحتم أنهم عند الظهيرة من ذلك اليوم قنطوا فاضطجعوا تحت الاشجار ليصيبوا قليلا من الظل ، وهكذا وجدوا بعد ذلك مبعثرين في (افلاج) مختلفة . والبعض من خيلهم عادت ادراجها الى (جبة) ، وصارت ملكاً لكل من استطاع ان يضع يده عليها . وبيعت من قبـــل هؤلاء المحظوظين من الناس ببضع أغنام او نعاج لكل واحد منها . انها قصة ذات لون شاحب شحوب الموتى .

وقصة أخرى أبهج هي قصة العاشقين الصغيرين اللذين فرا خلسة من الجوف ، وتتبعهما اقرباؤهما ، ولانهما توقعا ان آثارهما

ستقتفى ، وليتجنبا الفضيحة ، اتفقا بدلا من أن يسيرا معاً ، أن يتبعا خطين متوازيين ، المسافة بينهماmائة يارد تقريباً ، وهكذا انطلقا في رحلتهما ، وعندما أتيا الى فلج معين ، أراه لنا راضي ، كانا متعبين جداً فاضطجعا ليموتا كل منهما تحت شجرة . هكذا وجدا لحسن الحظ في الوقت المناسب . وسَرَّ تصرفهما هذا المبني على حسن التقدير ، الاقرباء من الطرفين ، سرورا بالغاً الى درجة ان الموافقة على زواجهما قد تمت ، واحتفل بالعروسين في جو من المرح والانشراح .

بارقة أمل :

في الساعة العاشرة والنصف بصرنا فجأة بقمتي (العليم) (١) وهما صخرتان مخروطيتان تبرزان من بين الرمال ، وتكونان معلماً بارزاً للمسافرين في طريقهم إلى (جُبَّة). وشعرنا بفرح كبير أن نراهما ، لأننا كنا بدأنا نشك في فطنة دليلنا بسبب الخط المتعرج الذي اتبعناه ، والآن عرفنا أن أسوأ ما هناك قد انتهى ، وأننا ، إذا احتجنا نستطيع أن نجد طريقنا عبر النصف الآخر من (النفود) مع بعض الأمل على الأقل في النجاح .

(١) كنا ترجمناها حسب الحروف الافرنجية (عالم) فكتب الينا الأخ محمد بن عمر الشمري من أهل (جبّة) وممن سافر في النفود مراراً وهو يعرف الموضع ، كتب بأن الصواب (العُلَيْم) فله الشكر .

تركنا جمالنا لتتبعنا وانطلقنا راكبين نحو التلال ، ومع ذلك فقد قضينا عدة ساعات لنصلها ، إلا أننا كنا في الساعة الثالثة (بعد الظهر) نلمس الصخور بأيدينا لنحسّ أنها كانت حقيقية . كان الأمر كما لو كنا قد فقـــدنا في البحر ووجدنا جزيرة صحراوية .

كان لدينا بعض الوقت لننتظر ، بينما تكد القافلة لتلحق بنا . بقيت مع المهرين أرقب ، بينما صعد (ولفرد) الى قمة الصخرة الصغرى . وصاح متعجباً : (يا له من مكان يقبر المرء فيه ، ان جبل (نيبو) كان لا بد أنه كان مثل هذا)!! . إلا ان الذين يموتون في (النفود) قلّ أن يكـــون لديهم أحد ليقبرهم .

فراشة تستحم بالشمس !

وبينما كان يتسلق حول كومة من الأحجار غير المثبتة قرب قمة التل وجد ما بعث فيه السرور : فراشة مزركشة تستحم في نور الشمس في نقطة ساترة وإذا كان ، كما هو محتمل ، ليس هناك نبات ملائم لهذه الفراشة في طورها الاول أقرب من (حربون) ، فلا بد ان هذه الحشرة الصغيرة قد سافرت على الاقل اربعمائة ميل . انها هنا بدت سعيـدة في الشمس . وهذه الصخرة الصغرى ، أو هذا التل الصخري ، كان ارتفاعه مائة قدم فوق مستوى السهل وينبثق منه (أي من السهل)

رأسياً مجرداً وعـــاريا كما تفعل صخرة في البحر . وسجل (البارومتر) عند القمة ٣٢٢٠ قدماً . و (العُلَيم) الأطول ربما كان ثلاثة أضعاف ارتفاعه .

شيخ (النفود) !

ويقول راضي ان (العليم) هو شيخ (النفود)والتل الاصغر هو ابنه . وعلى مسافة بعض أميال الى الشمال الشرقي ، توجد مجموعة من التلال الرملية البيضاء (حريم العليم) . ان صخور (العليم) من الحجر الرملي سوداء بفعل التَحَات ، وليست (جرانيت) كما أملنا ، وهذا بدون شك هو المـــادة التي تكونت منها ، على مر السنين ، كثبان من الرمال الحمراء . انها ليست من الصخر الصلد،ولكنها تشبه كومة من الأحجار. وكان على قمة التل الذي صعده (ولفرد) صورة مـــع بقايا بعض حروف قديمة محفورة على الصخور،من نفس نوع تلك التي ترى في(سينا) أو على الأصح في وادي (مقطب) .

كان المنظر ، طبقاً لتقرير (ولفرد) ، مدهشاً ، إلا أنه مستحيل أن ترسمه أو حتى أن تحاول رسمه . الملامح العامة للنفود هنا يمكن أن ترى منشورة كما لو كانت على (خارطة) ، وتناسق المحيط الرملي معرقاً بالخطوط الطويلة لأفلاجه ،و(عليم) نفسه يرتفع في وسطها كصخرة منبثقة من بحر معرق بالزبد .

قارورة من رمل (النفود)

نحن الآن مخيمون على بعد حوالي ميلين وراء (العليم) لقد ملأت قارورة بالرمل لاصنع منه ساعة زجاجية في الوطن .

(الارطى) و (الغضا)

١٧ يناير (١٨٧٩ م)

صقيع أبيض ، حزم البعض منه مع الخيام وحمل معنا كل اليوم .

انه لغريب أن تغير النبات الآن بعد أن عبرنا (العُلَيم).. فحتى تلك النقطة كان الغضا يفرق ما عداه ، ولم أكن بقادرة على التصديق أنـه سيختفي هكذا فجأة ، ومع ذلك فالأمر كذلك .

أما الآن فلا يمكن أن ترى أي أثر للغضا ، وحلّ محله نبات الأرطـى الذي كان نادراً من قبل . ويبدو مستحيلاً أن تجد سبباً لهذا ، من حيث أنه لا يوجد تغير مادي في مستوى الارتفاع ، ولا تغير في خصائص التربة على الاطلاق .

كانت الأجمات التي خيمنا عندها البارحة هي الأخيرة تماماً باتجاه الجنوب . اننا آسفون على أن نفقدها ، لأن الغضا هو

أرفع أنواع الحطب في العالم. ان الفحم الذي هنا وهناك حيث وجدت نيران مخيمات ، هو أرفع من أرفع أنواع الفحم الذي يستعمل في الرسم .

أما الأرطى فهو من نوع أوطأ . ومن جهة أخرى يوجد حشيش أكثر من اجل الابل يسمى (النَّصِيّ) ، كما يوجد الـ (حمار؟) وهو نبات شوكي ضارب إلى الزرقة، الخيل مولعة به كثيراً، في حين أن (العاذر) وهو عشب ذو أوراق خضراء قاسية وأزهـــار صفراء بنية ، لا يزال هو النبات الأكثر شيوعاً .

حديث عن رفاق الرحلة :

جف الرمل مرة اخرى منذ الأمس ، وكلما صار النهار أدفأ ، أصبح ثقيلا على الجمال . ان الجهد في الدبيب خــلال سطح تسوخ فوقه الخـُطا بدأ يتعبها ، وقد مشى اليوم معظم الرجال ، وضرب محمد المثل لهم . كل واحد كان منشرحاً ، بالرغم من المشاق، وكلهم أظهر قوة عجيبة في العدو، وممارسة اللهو واللعب في الرمال . وكان (ولفرد) ، وعنده مران طيب ، غير قادر تماماً على مجاراتهم . أما أنا فقد كانت حالتي بنسبة أسوأ كما يمكن أن يتصور ، من حيث أني كنت مـا زلت أعرج ، وعلى أية حال ، فكلانا أحس بأنه ملتزم بأن يحاول ويسير في فترات من أجل مهرينا .

وبرهن اليوم ابراهيم الطويل (تمييزاً له عن ابراهيم القصير) الذي كان حتى الآن اضحوكة الجماعة، على منتهى رباطة الجأش عندما كان يُرسَل إلى أعماق الافلاج سخرية به، ليجلب ماء، أو الى قمم التلال الرملية لينظر إلى جبال متخيلة . وهو – ولو أنه مسيحي – ندٌ لأي مسلم في جماعتنا ، ويعطى بقدر ما يأخذ في الالعاب العنيفة ، التي ينغمس فيها العرب ليحتفظوا بمعنوياتهم .

وفي احدى اللحظات أمسك بعمود خيمة الخدم واتخذها سلاحاً يلعب به بينهم إلى الحـــد الذي ظننت أن عظاماً ستتحطم .

وعبدالله – أيضاً – عندما يكون هناك مكان معين لا بد من صعوده ويبدو الآخرون منهكين – غالبا ما يجري ويقف على رأسه حتى يصعدوا . ونحن نشجع هذا الانبساط لأنه يجعل العمل أخف .

وآخر عن المطايا !

ان ماءنا يتناقص نوعاً ما ، لأنه كان علينـــا ان نقسم بين المهرين قربة كل يوم ، ولكن هذا يخفف الاحمال . راحلتان بدأتا تهنان ، ذلول حنا ، التي نادراً مـــا عوملت بعدل ، من حيث أنـــه هو وابراهيم كانا باستمرار يتبادلان مكانهما على ظهرها ، فتكرار اناخة جمل وانهاضه ، يتعبه أكثر من أي

ل. وبالمثل كان البعير الجميل الذي اشتريناه في (المزاريب). فهذا بالرغم من مظاهره الحسنة ، يبدو واهنـــا . فرجلاه طويلتان ضعيفتان ، وعنقه قصير ضعيف ، علامتان سيئتان تدلان على عدم الاحتمال ، ثم انه في الثالثة من عمره فقط ، ولم يكتسب بعد حدة المزاج على الاقـل هكذا يقول عبدالله ان اي جمل لا يمكن الاعتماد عليه قط حتى يكتسب هــــذا الخلق . والجمل القبيح ، أيضاً ، الذي يسمونه (شنوان) يبدو مكروباً . لقد أصابه الجرب بالتأكيد ، وليتنا أصررنا على هذه النقطة حينما ارتبنا في الجمال في (دمشق) ، غير أن الاوان قد فات الآن . أما البقية فلا زالت على خير ما يرام، على الرغم من الرحلة الطويلة وغيـــاب الكلأ الاخضر الذي تحتاجه في هذا الوقت من السنة ، لم يظهر بعد أي شيأخضر، باستثناء نبات صغير ذي زهرة ارجوانية شرعت تعلو برأسها فوق الرمل . اما الحشيش الاخضر فلا شيء منه ، ومحصول العام الماضي يقف أبيض ، ذابلاً دون علامة للحياة .

الابل، وأثمانها.

قابلنا اليوم رجلاً من (الرولة) وحيداً مع اثنتي عشرة ناقة ما بين حولية وذات سنتين ، اشتراها من شمر .

وكان يسوقها متجها إلى موطنه . لقد دفع بين ٢٥ — ٣٥ مجيديا في الواحدة منها، ولكنها كانت حيوانات ضامرة هزيلة.

ان إبل نجد تكاد تكون كلها سوداء ، ومن درجة أقل بكثير في الحجم والقوة من إبل الشمال .

ولما صادفنا الرجل افترضنا في البداية أنه ربما كان عدوا ، لأن أي انسان هنا يحتمل ان يكون كذلك ، واندفع عواد رابط الجاش نحوه ببندقيته ، فأطار عنه صوابه وأحضره في صوت مرتعب ليقدم تقريرا عن نفسه . كان لا ضرر منه على الاطلاق ، أعزل من السلاح، وقد قضي ثلاث ليال في (النفود) وحيداً كان معه قربة من الماء وجراب من التمر ، وكان ذاهبا إلى (شقيق) في طريق موحش وحيد .

في الساعة الثالثة والنصف (بعد الظهر) (مستوى ٣٠٤٠ قدما) وقع بصرنا على تلال (جبة) ، ومن نفس النقطة استطعنا تماما أن نرى (العُلَيْم) كانت مناسبة طيبة لتصحيح تخميننا ، وهكذ أخذنا الاتجاهات بدقة بالبوصلة ، وعلمنا أن طريقنا بالضبط في اتجاه الجنوب - بشرق .

بدأوا « يصلون » !

واليوم بدأ المسلمون منا يؤدون صلواتهم ، لأول مرة ، أثناء الرحلة . إن جلال النفود ، أو ربما الشك في الوصول إلى جبة ، ربما يكون جعلهم جادّين ، أو رُبما الأمر مجرد أنهم يريدون أن يتمرنوا من أجل نجد ، حيث تسود الوهابية،

وحيث الصلاة أمر محبوب مرغوب – أيا كان السبب ، فمحمد على قمة الكثيب يركع ويسجد مستقبلا مكة بمظهر كبير للجد والاهتمام ، وعواد يتلو صلوات بطريقة أكثر تأثيراً ، يرفع صوته تقريباً إلى حد الانشاد .

أثناء الحديث حول نار المخيم ، يخبرنا راضي أن النفود يمتد مسافة ١٢ رحلة يوما إلى الشرق من حيث نحن الآن ، و ١١ يوما إلى الغرب ، وعلى طرف الجانب الغربي تقع (تيماء) ، واحــة كالجوف ، حيث توجد بئر عجيبة ، أحسن بئر في جزيرة العرب .

خطر العواصف الرملية :

سألناه عن العواصف الرملية ، وعما إذا كانت قد دفنت قوافل .. فقال : انها لم تفعل . ان الرمل لا يدفن قط أي شيء دفنا عميقا ، كما نستطيع أن ندرك من العصى والعظام وبعر الإبل التي تبقى دائماً على السطح . إن الخطر الوحيد على القوافل هو ان العاصفة تستمر طويلا إلى حد أن تنفد مؤنها لانها لا تستطيع السفر عندما تكون شديدة .

أما عن السموم ، أو الريح السامة التي يتحدث عنهـا المسافرون ، فهو لم يسمع أبداً . مع أنه قــد ظل يسافر في النفود جيئة وذهابا لمدة أربعين عاماً .

أما عبدالله فيقول : إنه سمع عنها في (تدمر) ، كشيء يتكرر حدوثه . الا أن أحداً منهم لم يمر في تجربة معها .

ليلة هادئة .. ولكنه يوم شاق

١٨ يناير (١٨٧٩ م)

ليلة هادئة مع ضباب خفيف ، صقيع أبيض في الصباح .

يبدو ان كشافاً أو جاسوساً من شمر كان حول مخيمنا في الليل . لقد رآنا بعد الظهر ، ولقد زحف في الظلام ليكتشف من كنا . ظن في البداية أننا غزو ، إلا أنه عرف بعد ذلك صوت راضي ، وعلم اننا مسافرون في طريقنا الى ابن رشيد . جاء الينا في الصباح وأخبرنا هذا ، وأنه خرج في حملة كشفية للبحث عن الكلأ في (النفود) . بدا نوعاً ما خائفاً وحريصاً على أن يرضينا ، وأكد لنا مراراً وتكراراً أن محمد بن رشيد سيبتهج برؤيتنا .

كان يوماً آخر شاقاً بالنسبة للجمال . انهار (شنوان) ولم يستطع أن ينهض بعبء حمله ، وكان على حنا ، مثل سائر الرجال ، أن يمشي لأن ذلوله تسلم نفسها للتعب .. يبدو ان الرمل يصير أعمق فأعمق ، ومع أننا قد سرنا من الصباح حتى الغسق ، فما زلنا على بعد ١٠ أو ١٥ ميلاً من (جبة) لولا التلال التي نراها أمامنا كل مرة نصعد قمة أية موجة ، لما كان هناك أمل من جهدنا . كل واحد جاد هذه الليلة .

اضطرار الى السير .. رأفة بالجمال !

١٩ يناير (١٨٧٩ م)

نوم مريع بالنسبة للجمال والرجال . فقد رفض كل من ذلول حنا ، و (شنوان) ، والبعير الطويل الذي يسمونه (عمود) ، رفضت عليقها البارحة ، لأنها كانت في درجة من العطش لا تستطيع معها أن تأكل ، وهي اليوم لم تستطع أن تتحمل أي شيء .. و (شكران) أيضاً ، الذي كان حتى الآن من أحسن مشاتنا سار في المؤخرة ، ولم تزد سرعة سير القافلة إلا قليلاً عن ميل في الساعة . ولولا القوة غير العادية لـ (حذيران ؟) الجمل العملاق الذي يقود الموكب ، والذي تراكمت عليه معظم الاحمال الاضافية ، لكان علينا أن نستغني عن كثير من ممتلكاتنا . حقاً ، ففي لحظة واحدة بدا كما كنا سنبقى جميعاً في النفود ، مضيفين فصلاً جديداً لفصول الرعب التي حكاها راضي الشيخ .

والآن ، وقد هربنا من مصير كهذا ووصلنا (جبة) نستطيع أن نرى كم كنا محظوظين .. ولولا الطقس الكامل للسفر طول عبورنا (للنفود) والحظ غير العادي لتلك العاصفة لما كنا الآن في (جبة) .. ان الرمل بالنسبة لجمال متعب مثل السجن ، وفي الرمل كنا سنبقى .

لقد سلك محمد وعبد الله وكل الباقين سلوك الأبطال ، حتى حنا الشيخ ، بضفائره البيضاء الزائغة المتدلية من تحت كوفيته (غترة) ، لأنه قد اختلط سواد شعره بالبياض أثناء الرحلة . وقدماه حافيتان ، لأنه كان مستحيلاً أن يسير بالحذاء .. (حَنّا) بحالته هذه ظل يدب بشجاعة ورباطة جأش كأقوى قوي في الجماعة .

كنا (ولفرد) وأنا ، الوحيدين اللذين ركبا في كل حال ، باستثناء (حنا) الذي أرغمه (ولفرد) على ركوب مهره بين وقت وآخر ، وكنا أكأب الجماعة. أحسسنا بالضيق لعدم مقدرتنا على أن نسير على أقدامنا مع الآخرين ، ولو أننا سرنا بين وقت وآخر , أو على الأصح ، خضنا في الرمل ، حتى أجبرنا على أن نركب من جديد لافتقارنا إلى التنفس والقوة . أي منا لم يكن ليستطيع أن يواصل المسير على الأقدام ، غير أن الاوربي ليس نداً حتى لعربي من المدينة في مسألة السير .

اليوم كان (خلْ) – طريق – (أبو زيد) يمكن اقتفاؤه بشكل مميز ، ونبدأ نفكر في أن الأمر قد لا يكون بأجمعه خيالا (رومانس) . ان هناك أخاديد منتظمة في بعض الأماكن ، وان « الخل » (الطريق) كثيراً ما يكون واضح الأثر وضوحاً حسناً لمسافة نصف ميل كامل .

ويؤكد لنا راضي أنه يوجد طريق مبني بالصخور تحت

الرمل ، صخور أحضرت من جبل (شمّر) ، وأخشى أن أقول ، بتكاليف وأية تكاليف من الجمال والرجال الذين ماتوا في العمل .

لاحظت اليوم صقراً وصرداً أغبر .

وثعلبَان قد مرا على طول الطريق : كما يستطيع المرء أن يرى من آثار أقدامها والخدوش على الرمل .

معالم واحة «جبة» بدأت :

ان مستوى النفود كان يرتفع طول اليوم ، وفي الساعة الواحدة (بعد الظهر) كنا على مستوى ٣٣٠٠ قدم فوق سطح البحر .

من هذه النقطة اتسع المنظر أمامنا في اتجاه الجنوب ، رمل ، ما زال كل ما هنالك رمل لأميال كثيرة ، كثيرة ، إلا أن أمامنا على بعد قريب مجموعة من الجزر قد طال اتجاهنا نحوها ، تلك هي صخور جبة . لم يكن أقربها على بعد ميلين. لم نكن نستطيع أن نرى أي شيء من الواحة ، لأنها كانت على الجانب الآخر من التلال ، ولكننا استطعنا أن نميز فضاء واسعاً خالياً من الرمال، بدا كالسبخة ، وما وراء هذا مجموعة من الصخور على مسافة أقصى ذات تخطيط بالغ الروعة وهي تنبثق مرتفعة من الرمال .

وهذه تلال نجد !!

كان المنظر يشبه منظر نهر جليدي كبير في (الألب) . وكما وراء هذا مرة اخرى ، امتد خط أزرق شاحب من التـــلال . (جبل شمر .. تلك هي تلال نجد) . هكذا قال راضي .

كان ذلك هو ما قطعنا الابعاد الشاسعة من أجل ان نراه .

اسرعنا الآن لنصل الى الصخور ، وبلغناهـــا في الساعة الثالثة والنصف (بعد الظهر) كانت لها نفس الخصائص التي لـ « العليم » ، الحجر الصلد والرملي .

هنـــاك رسم (ولفرد) خارطة ، وصنعت أنا رسماً تخطيطياً .

وانتظرنا حتى أتت الجمال ، خلناها قطاراً كئيباً لما نظرنا اليها من قمة تلنا الصخري وهي تمر أسفل منا .

ونبي في الجمال . ورجل جراد ؟

كان (شنوان) و (عمود) يسيران في عناء وليس عليهما غير الشداد) فقط .

وكانت الذلول السوداء المسكينة ، وهي مجردة تمـــاماً ولا

تكاد تقوى على المشي ، متخلفة بخمسين ياردة ، يحثها عبدالله على السير .

كان ما زال أمامنا بضعة اميال نسيرها حتى نصل (الجبة) ، ولكن على ارض أكثر صلابة مع انحدار التل .

واقترح محمد ان نسبق نحن الثلاثة ، ونهيء مكانا للجمال في القرية .

وفي طريقنا رأينا ما حسبناه سحابا من الدخان يسير من الغرب الى الشرق ، ومرت مؤخرته فوقنا . وجدنا انه كان سرباً من الجراد في الطور الأحمر من حياته ، وهو ما يفضله القوم هنا الأكل ، ولم نهتم بالتوقف الآن لنجمع منه ، واندفعنا في سيرنا .

الوصول الى (جبة) !

كان الوقت عند الغروب تقريباً حينما رأينا - لأول مرة - (جُبَّة) نفسها ، أسفل منا في طرف جبة السبخة ، بنخيلها ذات الخضرة الغامقة تشق البحيرة الجافة ذات الزرقة الشاحبة ، وما وراء ذلك مجموعة من الصخور تبرز من (النفود) الوردي اللون ، وفي صدر الصورة كان رمل أصفر يتوّجه العاذر .

بدا المنظر بأكمله مزخرفاً بأضواء المساء ، وجميلاً جمالا يفوق الوصف .

القسم الرابع

من «جُبَّة» الى «حائل»

(هذا هو الفصل التاسع من مشاهدات الكاتبة وانطباعاتها، عن ربوع «نجد» وعن حياة أهلها في ذلك الوقت .

وفيه تقدم الكاتبة تقريراً إضافياً عن بعض الحوادث التاريخية عن الحكم الرشيدي ، كما سمعتها من أفواه الرواة في ذلك العهد) .

(جبة) القرية الجميلة الغريبة !

جبة : من أغرب الاماكن في العالم ، ومن أجملها، كما اعتقد واسمها ، وهو يعني بئرا ، يشرح موقعها، فهي تقع في تجويف أو بئر في النفود ، ليس في الواقع فلجا ، لأن حوض جبة ذو مقاس مختلف تماماً ، ولا يشبه في شيء الانخفاضات التي تأخذ شكل حافر الحصان ، التي سبق لي ان شرحتها . وهو ـ على حد سواء ـ فريد للغاية ، ومن الصعب تعليله من الناحيــــة الجيولوجية كما هو الامر بالنسبة للافلاج (جمع فلج) . وهو فضاء عاري في محيط من الرمال ، وعلى انخفاض ٤٠٠ أو ٥٠٠ قدم تحت معدل المستوى ، ويبلغ عرضه ثلاثة اميال تقريبــاً وهو في الواقع غور ، لا يختلف عن غور الجوف ، الا ان النفود من حواليه بدلا من مرتفعات الصخور الرملية .

وهناك من الدلائل ما يشير الى انه كان بحيرة ، فهنــاك علامات مائية واضحة على الصخور التي برزت من قراره فوق

المدينة مباشرة وغريب ان نقول : ان هناك حديثاً مـا زال باقياً يقول: ان الماء وجد هناك فيما مضى. والعجيب هو كيف بقي هذا الفراغ خالياً من الرمل . أية قوة تلك التي تضـــع سوراً دون النفود وتمنع اكتساحه ؟ وعندما تنظر عبرالسبخة ـ او قرار البحيرة الجاف ـ يبدو النفود كسور من المـاء من المحتم ان يغرقها، ومع ذلك فلا تنتقل الرمال الى الغور،وتبقى حدودها مضبوطة بدقة .

وصف البلدة وسط بنيانها :

والمدينة نفسها (او القرية ، لان فيها ٨٠ بيتاً فقط)مبنية على طرف السبخة ، ٢٨٦٠ قدما فوق سطح البحر ، وفيهـا بساتين النخيل ، من نفس النوع الذى رأيناه في الجوف ، انما على نطاق صغير جداً . والابار التي تسقي هذه منها هي على عمق ٧٥ قدماً ، وتمتح منها المياه ، كما هو الحال في كل الابار في بلاد العرب، بواسطة الجمال. والقرية بهيجة جداً، بأسوارها ذات المشارف (المتاريس) وبساتينها . وعلى المدخـل تقف ست شجرات أثل قديمة جميلة ، ذات جذوع ملتوية واغصان ريشية . ومن فوقها تنتصب الصخور عظيمة كالابراج ، وهي من الصخر الرملي بلون ارجواني ، ذي خطوط وجذوعصفراء ووجه علوي أسود. وارتفاعها بين ٧٠٠ و٨٠٠ قدم.وقواعدها مخططة بعلامات مائية قديمة . ووجد (ولفرد) عليها عدداً

من النقوش بالحروف (السينائية) وتكتنف (جبة) هذه التلال ، وشريط من الرمل الاصفر .

ولنكتف بهذا عن الوجه الخارجي لجبة أما داخلها فأقل جاذبية فالمنازل فقيرة ، والعناية بأناقتها أقل منها في (كاف) و (أثري) . ويصعب ان اصفها بالقذارة ، لأن القذارة في هذا الاقليم الرملي تكاد تكون مستحيلة . إنها احدى مباهج النفود ، ان الحشرات المؤذية غير موجودة في انحائها .

خلو نجد من الحشرات المؤذية

فالنفود ، ونجد — حقاً — الواقع خلف النفود ، خاليان من هذه المخلوقات التي تجعل من الحياة عذابا في أقاليم أخرى من الشرق . حتى البراغيث التي كانت على كلبنا السلوقي ماتت بمجرد دخولها في دائرة الرمال الحمراء الساحرة . غير ان (جبة) سوف تكون قذرة لو استطاعت .

سكان البلدة وأخلاقهم

وسكانها أقل تهذيبا من كل العرب الذين رأينا في نجد . والواقع ان الناس فقراء جداً وليس لهم أي اتصال بالعالم الخارجي ، الا عندما يتوقف المسافرون ، وهم نادرون ، بين

حائل والجوف ليلة بينهم . وعند مرورنا بجبة كان الشيخ قد مات مؤخراً ، وحل محله شاب ، لم تكن له أية سلطة على أقرانه الشبان ، وهم مجموعة كثيرة الصخب (قليلة الجدوى). وليس لابن رشيد ممثل خاص في (جبة) ، ولم يكن يسند الشيخ الفتى (نايف) أي ممثل للحكومة المركزية ، حتى شرطي واحد .

في ضيافة امير (جبة) :

وكانت النتيجة أنه رغم ضيافة نايف لنا بكرم بالغ ، الا ان اصدقاءه ازعجونا كثيرا وجعلونا نشعر بعدم ارتياح غير قليل . وأورد هذا كمثل فريد لعدم المدنية في بلد ، الأدب فيه هو القاعدة في الغالب الأعم .

لا يحتاج أسلوب ضيافتنا في بيت نائف إلى ذكر خاص ، من حيث أنه لايختلف بأية حال عما لقيناه في أي مكان آخر. كان هناك كثير من القهوة ، وحديث كثير . ففي أي مكان من بلاد العرب ، ما على المرء الا ان يدخل أي بيت يرغب . ويكون واثقا من أنه سيرحب به فيه . فحجر القهوة تظل مفتوحة طيلة اليوم ، ووصول ضيف اشارة لهذين الشكلين من اشكال (التسامح) اللذين لا يعرف العرب سواهما ، القهوة والحديث ، والنار موقدة دائماً ، وفناجين القهوة تدار في

الحال . حادثة نادرة واحدة أثناء مقامنا في (جبة) جديرة على اية حال ، بالذكر .

قلق (محمد) الدليل واسبابه :

فقبل أيام من وصولنا هناك ، بدا على محمد انزعاج كبير كلما برزت مشكلة ، مقابلة عرب في الطريق ، أو التعرف على أناس ، وهو الذي كان لا يبالي عادة بأخطار الطريق . لقد صرفنا عن النظر حولنا بحثاً عن الخيام أكثر من مرة ، وعندما قابلنا الرجل الوحيد مع الجمال والرجل الذي سميناه جاسوساً أجاب إجابات قصيرة على استفساراتهما عن من نحن ؟ وعن الجهة التي نقصدها . ولم يبد أي إيضاح لسبب قلقه حتى مساء وصولنا إلى (جبة) . وعندئذ اتضح أن (راضي) ذكر أثناء الحديث اسم شيخ ما ، من شمر (ابي رمال) وقال انه يعيش في تلك الجهات ، وتذكر محمد أن شيخاً بذلك الاسم غزا (تدمر) منذ سنين كثيرة . دار قتال وقتل رجل أو اثنان من شمر ، وكان هذا كافياً ليسبب احتمالاً كبيراً ان الثأر بين عائلته وآل (ابي الرمال) لم يسو بعد ومن أجل ذلك توسل إلينا الا نذكر اسمه في (جبة) إذ أنه هو وعبد الله من اهل تدمر . وصار السبب أقوى لأنه اكتشف ان (نايف) مضيفنا ، كان نفسه قريباً لآل أبي الرمال ، وكان من حسن الحظ ان (تدمر) لم يذكرها أحد بعد اثناء الحديث . وفي

المساء جاء إلينا وهو متألّق جداً ، ليخبرنا بأنه لم يعد هناك أية حاجة لنظل تحت توقع الشر . فقد استطاع بعبقرية أن يجر الحديث مع نائف إلى الموضوع الذي شغله ، وعلم أن الثأر قد اعتبر منتهياً . فمحمد بن رشيد كان ، قبل أن يصير شيخاً لشمر ، أميراً للحج أيام أخيه طلال ؛ وهو مركز يخلع على صاحبه شرفاً ويدر له ربحاً ، وبصفته تلك تعرف على كثير من أهل تدمر في الأماكن المقدسة ، وعندما فاز بشياخة شمر كان قد ألف بينهم وبين قومه . فهو اما قد دفع الدية بنفسه أو ضغط على أبي الرمال ليتنازل عن الانتقام ، وأعلن أن الثأر قد انتهى. وأياً كان السبب الذي جعل الأمير يسعى لاقرار هذا السلم ، فقد كانت من ملابسات الحظ بالنسبة لنا ، ومحمد ونائف الآن من أحسن الأصدقاء .

وفي صباح مغادرتنا جبة (مكثنا هناك ليلتين) ، قص نائف على محمد ، وهو يودعه ، حلماً غريباً رآه تلك الليلة ، قال. انه ذهب لينام وهو يفكر في الثأر القديم، وفي نومه ظن انه سمع صوتاً يعيره أنه أهمل واجبه في الانتقام من الرجل الذي كان ضيفه ، ووقع تحت هم كبير للتعارض بين واجب الانتقام وواجب الضيافة ، ولذا نهض من نومه يتحسس بحثاً عن سيف ، ووجد نفسه يفعل هذا عندما استيقظ . ثم تذكر أن الثأر قد انتهى، وقال : الحمد لله!.وذهب لينام من جديد. وقال لمحمد في نهاية القصة : أي شيء فظيع كان سيقع ، لو

أجبرت على قتلك ، انت ، ضيفي !. وزعم محمد لنا أنه حق إذا لم يكن الثأر قد سوى ، فان (نائف) ما كان ليفعل أي شيء ضده، بعد أن أكل وشرب معه في بيته. وعلى الأقل، هكذا ستكون القاعدة في (تدمر) ، ولو ان الأخلاق في نجد قد تكون أكثر صرامة .

مكثنا ، كما قلت ، ليلتين فقط مع (نائف) .

اطفال غير مؤدبين

وكان شباب القرية فضوليين ومزعجين ، وكنا مجبرين على أن نثير ذلك مضيفنا وهو أمر غير مستحب، ولكنه ضروري في بعض الأحيان . وأستطيع أن أقول أنهم لم يقصدوا ضرراً ولكن طباعهم كانت سيئة ، وكان في نغمتهم شيء ما عدواني تقريباً عن (النصراني) وكان من الملائم أن يكبح .

ويسرني أن أقول ان هذه هي المرة الوحيدة التي رأينا فيها إشارة الى الدين غير سارة في بلاد العرب. فالعرب بطبيعتهم متسامحون الى اخر درجة في هذه النقطة ، والتعصب القومي أو الديني نادر للغاية .

تصرف بسبب القلق !

وعلى أيّة حال فقد جعلتنا هذه القصة الصغيرة قلقين نوعاً

ما على استقبالنا المحتمل في حائل . فلم يتوغل اوروبي واحد ولا مسيحي من أي جنس قبلنا كما توغلنا في جبل شمر ، وكل ما عرفناه عن النـــاس والبلاد كان استحضاراً لتقرير المستر (بلجريف)عن زيارته تلك البقاع متخفياً منذ ستة عشر عاماً. وعلى اساس ما عرفنا ، فابن رشيد قد يكون ميله الينا بنفس الدرجة من السوء التي كان عليها ميل هؤلاء (الجبيين) وكان الواضح أننا بدون رضاه وحمايته ، نخاطر مخاطرة عظيمة في دخول حائل . كنا قد عبرنا الصحراء الحمراء ، ولم يكن الرجوع ممكناً . وكان لا يمكن ان نفعل أي شيء سوى ان نضفي وجهاً جميلاً على الاشياء ونتقدم في طريقنا .

من تاريخ (آل رشيد)

استجوبنا (راضي) عن طبيعة الاحوال في حائل ، وقد اضع هنا كل المعلوماتالتي اعطانا اياها كما ثبتها وجسمها الرواة المتعاقبون . لقد استقينا الحقائق الاساسية منه .

أكد (راضي) ، بالدرجة الاولى ، في عبارات عـــامة التقارير التي كنا قد سمعناها عن تاريخ عائلة ابن رشيد

(عبد الله) المؤســس الاول

فعبدالله ابن رشيد ، وكان مجرد (زلمه) في ذلكالوقت،

من فخذ عبدة من قبيلة شمر ، خـدم مع آل سعود اصحاب أعالي نجد ، وعينه الامير الوهابي نائباً في جبل شمر ، وكان محارباً عظيماً . واخضع كل البلاد للنظام بمساعدة اخيه عبيد البطل الرئيسي في ترات شمر .

(عبيد) الرشيد

لم نسمع شيئاً عن عبيد يؤكد قصص الشر التي ذكرهـــا (بالجريف)[1] . وبالعكس لقد ترك سمعة عظيمة بين العرب ،

(١) مما ذكر بلجريف عن (عبيد الرشيد) :

[بدأنا نقول له – لزامل أمين الخزينة عند الأمير طلال – اننا نرغب في مقابلة « طلال » لنطلعه على أمور ذات أهمية بالغة . وبعد أن أشعرناه بعض الشيء بسرنا ، اطلعناه على الحقيقة الكاملة ، وسألناه رأيه في الاقتراحات التي كنا مزمعين أن نقدمها للملك (طلال ابن رشيد) . فعين لنا موعداً للمقابلة ، وادخلنا عند الفجر من باب سري إلى غرفة منعزلة ، يقوم بحراستها عبيد سود ، ويقف بعيداً عنها حراس مسلحون ، لا تصلهم أصوات المتكلمين فيها ، فألفينا طلال مستعداً للاستماع الي .

وقد شرحت له باختصار أسباب رحلتي ، واطلعته على المكان الذي أتينا منه ، والأمل الذي حدا بنا للمجيء ، إلى بلاد العرب ، وما ننتظره من حسن التفاته .

وتلت ذلك محادثة استغرقت ساعة كاملة . واختتم طلال الحديث مصراً على التكتم المطلق قائلاً : « إذا ما عرف الأمر الذي تباحثنا فيــه الآن ، أصبحت حياتكم وحياتي في خطر » .

وتتألف لمة القصة من حادث عرضي سببه عبيد عم طلال المكار الذي كان يتظاهر بالمودة واللطف ، والذي نزع عن وجه القناع ذات يوم ليظهر وجهه الرهيب :

←

لكرمه ومروءته ، وشهامته ، وهي الفضائل الثلاث الرئيسية في معتقد العرب .

← «أرسل عبيد بطلبي ذات صباح، لأقوم بفحص خادم له مصاب بمرض، فتوجهت إلى قصره ، فما عتم أن كشف عن حقيقة نياته، بعد محادثة قصيرة ، وقد تغلب غيظه على ريائه،وحل الحقد والغضب محل وداعته وكلامه المعسول، وأخذ يكيل الاتهامات للمجددين والنصارى ، الذين يريدون أن يدنسوا طهارة الاسلام ، ثم التفت نحونا وقال :

« كونا من تكونان ! ولكن اعلما هذا ! إذا ما ارتضى ابن أخي ، وشبه الجزيرة العربية كلها ، الخروج عن الاسلام ، سأظل أنا بمفردي مدافعاً عن معتقدات أسلافنا » .

ثم شعر عبيد أنه بالغ في غضبه فعاد إلى لهجته اللطيفة وحديثه الودي ، كأن الشك لم يتسرب قط إلى نفسه ، ولكننا كنا قد رأينا منه الكفاية ، فقطعنا معه علاقاتنا كلياً .

أرسل طلال عمه عبيداً في مهمة حربية ، ومع ذلك فقد تلطف هذا الأخير باعطاء بلغريف كتاب توصية إلى ولي العهد السعودي في الرياض . وبما ان الخوف تغلب على أصول اللياقـــة ، في قلب (بلغريف)الحذر ، فقد فتح الكتاب ، فوجد ان عبيداً قد نعته بنعت يمكن فهمه على وجهين ، ولكن يغلب معنى الساحر فيه على الطبيب ، والسحر في الرياض يعاقب عليه بالموت، فعرف أن ذلك الماكر يريد أن يدفع به وبرفيقه الى سيف الجلاد .

عندئذ وصل جواب طلال : بعـــد أن أبعد عبيد أخذ طلال يشعر بالحرية .

فدعينا في السادس من شهر أيلول (سبتمبر) للذهاب الى « خفوة زامل ? » في الساعة الواحدة من بعد الظهر . وقد كان قد أقيم حارس على الباب لابعاد الزوار المزعجين ، ولم تنقض عشر دقائق على دخولنا حتى أقبل « طلال » يخفره حارسان مسلحان تركهما في الفناء . كان عـــادي الثياب ، جدي النظرات، أكثر من العادة، ينم محياه عن انشغال بال شديد. فجلس وصمت←

ولم يكن يوماً ما اميراً بالفعل لجبل شمر ، ولكنه ، بعد موت اخيه ، حكم البلاد في الواقع . وكان هو الذي أشار بتحطيم الجيش التركي في النفود وعاش الى ان طعن في السن . ومات منذ تسع سنوات فقط ، و بعد ان اصابه الشلل من الخصر فما تحت ، بضعة اشهر قبل موته . ويحكى عنه انه لم يترك مالا ، بعد ، بعد ان وهب كل شيء اثنـاء حياته — لم يترك مالا سوى سيفه ، ومهره ، وزوجته الشابة . ترك هؤلاء لابن أخيه محمد ابن رشيد ، الامير الحاكم . مع رجاء ان سيفه يجب ان يبقي مغمداً ، والا يركب مهره ، والا تتزوج ارملته الى الأبد. واحترم ابن رشيد رغبتي عمه الاولى والثانية ، غير انه ضم زوجة عمه الى حريمه .

طلال بن عبد الله

مات عبدالله بن رشيد عام ١٨٤٣ . وخلفه في شياخة شمر

←بعض الوقت ، ولم نشأ أن نفسد ذلك الصمت. وأخيراً رفع نظره ، وحدق في عيني وقال : « لن تسألني في هذه الظروف الحالية ؛ ولن أكون من قلة التبصر في درجة اعطي فيها جواباً ايجابياً رسمياً على مخابرات كمخابراتك . على انني اؤكد لك ، انا طلال ، مؤازرتي وارادتي التي لا تتزعزع . تابع رحلتك الآن ، وعندما تعود ، وآمل ان لا تبطيء في العودة ، سيصبح كلامك قانوناً ، وسيتحقق كل ما تريده . هل أنت راضي ؟ ؟ فقلت له : ان جوابه قد حقق لي رغباتي ، وتصافحنا علامة للتحالف المتبادل » .

(من كتاب اكتشاف جزيرة العرب ص : ٣٠١ / ٣٠٢]

ونيابة حائل ابنه طلال ، الذي اتخذ لنفسه لقب امير . وجعل نفسه مستقلاً تقريباً عن الحكومة الوهابية . ولا يدور هناك كلام كثير عن طلال في حائل الآن. فقد ترك قليلاً من السمعة التي كان المرء يتوقعها من تقرير (بالجريف) عنه .

وفي زمانه فتح اخوه وخليفته متعب الجوف و(اثري)، واسم متعب يتردد ذكره اكثر من اسم طلال . ومنذ اثني عشر سنة اختلت قوى طلال العقلية وانتحر . لقد طعن نفسه بخنجره .

متعب بن عبد الله

وترك خلفه عدة ابناء اكبرهم بندر ، واخوين : متعب ومحمد ، الى جانب عمه عبيد ، وكان شيخاً طاعناً في السن آنذاك ، وعدة أعمام .

وكان بندر في ذلك الوقت غلاماً ، فخلف متعب طلالا بموافقة كل الاسرة وعلى أية حال لم يحكم متعب غيرثلاثةأعوام، وبموته المفاجىء الى حد ما .

بين محمد بن رشيد وبين بندر بن طلال

ثار نزاع بالنسبة لمن يخلفه . فمحمد ، الذي كان يشغل منصب امير الحج لعدد من السنين ، كان بعيداً عن حائل ،

يرتب امراً يتعلق بمنصبه مع ابن سعود في الرياض ، وبندر ، كان في العشرين من عمره ، اعلن أميراً . وعاضدته الأسرة كلها الا محمد وحمود ، اكبر ابناء عبيد ، الذي تربى مع محمد كأخ له ، ولما سمع محمد بهذا ، غضب . وقعـــد – كما اخبرنا راضي – اياماً كثيرة وكوفيته (غترته) على وجهه كما لو كان في حزن ، ورفض ان يتكلم مع أي إنسان. بقي في الرياض، يرفض كل عروض بندر ودعواته حتى اذا مات عبيد ، قبل الرجوع الى الرياض ، واستئناف عمله كأمير للحج . عاد اليه هذا المركز بالكثير من النقود ، وكان مغرماً بالنقود ، الا انه ظل يتآمر من اجل الشياخة ، يدبر الدسائس مع (الشرارات) وغيرهم من البدو الذين تحت حكم بندر . وبهذه الطريقة انتهى الى اشباع طموحه .

كيف استولى محمد على الحكم ؟

حدث ذات يوم او قافلة من (الشرارات) جـــاءت الى حـــائل لشراء تمر ، ووضعت نفسها تحت حماية محمد بدلا من الامير ، أغضب هذا بندراً ، فاستدعى محمدا وسأله عن معنى هذا الصلف : « هل أنت الشيخ أو أنا »؟ ثم امتطى مهره ، وانطلق مهددا بمصادرة جمال (الشرارات) ، فقد كانوا مخيمين تحت أسوار حـــائل . الا ان محمداً تبعه ، وثار نزاع عنيف بينهما فاستل محمد (شبريتـــه) (وهو خنجر معقوف شائع

الاستعمال في نجد) ، وطعن ابن اخيه ، الذي سقط ميتاً في الحال . وعاد محمدمسرعاً الى القلعة ، واستعان بحمود ، الذي وجده هناك ، واستولى على المحل . ثم قبض على ابناء طلال الصغار ، اخوة بندر ، جميعاً ، ما عدا طفلاً واحداً ، نائف ، وبدر ، الذي كان بعيداً عن حائل . وقطع رؤوسهم بأيدي عبيده في بهو القلعة . ويقولون: ان حموداً احتج على هذا. غير ان محمداً إما انه كان طائشاً او انه رغب ان ينشر الرعب ، ولم يكتف بما قد فعل ، بل مضى في تحطيم أقاربه .

كان له بعض ابناء عم،هم ابناء جبر،وهو اخ اصغر لعبدالله وعبيد ، فارسل اليهم . وأتوا الى القلعة منزعجين الى حد ما، ومع كل واحد منهم عبده . كانوا جميعاً شباناً ، جميلي المنظر، وعلى درجة عالية من التميز ، وكان عبيدهم قد ربوا معهم ، كما هي العادة ، فهم كأخوة أكثر منهم كخدم ادخلوا الى مجلس القهوة ، واستقبلوا برسمية بالغة ، من قبل خدم محمد بدعوتهم الى الدخول . والعادة في حائل ان الزائر قبـل ان يجلس ، يجب عليه ان يعلق سيفه على احد الاوتاد الخشبية المثبتة في الحائط، وهذا ما فعله ابناء جبر ، ومثلهم فعل عبيدهم ، ثم جلسوا ، وانتظروا وانتظروا ، ولكن لم تقدم قهوة . واخيراً ظهر محمد محاطاً بحرس . ولم يكن هناك « السلام عليكم » . وفي الحال امر بالقبض على ابناء عمه وتقييدهم ، فاندفعوا نحو سيوفهم ، ولكن عبيد القلعة اعترضوا سبيلهم، واسروهم . ثم امر محمد،

ببربرية فظيعة فظيعة ، بقطع ايديهم وارجلهم ، ثم سحبهم ، وما زالوا احياء ، الى فناء القصر ، حيث طرحوا حتى ماتوا.

قسوة وحشية ، وكرم ، يعقبان أمناً

ويبدو ان هذه الجرائم الشاحبة شحوب الموت (وهي اكثر شحوباً في بلد سفك الدماء المتعمد فيه غير معتاد) — يبدو انها قد نشرت الرعب في طول البلاد وعرضها، ولم يجرؤ اي امرىء منذ ذلك الوقت ان يرفع يداً ضد محمد. ويقال الآن انه نادم على جرائمه ، و « غاضب على نفسه » بسبب ما اقترف . غير ان راضي يرى ان السماء على الأقل غاضبة بالمثل ، فمع ان محمد تزوج مراراً وتكراراً ، فانه لم ينعم عليه بولد ، ولا حتى ببنت ، وعلى أية حال، وبصرف النظر — عن البداية السيئة ، فان حكمه، مع شدته ، قد كان صالحاً. فالاشخاص الآخرون الذين كابدوا الموت ، مع استثناء واحد ، هم قطاع الطرق ، وهؤلاء يغربون الآن عن حائل في نطاق ثلاثمائة ميل. ويمكن للمسافر ان يتجول في أي جزء من الصحراء بأمان واطمئنان ، دون مضايقة ، وكذلك لا يوجد لصوص في المدن ايضاً . وقد جعل جبل شمر مستقلاً بصفة نهائية عن الرياض. وقد قاوم محاولة او اثنتين من قبل الترك لابتلاع امارته . وهو سخي بالنسبة للجميع ويمارس كرماً لا حدود له . ولا يطرد انسان من بابه ، فقيراً كان أم غنياً ، بدون طعام ، ونادراً

بدون هـــدية من الملابس او النقود ، والكرم في بلاد العرب يغطي الكثير من الخطايا . وباضافة الى ذلك ، فالعرب ينسون بسهولة ، ومحمد نصف معفوّ عنه الآن . « الله يطول عمره »! هكذا هتف محمد بعد ان قص علينا هذه التفاصيل .

بندر بن طلال .. يلحق بأخيه !

كان الاستثناء الوحيد الذي المعت اليه هو هذا. بعد عامين من نجاح محمد في الاستيلاء على الشياخة ، بدأت لحية بَدر في النمو – وبدر الابن الثاني لطلال الذي نجا من مذبحة اخوته– وذلك في رأي العرب علامة الرشد ، ولأنـه شاب ذو روح سامية ، ومبادىء عليا ، فقد عزم على الانتقام لموت اخوته ، وكان هذا بوضوح هو واجبه طبقاً لشرع العرب .

وكان وحيداً ، بلا عون سوى بعض عبيد من عبيد أبيه السابقين ، الذين عاد الى بيتهم في حائل سراً،وبمساعدتهم رسم خطة للانقضاض على محمد ذات يوم وكان يزور حمودا ولو كان وجد الامير لجرد سيفه وقتله ، ولكن ، كما حدث ، كان محمد قد خرج الى الحديقة ، ولم يكن حاضراً سوى حمود . سأله حمود عن مراده ، فقال : إنه رغب في الحديث الى الامير . غير ان حمودا شك في شيء ما ، فاحتجزه وحذر الأمـير . وعندما اعتقل بدر وعرف ، استجوب مرة اخري ، وعندئذ

اعترف بنيته في الانتقام لموت اخيه بندر ، وانــه لن يكف عن ذلك .

ويقال ان محمدا توسل اليه ان ينصت الى العقل ، وعرض عليه ان يطلق سراحه ، اذا كان سيقتنع ويترك الامور لشأنها وقال : « لا اريد ان اسفك دماء اخرى ، ولكن عليك ان تعدني ان تغادر حائل » . ولكن الفتى رفض ، واخيراً وفي يأس امر بأعدامه .

أما العبد الذي رافق بــدر فلم يمس بسوء . ولقد صرفه محمد بهدايا ، وهو الان يقيم في راحة في(السماوة)على الفرات.

نائف بن طلال.. ماذا سيكون مصيره؟!

وبعد هذه الحادثة ارسل محمد ، ويبدو أنه احس بالندم من جراء شروره ، ارسل الى نايف وهو البقية من ابناء طلال وكان ما زال صبياً ، ليعيش معه وعامله كابنه . ومنذ سنة فقط بعد أن رأى نمو الصبي نصحه بالزواج عارضاً عليه احدى بنات أخيه ، ومهيئاً له مسكنا . ولكن الصبي – كما يقولون – رفض . وقال : « ماذا ؟ انك ستعاملني كما تعامل خروفا أو جديا ، تسمنه قبل أن تذبحه ! » بكى محمد وتضرع ، وأقسم أنه سيكون كأب لنائف ، ولا يزال يعيش ويعامل مبجلا في في منزل الأمير . والرأي في حائل مستقر على انه بمجرد مــا يرشد نائف ، فإما هو وإما عمه يجب أن يموت . سوف يكون

من واجبه ان يتابع بدرا في محاولته ، واذا لزم الامر أن ينتهي نهايته .

كل هذا ، كما يمكن ان يفترض، كان أي شيء الا ان يكون نبأ سارا بالنسبة لنا ، ونحن في طريقنا الى حائل . شعرنا كما لو كنا متجهين نحو عرين حيوان متوحش .

نسيم (نجد) (وتمر) الجبل . ونار الارطى !

وفي نفس الوقت كان أمامنا ، على أية حال ، أربعة أيام ، أربعة أيام من الراحة ، ومن الهدوء الذي تمنحه الصحراء وحدها ، واتفقنا على التمتع بها حتى النهاية . هناك شيء ما في هواء نجد ، كفيل بأن يبهج حتى إنساناً مُداناً ، وكنا بعيدين عن ان نكون مدانين .

من المستحيل أن تحس حقاً بأنك مغموم ، أو قلق حقا ، مع شمس ساطعة كهذه ، وهواء نقي منعش كهذا ، قد نحس بوجود خطر ، غير أننا لم نستطع أن نحس بتوتر .

نذرنا ليالينا الثلاث الأخيرة في النفود للمرح ، نار ضخمة من الأرطى ، نجلس حولها في ضوء النجوم الواضح ، نتمتع

بالتمر الذي اشتريناه من (ُجبَّة) ، والعاب المهارة والقـوة بين الخدم .

وسوف أقدم مذكرات يوم واحد ، الثاني والعشرين من ينـاير .

(لقد كنا نغوص في الرمال العميقة طول اليوم على مهل ، بكثير من الغناء والعبث بين الرجال ، فنحن لم نعد الآن على عجل .

قربنا من مدينة (حائل) .

بقي فقط يوم واحد حتى نصل إلى (قنا) ، أول قرية في جبل شمر . والجمال ولو انها متعبة ، لا خطر عليها الآن من الانهيار ، وعندها ثروة من حشائش النِّصِيّ لترعاها ، وقد بدأت خصلات الحشائش الآن تطلق براعمها الجديدة . والنفود هنا واسع كما هو دائما ، والافلاج عميقـة أيضاً ، ومررنا بأثر لبقرة وحشية ، قبل أقل من ساعة من توقفنا .

وفي الثالثة والنصف صادفنا راعيا يسوق أربعين رأسا من الضأن إلى سوق حائل . وهو شيـخ من شمر ، من آل (الراهس) ، رأينا خيامه اليوم بعيدة في الشمال الشرقي ، وهو ينوي بيع قطيعه على الحجاج الفرس الذين يتوقع وصولهم حائل اليوم . ويقول : إن الحجاج في طريقهم من مكة ،

وسيمكثون أسبوعا في حائل . من يدري فقد نسافر معهم ؟ والاغنام ، التي ظننتها لأول وهلة ماعزا ، مخلوقات هزيلة طويلة الأطراف ، ذات شعر حريري طويل ، ليس صوفا ، ينمو متدليا حتى حوافرها ، وآذان ملساء بندولية ، ووجوه ناعمة ، وجلودها سوداء حالكة ، ورؤوسها بيضاء ذات بقع سوداء حول العينين،والانف تبدو كما لو كانت شربت حليبا . وهي لا تشبه الضأن كما يمكن ادراك ذلك من الأطراف والذيل والوجه . ولكن لها ميزة هي مقدرتها على الحيـاة على (العاذر) [١] شهرا بدون ان تحتاج إلى ماء ، ويخيل لي أنها خاصة بنجد . كانت هـــذه المقابلة علامة للتوقف لمشاهدة فلج [٢] صغير مدهش ، اتساعه كاف ليحتوينا وسط حوض من النصِيّ .

انزلقنا بجيادنا منحدر الرمل ، وتبعتها الجمال بينما كان محمد يساوم الراعي على أسمن خروف في القطيع. هنا حططنا رحالنا ، وفي عشر دقائق اخرى كانت الجمال مبعثرة على جوانب التل ، فقد كان هناك تل رملي بالقرب منا ارتفاعه على الأقل مائة قدم وكان ابراهيم – القصير – قد عين ليراقبها

---

(١) نوع من الشجر .

(٢) تعبر الكاتبة بكلمة فلج بما يطلق عليه في نجد اسم (رِجبّة) وهي الأرض المنخفضة بين كثبان الرمال ، التي يطلق على احدها دعص .

بينما شغل الآخرون باقامة المخيم . وكان يوجد حطب وافر ، كتل بيضاء جميلة تشتعل كأعواد الكبريت .

منظر رائع .. جبال وتلال تذكر بأسبانيا :

صعدنا إلى قمة التل لنرى الجهات المحيطة بنا من البلاد ، لأنه يوجد هناك منظر رائع لجبل شمر ، لا قمة منعزلة هناك، كما ظن (كولفيل) في السنة الماضية ، بل سلسلة طويلة من الجبال الرائعة ، تمتـــد بعيداً إلى الشرق والغرب ، تذكر الانسان إلى حد ما (بسييرا جوداراما) في أسبانيا . وهناك أيضاً عدة قمم بعيدة متميزة عن السلسلة الرئيسية . وخلفنا ، في الشمال الغربي ، مجموعة (جبة)، مع متواليات إلى الغرب والجنوب الغربي . وإلى ناحية الشرق توجد نقطة واحدة — جبل (عَطـْوَى) [١] .

موقع مدينة (حائل)

وتقع حائل الى الجنوب الشرقي تقريباً ، مبنيــة في مرتفع

(١) الظاهر انها تقصد جبال (الطوال) وتقع في الشمال الغربي من حائل ، أما جبل (عطوى) ، بفتح العين وسكون الطاء ثم واو مفتوحة ممدودة ، فبطريق الذاهب من حائل الى خيبر.

وعر قرب الطرف الشرقي لسلسلة جبل (اجا) ويبدو الأفق الشمالي ممتداً امتداداً فسيحاً أمام النظر . وبعد أن انتهينا من هذا ، نزلنا – نحن الاثنين – لنقيس فلجاً على بعد نصف ميل ووجدنا عمقه مائتين وسبعين قدماً ، وأرضه صلبة ، وعلى جانبه المستقيم الانحدار علامات منتظمة من آثار أقدام أغنام، تبين مدى الثبات الذي يظل عليه سطح النفود ، لأن من الواضح ان الممرات الصغيرة ذات تاريخ قديم [1] .

وبعودتنا كانت قهوة (حنا) الطيبة معدة مع طبق من الخبز والكاري ، لتهدئة الجوع حتى يغلي لحم الخروف . وكان (عواد) الذي يسره أن يقوم بعمل الجزار ،قد ذبح الخروف وسط مخيمنا . فالعادة أن تنحر على باب الخيمة ، وكان يلطخ الجمال بالدم ولما سألناه عن السبب قال: «سوف تبدو كما لو كنا قد دعينا الى وليمة ، وانه ليبدو دائماً حسناً أن يكون على جمل المرء رذاذ من دم » . وكان قد نصب ثلاثة من أعمدة الخيام ليعلق عليها الخروف ، وهو يجري الآن تقطيعه بصورة فنية حقاً . وابراهيم الطويل وعبد الله يجمعان كومة عظيمة من الحطب من أجل الليل . و (حنا) يستعد للطبخ . وقد كان (حنا) المسكين يحابه وقتاً عصيباً من جراء الطبخ ابتداء من

(١) استفهام – ألا يمكن أن تكون هذه هي العلامات الحلزونية التي لاحظها المستر (بلجريف) ، ونسبها الى فعل الريح ، في وصفه لدوامة ما في النفود ؟

(سكاكا) ، لأن على كل انسان أن يسير على قدميه الآن ، ويصر هو على المشي أيضاً « حتى يمنع المشاكل » كما يقول ، وربما يكون على صواب . فمسيحي منتظم من حلب ، مثل حنا ، في بلد كهذه يحسن صنعاً بانكار ذاته وإزالة سلاح الغيرة ما لم يستطع المؤاخاة ، ويوحي في نفس الوقت بالاحترام ، ويبدو ان ابراهيم قد فعل ذلك . وحنا صبور ، ولا يشكو ويبادر الى الانبساط حين (يكايده) الآخرون ، ولو ان محياه يظل أسيفاً . وأنا أبذل جهدي في حمايته ، ولكنه لا يجسر على أن يقوم من جانبه بنصيبه .

محمد « الدليل » .. وأسطورة « آل عروج »

وأخيراً ، فان محمد يرفأ ثوبه ،استعداداً لظهوره في البلاط، ويتحدث مع اثنين من (جبة) ، مسافرين معنا ، عن متاعب ابن رشيد ، وعظمة (آل عروج) ، وأسطورة(ابن عروج)، ككرة الثلج ، تتجمع كلما تدحرجت . وإنا لنتوقع تماماً أن محمداً سيظهر في حائل في شخصية أمير . انه يتكلم عن نجد كأنها من ممتلكاته الشخصية . ويخلع جواً من الحماية علينا ، كما يفعل المضيف في تكريم ضيوفه.أما فزعه من (أبي الرمال)فقد

نسيه تماماً . وعلى أية حال ، كائناً من كان أميراً أو فلاحاً ، فلمحمد ميزة كونه دائماً حسن الطبع، وانه لمُسَلٍّ هذا المساء، فقد كان يحكي لنا تفاصيل تاريخ صلاته بحسين باشا في(الداير)، وهو ما لم نفهمه تماماً من قبل (وما لا أجرؤ على إعادته بالتفصيل لئلا أسبب له المتاعب) . لقد ذهب الى السجن مرتين أو ثلاثا ،ولكن يبدو أن (حسيناً) المسكين قد صنع منه غبي حزين ، وقدم لنا محمد أيضاً تقريراً كاملا وصادقاً وغريباً عن موت أحمد بك موالي .

تفكير في مقابلة .. (الامير) !

وعندئذ تباحثنا طويلا في الطريقة التي سنقدم انفسنا بها في حائل . فمحمد سوف يقترح ان على (ولفرد) ان يقدم نفسه كتاجر مسافر الى البصرة لاستعادة دين، ولكن هذا ما لن ننصت له . إننا نرى إنه الأنسب والاكثر فطنة ان نكون صرحاء ، وننوي ان نخبر ابن رشيد أننا اشخاص ذوو مركز نبحث عن أشخاص اخرين ذووي مركز ، واننا قد تعرفنا بابن سمير وابن شعلان وكل مشايخ الشمال ، واننا في كل مرة رأينا رجلا عظيما ، وقد اخبرنا ان هؤلاء لم يكونوا شيئاً في الجلال بالنسبة لأمير حائل ، واننا عند سماعنا ذلك،ولكوننا في طريقنا الى البصرة ، قطعنا النفود لنزوره،كما فعل الناس في

ايام سلفت ليروا سليمان بن داوود ، وعندئذ نقـدم هدايانا ، ونتمنى له عمراً طويلا .

واضطر محمد الى ان يعترف ان هذه ستكون خطة افضل وهكذا تقررت .

ويظن (راضي) ، وهو الذي قد وثقنا فيـه كثيراً أو قليلا ، ان الأمير سوف يسر ، ويعد بان يتغنى بمدحنا (تحت السلالم) . ويتحدث عن الفرنجي وهو بالفعل في حائل، وبعد ذهابه من حائل يحمل نقوداً وملابس من ابن رشيد . أما من يكون ذلك ، فلا نستطيع ان نتصور ، لان (بلجريف) لم يكن معروفاً هناك كأوربي .

(سهرة) ممتعة .. في رمال (النفود) !

وهكذا تمهلنا الوقت حتى كان العشاء معداً ، وحينما شعر الجميع بأنهم قد تمتعوا تماماً جاء محمد ليدعونا الى نادي الخدم حيث كانت تدور العاب القوى . وفي البداية ، يتمدد عبدالله على الرمل ، ويوضع (شداد) الجمل على ظهره ، ثم يوضـــع خرجان عظيمان يزن كل منهما حوالي قنطار (١١٢ رطلاً) . وبهذا كله يكافح ليقف على ركبتيه ، ثم يبذل جهداً مفرطـاً ليقف على قدميه ، فيترنح خطوة وينكفىء . ويرفع محمد ،

وهو لا يجاري ابراهيم قصير ، ويزن على الاقل ١٦٨ رطلا يرفعه من رجليه على راحته . ثم يصنعون دوائر كتلك التي تشاهد في « السيرك » .

انواع من اللعب ..

ثم يلعبون نوعاً من العاب النطة بان يقفوا في صف، الواحد تلو الآخر ، وينط الاخير على اكتافهم ويجري حتى يأتي الى نهاية الصف، حيث عليه ان يدور واثباً ويستقر كيفما يستطيع على رأسه او كعبيه . وهذا مسلّ جداً ولا يؤلم احداً في الرمل العَميق .

ويشترك الجميع الا (حنا) في هذه الرياضة البدنية ، غير ان عواد ، وهو بدوي المولد ، يسير في اللعب بوجه مصفر نوعا ما . فالبدو لا يلعبون قط العابا كما يفعل عرب المدن ، وليس لديهم القوى العضلية التي للآخرين . وعلى أية حال ، فقد انتقم عواد لنفسه بأن اخفى قليلا من الجمر في الأرض بشكل مُموذ وبين آونة وأخرى يطأ شخص ما على هذه الفخاخ بقدميه الحافيتين ، فتكون هناك صرخة . وتسلية كبرى تتسبب أيضاً بأن يريهم (ولفرد) اللعبة القديمة بالدوران على الرأس ثلاث مرات مستقرا على عصا قصيرة ثم محاولة المشي على خط مستقيم . ويعتبر هذا مضحكا جداً ،

وهم عموما يريدون ان يقعوا فوق (حنا) ، وعندما يحملونه يحاولها يرتبون ان يجري إلى النار .

وأحسن لعبة ، في رأيي ، هي شيء ما يشبه تلك التي يلعبها البحارة ، احيانا في سطح المركب . فيضعون عباءاتهم جميعاً في كومة واحدة، وعلى رجل واحد أن يقوم بحراستها. ثم يرقص الجميع حوله ، ويحاولون ان يسرقوا الملابس بدون ان يمسوا .

وإبراهيم طويل عظيم في هذه الرياضة ، وهو يدافع عن الكومة بيديه الضخمتين ورجليه ، مسددا ضربات شديدة نحو من لا يأخذ حذره ، محرزا - كما اتخيل - كثيراًمن الدرجات

ويتلقى عبد الله بشكل خاص - وهو غير محبوب من البقية بسبب سوء طبعه - يتلقى ضربة نظيفة على رجليه بركلة كما تركل كرة القدم تقريبا .

وتكاد تنشب معركة . غير ان عواد الحاذق يحول الموقف بأن يسرق بندقية ، ويطلق النــــار فجأة من أعلى الفلج ، ويتدحرج على الرمل ليمثل غزوا . وهكذا يمر المساء ، وعندما نعود إلى مخدعنا الخاص نشاهد شفق البروج في غرب السماء للمرة الأولى » .

كانت هذه آخر ليلة لنا في النفود ؛ ومثلت ذكراها لنا كمقاس لسعادتنا ، حين كنا حبيسي الجدران في حائل ، أو مسافرين في أراض أقل إثارة للسرور .

الوصول الى (قنا)

وفي اليوم التالي بلغنا (قَنَا) [1] ، أول قرية في جبل شمر ، والجبال نفسها بعد ذلك بيوم ، (الجبال السعيدة) التي ظلت طويلا هدف حجنا .

ذكريات رائعة

٢٣ يناير : (١٨٧٩ م)

انه لحلم أن تجلس هنا ، تسجل يوميات على صخرة في جبل شمر . وحينما أتذكر كيف قرأت ، منذ سنوات تقرير بلجريف (الرومانتيكي) الذي لم يصدقه أحـد ، عن دولة مثالية في قلب بلاد العرب ، وعن أرض سعيدة لم يرها أحد سواه ، وكيف بدا كل ذلك مستحيلاً وغير حقيقي ، وكيف سمعنا ، مؤخراً أثناء سفرنا ، عن نجد وحائل وجبل شمر هذا نفسه ، يتحدث عنه بنوع من الرهبة كل من سمع باسمه ، حتى البدو ، ومنذ اليوم الذي أجاب فيه في حلب السيد س. عن اسئلتنا الغامضة عنه بقوله : « من الممكن الذهاب إلى هناك . لم لا تذهبون ؟ » .

---

(١) قنى – بفتح القاف والنون بعدها الف مقصورة ، ومن عادة سكان تلك الجهة ان ينطقونها باسكان القاف (قنا) وبهذه الصورة كتبتها الرحالة .

واني لاشعر اننا قد انجزنا شيئاً ما لا يتاح لكل واحد ان يفعله .

لا بلد يشبه «جبل شمر»

ويصرح (ولفرد) انه سيموت الآن سعيداً ، حتى لوقطعت رؤوسنا في حائل . وانها لقاعدة مطردة ومفضلة لديه ان كل مكان هو مثل اي مكان آخر تماماً ، الا جبل شمر فلا شيء يشبهه ، على الاقل فيما شاهدت في هذا العالم ، الا ان يكون جبل سينا ، وهو اجمل من ذلك .

وصف قرية (قنا)

كل رحلتنا اليوم كانت قصة خيالية (رومانس) . مررنا بلدة (قنا) في الصباح الباكر ، وتوقفنا فقط لسقي حيواناتنا. وهي قرية صغيرة جميلة ، تشبه (جبة) ، على طرف الرمال ، ولكنها تملك ما تفتقر اليه (جبة) ، حقول مربعة من الشعير الاخضر لا تحيط بها اسوار . وهذه طبعاً بفضل الري ، الذي شاهدناه يجري اثناء انتظارنا من بئر كبيرة ، ولكنهم يخلعون عليه منظراً زراعياً اكثر من احراج النخيـــل المسورة التي شاهدناها حتى الآن .

وبعد (قنا) مباشرة جئنـــا الى (صلبة) وفي انشراحنا تغاضينا عن امهارنا في مرح وخيلاء ، كان من أثرها ان أزالت تصلب اقدامها وتركت أثراً حسناً فيها .

التربة .. والنباتات «وجبل سينا»

وكانت التربة مجعدة بجمال، وثابتة ، مكونة من قـــاع (جرانيتي) رفيع ، مختلف تماماً عن تكوين الصخر الرملي في (جبة)و(الجرف) . والنباتات تغيرت هي ايضاً فالارطى والعاذر ونباتات النقود الاخرى اختفت ، وحل محلها اعشاب أتذكر اني شاهدتها في وديان جبل سيناء ، مع اشجار صغيرة احياناً من فصيلة (السنط) تعرف لدى الحجـاج بـ (عليقة موسى) – طلح في العربية – وايضاً نبات ذي اوراق غليظة خضراء عديم السوق تسمى « غيشة » [1] يقولون انه طيب للعيون . وبين آونة واخرى كانت تبرز صفاة متوحدة ، كلها من (الجرانيت) الأحمر ، في السهل ، أو مجموعة صغيرة من الصخور المستديرة ، ومنها افزعنا عدداً من الارانب البرية .

روعة معالم جبل شمر :

وكان المنظر من أمامنا جميلاً يفوق الوصف ، سهلاً كامل

(١) لعل الكاتبة تقصد نبات (الجلاء) أو (الجلوه) كما يسميه بعض البدو.

الاستواء ، يتدرج في الارتفاع ، ومنه تنبثق هذه الصخور والتلال كجزائر ومن ورائه الجبال القرمزية اللون قريبة منا الآن ، ذات طرف منيف كان هادينا لعدد أيام ، تشمخ على الجميع . ان معالم جبل شمر لها روعة غريبة ، ترتفع مكونة ذرى وقبابا وقننا ، تاركة هنا وهناك كوة تستطيع من خلالها أن ترى السماء ، أو صفاة عجيبة جاثمة وكأنها صخرة تتدحرج على خط السماء . وكانت احدى الصخور في شكل جمل ، وانها لسوف تخدع أي شخص لا يعلم أن أي جمل لم يكن في استطاعته أن يتسلق إلى هناك .

وفي الساعة الواحدة والنصف (بعد الظهر) عبرنا أولى الكتل الصخرية المنفصلة التي تنتصب كقلاع خارج حصن ، ثم مبتعدين إلى اليسار ، وصلنا كتف التكوين الرئيسي للتلال . وترتفع هذة بغتة من المسطح الناعم المتحدر للسهل ، خلافا لجبال معظم البلاد ، بدون فاصل من الأرض المتكسرة . جبل سيناء (الطور) هو الجبل الوحيد الذي رأيته كهذا . وفي كلتا الحالتين تستطيع ان تقف على السهل وتلمس الجبل بيدك . فقط على مسافات من شقوق في التلال تجري وديان ، مبينة ان المطر ينزل أحيانا في جبل شمر . وحقا، من المحتمل ان نجد الليلة برهانا على هذا لأن سحابة عظيمة سوداء ترتفع خلف القمم ناحية الغرب ، وبين آونة وأخري يدمدم الرعد. كل شيء في خيمتنا محكم ، ومؤمن ضد المطر .

وتوجد وهدة في الصخر بالقرب من المكان الذي خيمنا فيه ، وفيها صهريج طبيعي مملوء بانقى ماء . ولم نكن لنكتشفه لولا الراعي الذي جاء معنا اليوم ، لأنه مستور بعيد تحت بعض الصفا (الجرانيتية) العملاقة ، ولتصل اليه عليك أن تزحف خلال كوة في الصخور ، وينمو عدد من النباتات البهيجة في وسط فجوة ، ورأينا زوجا من الحجل ، وهو طير ملون صغير بمناقير صفر .

جماعة من «شمر» ورجل من «حرب»

مررنا بجماعة صغيرة من بدو شمر ، ينقلون مخيمهم اليوم . وكان مع أحدهم باز صغير على ذلوله (الأكثر احتمالا طائر حر). ولم يكن معهم خيل ، ولم نعثر على أثر لحصان ، منذ أن تركنا (الشقيق) [1] .

نسيت ان اقول أننا رأينا امس بدوياً من حرب ، رجلا صغيراً قبيح الوجه ، أخبرنا أنه يرعى غنما للامير . وحرب قبيلة تحتل الاراضي المجاورة للمدينة ، ولها سمعة شريرة بين الحجاج .

٢٤ فبراير (١٨٧٩ م)

عاصفة في الليل ، ارسلنا « راضي » في الصباح الباكر

---

(١) الشقيق – بفتح الشين بعدها قاف مكسورة منهل ماء بين جبة والجوف .

بخطاباتنا الى حائل، لأنه لم يبق علينا أن نسير الا بضعة أميال.

كان صباحاً جميلا ، ولكن ..

كان صباحاً جميلا بعد المطر ، والطير تغرد في الايكات تغريداً حلوا ، غير اننا جميعاً أحسسنا بقلق . حتى محمد كان صامتاً ومنشغل البال ، لأنه لا أحد يعلم ما قد تأتي به أية لحظة . وعلى أية حال ، فقد ارتدينا أحسن ملابسنا، وحاولنا أن نجعل جيادنا تبدو أكثر تأنقاً .

وكنا توقعنا أن نجد « حائل » على الجانب الاخر من التلال غير أن هذا كان غلطة . وبدلا من عبورها ، ظللنا على طول الطرف ، نميل تدريجياً نحو اليمين ، والأرض ما تزال تعلو . وسجل (البارومتر) في المخيم ۳۳۷۰ ، وهو الآن يسجل علامة انحدار مائتي قدم .

(اللقيطة) و (الوقيد) من قرى حائل

مررنا بقريتين هما اللقيطة [١] والوقيد تقعان على بعد ميل إلى يسارنا ، ومن احداها انضم إلينا بعض الفلاحين متجهين إلى حائل على حمير . وبدا هذا أكثر تحضراً من كل ما قد

(١) اللقيطة بفتح اللام وكسر القاف ، والوقيد بفتح الواو وكسر القاف .

رأينا منذ أن تركنا سورية . وقد بدأنا نصبح قلقين ومتعجلين لنتيجة رسالتنا ، حين ظهر (راضي) وأعلن أن الأمير قرأ خطاباتنا ، وانه سيسره أن يرانا . وأمر باعداد منزلين من أجلنا ولم يبق شيء نقوم به أكثر من أن نركب إلى المدينة ونقدم أنفسنا في القصر .



القسم الخامس : في بلاط ابن الرشيد

(في هذا الفصل - وهو العاشر من المجلد الأول من الكتاب - تتحدث الكاتبة عن مشاهداتها في مدينة حائل في قصر الأمير محمد بن رشيد .

ومما يؤسف انها لم تـُتـَح لها الفرصة للاختلاط بسائر مجتمعات المدينة - كما أتيح لهـــا في القصر - ولو قدر لها ذلك لرسمت صورة رائعة عن الحياة الشعبية في ذلك الوقت).

وصف مدينة حائل

... ولما أتينا الى قمة مرتفع رأينـــا فجأة حائل تحت أقدامنا ، على بعد ليس اكثر من نصف ميل . والمدينة ليست بصفة خاصة مؤثرة في النفس . فمعظم بيوتها تخفيها النخيل ، والسور الذي يحيط بها ارتفاعه أرفع قليلاً من عشرة أقدام . والبناية الوحيدة الهامة التي أمكن رؤيتها كانت قلعة كبيرة قريبة من مدخل المدينـــة ، هي قصر ابن رشيد . ولن انسى الانطباع الذي اخذني حين دخلت المدينة من نظافة الجدران والشوارع الخارقة للعادة ، والذي يكاد يعطي جواً خيالياً .

في قصر الامير محمد بن رشيد :

وكان استقبالنا في قصر الامير هو ما تمنينـــاه . وحين ركبنا متجهين الى بهو القصر قابلنا حوالي عشرين رجلاً حسني الهندام . مما جعل دليلي يهمس : (أولاد الامير)!وكان في وسطهم يقف رجل مهيب ، في ملابس قرمزية ، ولحيــة في

بياض الثلج ، وهمس الدليل (الامير) ! حييناهم وأشار الشيخ الينا بالدخول . ثم علمنا ان هؤلاء هم خدم الامير، وأن الشيخ خادمه الخاص . ومرور خلال مدخل ملتو مظلم، من الواضح أنه شيد بهذا الشكل بغرض الدفاع، ثم انحدرنا الى ممر مظلم، تقوم على جانب منه أعمدة تذكر الانسان بمدخل معبد مصري قديم.ونقر أحد الخدم على باب منخفض ثم فتح الباب ووجدنا أنفسنا في حجرة الاستقبال. وبدت أنيقة باتساعها ـ ٧٠×٣٠ قدماً ـ وبصف من السواري الخمس ، ويضيء الغرفة فتحات مربعة صغيرة قريبة من السطح . ولم يكن في الغرفـة أثاث سوى أوتاد خشبية قصيرة لتعليق السيوف.ودعينا الى الجلوس وتبودلت كلمات لطيفة وتردد السؤال عن صحتنا أكثر من عشرين مرة ، مع ذكر اسم الله دائماً لان هذا يتطلبه الادب في نجد ودار الحديث مع القهوة ، ثم وقف الجميـع ومرت عبارة : الامير قادم! . ووقفنا نحن وحقاً لقد كان الامير في هذه المرة،دخل الامير على رأس جماعة في ملابس أكثر أناقة من أولئك الذين قابلناهم في البداية .

سلمنا على الامـــير ، وأبدى سروره لمجيئنا ... ودار الحديث . وبدا لي ان كل شيء على ما يرام الآن ، ولم يعد هناك شيء نخشاه . ومع ذلك فلم استطع أن أمنع نفسي من أن أنظر بين الفينة والأخرى الى تلك الأوتاد على الحائط . وأن أفكر في قصة (أبناء جبر وعبيدهم) الذين قتلوا غدرا في نفس هذه القاعة وبيد نفس هذا الرجل ، مضيفنا .

وصف الامير

وللأمير وجه غريب . وقد يكون شعورنا مجرد وهم . أوحت بـــه الينا معرفتنا بحياة ابن رشيد السابقة ، ولكن ملامحه أعادت إلى ذاكرتنا صورة (ريتشارد الثالث) وجه نحيل، ووجنات شاحبة غائرة ، وشفتان دقيقتان ، مع تعبير عن الألم ، الا حينما يبتسم ، ولحية سوداء خفيفة وحاجبان معقودان أسودان،وعينان رائعتان - عينان عميقتان ونفاذتان ، كعيني صقر ، ولكنهما أبداً تتنقلان بملل من وجه أحدنا الى آخر ، ثم إلى وجوه الذين يجانبه . لقد كان نفس النموذج لوجه واقع تحت وخز الضمير ، أو تحت الخوف من مغتال ، ويداه أيضاً طويلتان، يشبهان مخلبين ولا تستقران لحظة ، تعبثان بسبحته ، أو بأهداب عباءته عندما يتحدث . وبكل هذا بدا الأمير متميزاً في مظهره طويلاً ، كل جزء منه يعبر عن ملك .

ابن رشيد في مجلس حكمه:

وبعد حوالي ربع ساعة سار الأمير . ثم جاءت منـــه رسالة يرجونا أن نحضر مجلسه، وهو مجلس القضاء الذي يعقده يومياً في بهو القصر .

وفي البهو، وهو حوالي (١٠٠ × ٥٠ من الأقدام) انتظم في صفين من جميع جهاته جنود ، ليسوا كالجنود الذين نراهم في أوروبا ، انهم ما زالوا جنودا بالمعنى لهذه الكلمة. واستطعت أن أعد الى الـ ٨٠٠ منهم .

وقعد الأمير على مقعد مرتفع يحيط به أصدقاؤه، وبالذات ابن عمه حمود الذي يصاحبه في كل مكان يذهب اليه ، وعبده المفضل مبارك ، الذي من واجبه حراسة الأمير من المغتالين - والخطر على حياة محمد هو بسبب ما اراقه من دماء ، لا بسبب مركزه ، فهو كأمير ، محبوب من قبل رعاياه - .

ويتقدم الناس بعرائض ويقوم حمود بقرائتها ويتولى الأمير ختمها . ولاحظت أنه وإن كان رجال البلاط يخاطبون محمدا بلقب الأمير،فأن الفقراء- وقد يكونون من البدو- يخاطبونه بلقب شيخ أو باسمه المجرد . وتقدم أيضاً بعض الحجاج الذين لهم مظالم ، ونظر في قضاياهم باختصار . لم تكن أية قضية تستغرق أكثر من ثلاث دقائق ، وفي نصف ساعة انتهى كل شيء .

بيت للضيافة

اعد لنا بيت مزدوج في الشارع الرئيسي ، على بعد لا يزيد عن مائتي متر من القصر. كان كل شيء في غاية البساطة،ولكن

في حالة انيقة ونظيفة . وأحسسنا أخيراً بعد عنـاء الرحلة بالراحة ولكن على أية حال ، لم يكن وقت راحتنا قد جاء، ففي أقل من ساعة منذ وصولنا الى منزلنا ، استدعانا الامير مرة أخرى .

جولة في داخل القصر

وكان الاستقبال في هذه المرة خالصاً في الحجرة العليا ، ومع الامير كان حمود فقط . وكنا قد أحضرنا هدايا للأمير ، وشعرنا بالخجل ونحن نقدمها لتفاهتها ، اذ لم يكن لدينا مفهوم عن المركز الحقيقي لابن رشيد ، ونحن في دمشق .

في الحديقة :

نهض الامير للصلاة، وبعد أن عاد أقترح أن يرينا حديقته وسرنا في ممرات ملتوية ، وأبهاء ، وأبواب حتى وصلنـا الى حرج نخيل . وهنا انضم الينا بعض العبيـد ، سود وبيض ، وكلا اللونين موجود في حائل . كان هناك عدد من الغزلان في وزوج من الوعل، وكان أكثر ما يجذب الانتباه مما في الحديقة ثلاث بقرات وحشية من النفود . ثم قادنا الامير خلال باب منخفض الى حديقة أخرى ، حيث توجد أشجار الليمون [illegible] والترنج والرمان . [illegible]

اصطبل الخيل :

ثم زحف الامير من خلال باب منخفض وتبعناه لنجد أنفسنا في اصطبل مملوء بأثاث الخيل ، كل مربوط الى مذود . ويحتوي هذا الاصطبل على عشر فرساً ، وخلفه اصطبل آخر يحتوي على نفس العدد ، وثالث فيه ثمانية خيول ، وخلفه اخر فيه بين ثلاثين واربعين مهراً . وباشارة نبيلة قال الامير بسخرية : هذه هي خيول عبيدي !! وبالرغم من تواضع الامير فهذه هي خيول ابن رشيد المشهورة والممثلة لمقتنيات فيصل بن سعود التي نسج حولها الخيال .

المطبخ :

وفكر الامير في مشهد ليس أقل اثارة لاهتمامنا ، هو مطبخه . وهنا وبفخر لا يخفى ، عرض الامير قدوره واوانيه خصوصاً سبعة قدور هائلة ، يمكن لكل واحد منها ، حسب تقدير الامير ، ان يتسع لثلاثة جمال . وعدد منها كانت بالفعل في حالة استعمال ، لان ابن رشيد يستقبل يومياً مائتي ضيف ، الى جانب أهل المنزل . وقائمة الطعام اليومي أربعون خروفاً أو سبعة جمال. وعندما خرجنا وجدنا العدد العديد من الطاعمين يتجمعون . كل غريب في حائل له محله على مائدة ابن رشيد ، وعند الغروب يبدأ البهو بالامتلاء .

من صفات ابن رشيد

توطدت صداقتنا مع حمود وعائلته. وهو رجل يوحي بالثقة من البداية . ويقال إنه يرفض دائماً أن يتقبل هدايا من الأمير، ولم يوافقه قط على سلوكه ، ولو إنه سانده سياسياً ويخدمه باخلاص كأخ . وصفاته ممتازة كصفات أي رجل يمكن أن يوجد في العالم ، والى جانب ذلك فهو ذكي ، ومطلع . أما الأمير فمختلف عنه وكان من المستحيل أن أنسى القصة المرعبة لاغتصابه للسلطة وهناك شيء آخر أيضاً ، عنه جعل من المستحيل أن أحس براحة في حضوره فرغم أنه يحسن السلوك بكرامة ، فانه لا يفعل ذلك دائماً . ومن الصعب التوفيق بين عاداته الصبيانية ، أحياناً ، وبين مقدرته التي قد برهن عليها إن فيه من صفات الطفل المدلل في تنقله من موضوع الى آخر وفي سؤاله أسئلة ثم لا ينتظر ليستمع الجواب ، قطعة من سوء الطباع ليست جميعها غير ملكية، وربما كان هذا من أثر كونه أميراً ذا سيادة وهو ايضاً مغرور بسذاجة، كمعظم الناس الذين يتغذون دائماً على التملق ، وهو في انتظار متصل للثناء على قوته وحكمه وممتلكاته . وغيرته من المشايخ الكبار الذين رأيناه يكشف عنها بطريقة صبيانية . أما حمود فليس فيه شيء من ذلك . وإني لاتخيل أنه يقف بالنسبة الى ابن عمه محمد الى حد ما في المركز الذي وقف فيه « موريني » بالنسبة الى

لويس نابوليون ، الا أن « مورني » لم يكن رجلا طيباً ولا سيداً رفيعاً كحمود .

ان « حمودا » يقدم النصيحة للأمير ، وفي المجالس الخاصة يبدي رأيه بصراحة . انه بالنسبة للعالم الخارجي فقط يبدو كالتابع الذليل للأمير .

عن الامير حمود :

ولحمود عدة أبناء ، أكبرهم ماجد في السادسة عشرة يحوز كل سحر طباع أبيه ، وله الى جانب ذلك جاذبية الشباب الودود ، والجمال المثالي . وماجد ، هذا الفتى الذي يبدو غلاماً ، متزوج ، وتعرفت بزوجته (رقية) ، وهي جميلة صغيرة القد ، صغيرة السن . وهي احدى بنات متعب ، وأختها زوجة لحمود .

في زيارة حريم القصر

استأذنت من الامير في زيارة زوجاته وبعث من يخبر السيدات ليتهيأن لاستقبالي . ومرّ وقت طويل قبل أن يعود الرسول بالجواب . واني لأتخيل ان السيدات هنا قلما يعتنين بهندامهن ما لم يردن عرض ما لديهن من حرير وجواهر على زائر ما . وفي مناسبة كهذه يتفنّن في زينتهن ويستغرقن وقتاً طويلا في ذلك .

و (عمشا) الزوجة الاولى للامير يمكن أن تميزهـــا بين جمهرة من النساء الاخريات ، فلها مظهر ممتاز ،وطباع تكشف عنها في أي مكان كانت ، وحقاً لقد غطت على كل من عداها. وهي ابنة عبيد وأخت حمود ، لها كل حق ان يكسف نورها صديقاتها ، وقريباتها ، وضرّاتها . وكانت (دوشة) و (لؤلؤة) الزوجتين اللتين حضرتا ، ترتديان ثيـابا موشاة بالذهب مثل ثيابها ، عليهما نفس الزينة التي عليهـــا . لكن (عمشا) الى جانب ذلك كانت ذكية ومسلية ، وقادرة على أن تجعـــل الحديث متصلا ، بينما قلّ أن غامرت احدى الاخريين في الاشتراك فيه ، وتقاسم (لؤلؤة) و (عمشا) امتياز عدم مغادرة المدينة ، وبذلك تتقدمان على(دوشة) التي يقع على عاتقها أن تتبع خط زوجها في الصحراء حيث يقضي جزءاً من السنة ، والتزام كهذا يعتبر حطاً للكرامة وبالتالي لا تتقبله سيدات حائل .

وجلسنا ، وقبل مضي وقت دخلت (عبطا) وهي فتاة صغيرة حلوة ، قدمت لي على أنها الزوجة الرابعة ، ولكنها بدت كزوجة للمستقبل أكثر منها زوجة بالفعل . ويبدو أنها الآن قد جيء بها لمجرد النظر اليها واختبارها ، وأن الأمير قرر أن يرفضها باعتبارهـــا صغيرة إلى درجة الطفولة . وفي الواقع كان الأمير يفكر بحلف مناسب يكسبه عضداً سياسياً بجانب الزيادة في الراحة المنزلية . عرفت أهدافه هذه من فمه

من خلال أسئلة عن بنات بعض شيوخ البدو ، اللواتي في سن الزواج . وأثناء بقائي معهن ، جاء الأمير مرتين ، وفي كل مرة يظهر على الباب تقف له جميع النساء الحاضرات وزوجاته، ولا يعدن للجلوس إلا بعد أن يذهب، باستثناء (عمشا) فهي تبدي انحناءة أو اشارة كما لو كانت على وشك النهوض ثم تظل في مكانها بجانبي .

بينما يقف الأمير أمامنا يتحدث ؛ وفي الغالب كان يوجه حديثه إلي ، ويتكلم بطريقته المستهترة ، الصبيانية تقريباً ، التي يتكلفها أحياناً ، استفسر عن رأيي في زوجاته هل هن أكثر جمالاً وسحراً من زوجة ابن شعلان (عيوشة) أخت الحميدي ابن مشهور أو من زوجته « ابن شعلان » السابقة ، (تركية) بنت جدران، التي تركته وعادت إلى خيمة ابيها. وفي الاثنتين والأربعين ساعة منذ وصولي إلى حائل ، كان الأمير قد سألني أسئلة كثيرة عن هاتين السيدتين ، وأنا الآن اجيب للمرة المائة بأن تركية كانت جميلة ولطيفة ، وان (عيوشة) كانت أجمل ، ولكنها متغطرسة جداً . غير أنه كان مصراً على المقارنة بين العائلتين ، ولحسن الحظ ، وقد رأيت (عمشا) و (دوشة) و (لؤلؤة) و (عطوة) ، فقد كان في مقدرتي أن أقول بصدق انهن أظرف ، حتى (عبطا) الصغيرة المسكينة المحتقرة . ولكنه لم يطق أن تصنف (عبطا) مع الاخريات وقال : « أوه ، عبطا، أنا لا أريدها ! انها لا تساوي شيئاً ! » .

تحليل لنفسية ابن رشيد :

ان شخصيته ، كما قلت ، مزيج غريب من المقدرة الخارقة والبصيرة السياسية من جهة ، والميل إلى إضاعة الوقت والتفكير في تفاهات حمقاء ، إذا كانت هذه الأشياء تمس غروره الشخصي ، من جهة أخرى . فعن مقدرته احكم بما رأيت من ملاحظاته المدهشة الى الغاية عن أمور جادة ، وكذلك بالمركز الذي استطاع أن يناله ويحافظ عليه . وأما عن طاقته فلا يستطيع أحد أن يشك فيها ، لأنه قد ابان عنها للاسف ، بجرائمه ، ولكن تأكله الاحقاد الصغيرة الشخصية ، واني لاتعجب احياناً فيما لو كانت هذه الأشياء ستؤثر في سلوكه في أزمة سياسية هامة . وعلى أي حال ، فاني أظن أن في لحظة كهذه سوف تنسى كل صغائر الغرور ، لأنــــه ، فوق كل شيء ، طموح ، وغرور ، إنما هو جزء من طموحه . انه يغار شخصياً من كل الرؤساء ذوي الصيت ، لأن البطولة الشخصية ، هنا في بلاد العرب ، ربما كانت أبرز منها في أي مكان آخر في العالم منذ عهد الفروسية في تحريك القوى السياسية . ولا أشك في أنه سوف يسعى للتحالف مع صطام ، إذا رأى ذلك ضرورياً ليصل الى غاياتــــه ومع ذلك فلم يستطع أن يقاوم رغبته في التحدث اليّ عن ابن شعلان في هذه اللحظة التي لم تكن مناسبة على الاطلاق ، أملاً أن يسمع شيئاً يحط من قدر منافسه .

واعترف اني وجدت الأمر محرجاً ان اكابد امتحاناً عن فضائل (عيوشة) و (تركية) بحضور زوجات محمد اللاتي اصغين بأعين مفتوحة ، وامسكن انفاسهن من شدة الانتباه . وازداد حرجي ، بعد ذهاب الامير ، عندما هاجمتني عمشا ، حالا ، من جانبها ، بطلقات من الاسئلة .

وبينما كان عندنا الح في استفساراته ، الى ان فقدت صبري ، بعد ان وجدت نفسي محاصرة في زاوية ، وقلت متعجبة : « ولكن لماذا تسألني كل هذه الاسئلة ؟ لماذا تريد ان تسمع عن تركية ؟ وماذا يعنيك فيما اذا كانت جميلة ولطيفة ؟ انك لم ترها قط ، وليس من المحتمل ان تراها ! » فأجاب : « انني لم ارها قط ، ومع ذلك فاني اريد ان اعرف عنها شيئاً ، وان اسمع رأيك فيها . ربما يوماً ما قد احب ان اتزوجها . ربما آخذها بدلاً من هذه الفتاة الصغيرة » مشيراً الى عبطا – التي لن تصلح لي ، والتي لن آخذها . انها لا تساوي شيئاً ، وكرر « انها لا تساوي شيئاً » ووقفت عبطا المسكينة الصغيرة تنصت ، بعدم اكتراث بليد ، كما اظن ، لأني لاحظت محياها فلم استطع ان استنتج حتى ظلاً عابراً للنـدم او الاستياء . والحق ان بين جميع زوجاته ، عمشا هي الوحيدة التي بدت لي ان لديها شعورا شخصيا بالعطف نحو الامير .

وفي اللحظة التي ذهب فيها ، انهالت علي بالاسئلة : من هي تركية ؟. وادهشني انها لم تعرف ، فهي تعرف من هو الحُمَيدي

بن مشهور . وكان علي ان اشرح لها ان اخته غيوسة تزوجت صطام ابن شعلان ، وان اخبرها عن قصة زواج صطام الثاني، وكيف ان غيوسة صممت على الخلاص من ضرتها ، نجحت في جعل الاخيرة غير مستريحة الى الدرجة التي كان عليها ان تذهب . ورفضت ان تعود منذ ذلك الحين . و (عمشا) بالتأكيد تحرص على ابن رشيد وظننت انها تخشى ان يؤتى بعنصر جديد للنزاع في العائلة . اما بالنسبة لمركزها فقل ان يتأثر بوصول زوجة جديدة ، فهي ، باعتبارها اخت حمود ، يجب ان تضمن لها مرتبتها ونفوذها، والامير بشعوره بالذنب، لن يجرؤ ، فيما لو رغب ، ان يستهين بها او بحمود، الذي يدين بالكثير لنصرته .

في بيت الاميرين حمود وسليمان

ومن بيت عمشا ذهبت الى بيت زوجة حمود ، بنية بنت متعب ، ورأيت عندها رقية اختها زوجة ماجد بن حمود ، وزوجة اخرى لحمود . ولما سألت عن اسم ابيها اخبرت انها بنت احد الناس من شمر . وفي كل مرة اكرر سؤالي «من هو»؟ يكون الجواب « واحد » - واخيراً كان الجواب « واحد فلان من حايل من البلاد » . انها لا تكاد تعتبر انها تنتمي الى العائلة . والزوجتان الثالثة والرابعة من الاقارب ، بنت طلال ، وبنت سليمان ، وهؤلاء الزوجات الاربع صغيرات

السن . اما أم ماجد التي لم اسمع عن اسمها فقـــد ماتت منذ سنين ، وحمود مثل الامير يحتفظ دائمـــاً بأربع زوجات . و (زهوا) بنت طلال زوجة حمود جذابة ولطيفة وذكية ، ونحيفة .

وزرت عائلة سليان عم حمود. وسليان عرفته في البلاط، وهو يصبغ لحيته بالحناء ، ويحب الكتب ، ووجدته غارقاً بينها في غرفة الاستقبال عندما ذهبت لزيارة زوجاته . وكنت آمل ان محادثته ستكون مفيدة لولا انه بمجرد مـــا بدأ من الحديث، دخلت زوجته مندفعة يتبعها جمهور من النساء فجمع كتبه ومخطوطاته وخرج مسرعاً .

و (قوت) زوجته أغبى شخص قابلته في حائل . وجاءت (زهوة) وهي زهوة اخرى، بنت سليان تحمل طفلها . وكانت جميلة المنظر. ولكنها بدت تقريباً في نفس غباء امها واملالها.

كل مساء كنا متعودين أن نتلقى دعـوة من الأمير لنقضي المساء في مجلسه ، وكان هذا دائماً أجمل جزء في اليوم ، لأننا نجد بعض الزوار الذين يثيرون الاهتمام. فتدور أحاديث شيقة. وذات مساء كان الأمير في غاية الانشراح عندما تلقى نبأ هزيمة صطام رغم أن رجاله كانوا أكثر عدداً. ولم يستغرب أحد أن ينتصر الجانب الأضعف لأنهم يعتقدون هنا ان الهزيمة والنصر « من الله » . ولما سألني الأمير ماذا أظن هل لصطام عقل ؟ أجبت: « أخشى انه ليس له نصيب كبير منه . إلا اني آسفة

من أجله . انه ضعيف ولا يعرف كيف يدبر قومه . ولكن له قلباً طيباً » . وسألني : « وماذا تقولين في ابن سُمَير ؟ » فأجبت : « ان له من العقل أكثر مما له قلب » وسر الأمير . وقال : « آه يا خاتون أنت التي لك عقل .. والآن ماذا تقولين فيّ ؟ » فقلت : « إن لك عقلاً » .

فقال : وحمود ؟ فأجبت : كلكم هنا ذوو عقول ، طبعاً ، أكثر من البدو الذين معظمهم كالأطفال .

فقال : ولكننا بدو أيضاً .

قال هذا مؤملاً أن يجعلني متناقضة فيما قلت . فأجبت : « اني أحب البدو أكثر . وأن يكون للمرء قلب أفضل من أن يكون له عقل » ثم مضى الأمـــير في استجوابي عن الشيوخ الآخرين الذين يعرف أسماءهم .

فسأل : — من أحسن الذين قابلت ؟

— محمـــد الدوخي أذكاهم ، وفرحان بن هديب أكثرهم تهذيباً ، ولكن الذين احب أكثر هو قريبك في الجزيرة ، فارس الجربا .

وما أظن انه سر من هذا . وقال انه لم يسمع حسناً أو سيئاً عن ابن هديب ، وهو ينتمي إلى البشر . ولم يكن (أي الأمير) على وفاق مع أي من البشر باستثناء ابن مرشد الذي

زاره منذ سنتين . ان ابن رشيد تأكله الغيرة من كل من له أقل سمعة في الصحراء .

ولقد أدهشنا ، على أي حال ، ان نجده مطلعاً على كل شيء ، وعارفا عن كل انسان في أقصى الشمال ، ونحن مهتمون كثيراً ، من حيث انه قد حل لنا احدى المشاكل عن نجد التي طالما حيرتنا ، وتلك هي العلاقات التي ترعاها قبائل جبل شمر مع قبائل الشمال . فقد أخبرنا الامير ان شمر الذين في الجزيرة وشمر أتباعه يعدون أنفسهم أقرباء قرابة رحم . وقال : « ان دماء خيولنا واحدة » .

عربي يرطن بالانجليزية

لم نكن قد تحدثنا طويلاً مع الامير وحمود حينما قدم الينا رجل سمين تبدو عليه الفظاظة وكان من الواضح انه ليس من حائل ، لأن ملامحه كانت غليظة . وطباعه شرسة . وتحدث بلهجة بغدادية قوية، وكان يخاطبه كل فرد « بالحاج» ومن الجلي انه كان ينتمي إلى الحجيج ، ولكن ما الذي أتى به إلى هنا؟ واتضح السر بسرعة فبعد محادثة هامسة بينه وبين حمود ، اتجه الزائر إلى (ولفرد) - (وهو زوج الكاتبة) وبدأ يخاطبه بلغة حسبناها في أول الامر رطانة ،وإذا لم نرد جوابا، قال متعجباً بالعربية :« ألم أقل لك انه ليس من الانكليز !؟» ثم استجوبه (ولفرد) وكشف انه كان يعمل وقاداً في احدى

بواخر شركة الهند البريطانية على الخليج الفارسي وان اللغة التي تحدث بها كانت انكليزية وكلمتان اثنتان فقط نجحنا في تمييزهما Werry Cood – Cfhief Engineer وبكوننا عرفناهما وأعطينا ما يقابلهما بالعربية اعترف بهويتنا . ثم صرف الرجل إلى حال سبيله .

صائغ من حائل

وفي وقت متأخر من المساء قدم صائغ محلى ، رمعه عدد من السلع من صنعه في حائل . كانت جميلة ولكنها لم تكن مثيرة للانتباه أو عديمة الشبه بما يمكن أن يرى في أي مكان آخر ، مقابض خناجر وغمد ، وبعض حلى وعلى أي حال، فانه هو الرجل الذي قد صنع كل المقابض الذهبية للسيوف التي يلبسها أفراد العائلة . واختبرنا هذه فوجدناها متقنة الصنع .

اطرف حادثة

ولعل أطرف حادثة في ذلك المساء،وهي احدى الحوادث التي لم نكن مستعدين لها،كانت إبداع الامير المفاجىء لواحدة من هـذه اللعب التي تسمى (التلفونات) وكانت في السنة الماضية بدعة جديدة في اوروبا . فقد جعل الامير اثنين من عبيده ليقوما بالدور معه ، احدهما خارج البهو . والآخر

يصغى . وسلمت الرسالة بنجاح ، فالعبد الذي في الخارج ، ليجعل الامر اكثر وثوقاً ، يصيح باعلى صوته . « يا عبد الله وين انت ؟ الامير يريدك » ومقاطع شبيهة بهذا . وعبرنا عن دهشة عظيمة ، كما يقضي الواجب ، حقاً ، لقد كانت المرة الاولى التي رأينا اللعبة بالفعل،وهو أمر فريد أن تجد اختراعاً حديثاً كهذا قد وصل إلى حائل .

القسم السادس : حكم ابن رشيد

(في الفصل العاشر قدمت المؤلفة ابن رشيد ، شخصية لعبت دوراً – وما زال لها دور ستلعبه –

وفي هذا الفصل تقدم الدور والمسرح – الأرض والناس والتاريخ ، العوامل التي تلاحمت وتداخلت فيما بينها ليكون نتاجها حياة هـذا الجزء من جزيرة العرب ، في ذلك الجيل ، ثم لأجيال تأتي من بعده) .

« سأحسن الصنيع : فالناس يحبونني ، والصحراء ملكي ، وقوتي هلال ، وأملي المتفائل يقول إنه سيكون بدرا » .

شكسبير

هذا الفصل هو نتيجة تحرياتنا التي أجريناها ونحن في حائل ، عن الحالة السياسية وموارد البلد . ولن ندعي الدقة القاطعة ، وخصوصا في الأرقام الواردة ، الا أن ما سنقدمه هنا سيساعد في اعطاء فكرة عن نوع الحكم الموجود في بلاد العرب ، والمقدرة على الحكم الذاتي لدى العنصر العربي .

طبيعة السلطان :

ان الدستور السياسي لجبل شمر عجيب للغاية ، ليس فقط من حيث أنه غير شبيه بما هو مألوف لنا في أوربا ، بل ربما كان فريدا ، حتى في آسيا ، وفي الحقيقة ، يبدو أنه يمثل شكلا قديما من اشكال الحكومة خاصا بالبلدة ، كما يبدو أنه

قد نبع بالطبع من الضرورات الطبيعية للأرض ، وخصائص سكانها . واني لأنظر إلى حكومة ابن رشيد في كل الاحتمالات أنها مطابقة لحكومات ملوك العرب الذين أتوا لزيارة سليمان ، وملوك الرعاة الذين سيطروا في وقت أقدم على مصر وبابل ، ولا أشك كثيرا في ان نجاحا يعود إلى أنها في الواقع في تناغم مع أفكار العرب والتقاليد العربية .

الصحراء :

ومن أجل فهمها على الوجه الصحيح ، ينبغي للمرء أن يدخل في اعتباره ماهية بلاد العرب ، وخصائص العرب ، واسلوب الحياة . ان شبه الجزيرة كلها – ما عدا اليمن وبعض مناطق حضرموت الواقعة تحت تأثير الرياح الموسمية في اقليم صحراوي بلا مطر ولا مياه ، بكل معنى لكلمة صحراء . فالتربة فقيرة، مكونة أساساً من حصباء أو رمال ، وغير صالحة للزراعة باستثناء بعض بقاع محظوظة ، وبالفعل فالزراعة غير ممكنة اطلاقاً في نجد ، إلا بمساعدة الري ، والري من الآبار فقط إذ لا يوجد ماء على سطح الأرض وحتى الآبار نادرة . والصفة العامة للهضبة الوسطى ، لشبه الجزيرة، هي نجود واسعة من الحصباء تكاد تكون خالية من النبات ، وغير قادرة على الاحتفاظ بالمياه ، حتى على عمق كبير . وقد

توجد الآبار في بعض المنخفضات في سهول منخفضة بمئات الاقدام عن السطح العام .

وحيث توجد الآبار بقـــدر كاف من الماء ظهرت مدن وقرى تحاط بالبساتين. وهذه على أية حال ، كثيراً ما تكون متباعدة بحيث تبدو مجرد نقط على خريطة بلاد العرب ، ودون أن تربط بعضها ببعض منطقة زراعية . وحقاً ليست مبالغة أن نقول أن نجدا ليس بها أي اقليم زراعي ، بالمعنى الذي تفهم به الزراعة ، وأن كل انتاجها هو من منتجات البساتين .

المناطق الريفية... وعدم الترابط بينها

وما دامت الحال على ما ذكرنا فالطبقة الريفية لا توجد وكل مدينة منفصلة عن جاراتهـــا إلى درجة كبيرة وتحيط الصحراء بها (أي المدن) كالبحر ، وليس بينها أية نقطة اتصال في شكل حقول أو قرى او حتى مراعي ، انها منعزلة بأدق المعنى الحرفي للكلمة ، ومن هذه الحقيقة تنبع الفردية السياسية ، التي ظلت العناية مركزة دائماً لرعايتها . كل مدينة دولة مستقلة .

وفي نفس الوقت ، فالصحراء من حولهـــا ، ولو أنها لا يحوزها سكان مستقرون تتجول فيها القبائل البدوية، وهي تكون

سواد العنصر العربي. وهذه القبائل تحتل معظم صحراء النفود وفيها وحدها يوجد الكلأ بوفرة، غير أنهم يترددون أيضاً على كل جزء من المناطق المرتفعة ولانهم ميالون للحرب وأكثر عددا من سكان المدن ، فهم يسيطرون على كل الطرق المؤدية من مدينة الى أخرى ، بحيث أن قطع اتصال سكان المدن بالعالم ، يعتمد على حسن نيتهم (أي البدو) وعلى هواهم .

الحكم القبلي .. واثر البيئة :

والمدن ، كما قلت ، في الغالب تكفي نفسها بنفسها، ولكن انتاجها مقتصر على منتجات البساتين من الفواكه والتمر ، فهي لا تزرع برا ولا تربي ماشية، ولذلك فهي تعتمد في الخبز واللحم على الخارج . وهي تحتاج أيضاً الى سوق لصناعاتها ، نسيج القماش ، وصناعة السلاح والاواني ، ومن الضروري ، على الاقل في جبل شمر، أن ترسل قافلة سنوية الى الفرات من أجل الحنطة ولذلك فان سلامة السفر خارج أسوار المدن هو اساسي لحياة كل مدينة في بلاد العرب ، وعلى هذه الضرورة يقوم البنيان السياسي بأكمله . فكل مدينة تضع نفسها تحت حماية شيخ بدوي في منطقتها وهو بالنظر الى الاتاوة السنوية (الاخاوة) يضمن لأهل المدينة السلامة خارج اسوارها ممكناً لهم بذلك من السفر في غير مضايقة على طول امتداد سلطته . وهذه في حالة ما تكون القبيلة قوية ، قد تبلغ مئات الأميال ، وتضم

مدناً كثيرة . ويقال عندئذ أن المدينة تتبع القبيلة الفلانيــة ويصبح الشيخ البدري هو السيد الحامي ومن تبعيتها (أي المدن) المشتركة وحرية التمازج التي تهيئها لهـــا هذه التبعية المشتركة تنبعث بذور الاتحاد وتتطور أحياناً الى قومية .

وقد ظل هذا هو حال بلاد العرب دائماً ، فيما اعتقد .

ثم ينشأ عن ذلك تطور أبعد . فيبني الشيخ البدوي لنفسه قلعة بالقرب من احدى المدن، بعد أن يصير غنياً بفعل الاتاوة التي يتلقاها منها . ويعيش فيها خلال شهور الصيف. ثم بالهيبة المستمدة من مركزه كبدوي (لأن الدم البدوي لا يزال يعتبر هو الانقى) وقوته التي تظاهره في الصحراء يصبح بسرعة هو الحاكم الفعلي للمدينة ، ويتحول من حام للمدنيين الى صاحب سيادة عليهم . ثم يكرم منذ الان بلقب أمير، ولو أنه بالنسبة للبدو يظل شيخهم ، ثم يصير ملكا على كل المدن التي تدفــع له الاتارة .

بلاد نجد لم تخضع لحكم اجنبى

هذا الشكل من اشكال الحكم، وهو يقوم على أسس طبيعية قد ظلت البلد تعود اليه دائماً ، كلما نجحت في أن تحرر نفسها بعد فترة من الطغيان الاجنبي أو الداخلي وقليل هو المعروف عن بلاد العرب في القديم، إذ لم تدخل ضمن نطاق الامبراطورية الفارسية أو المقدونية أو الرومانية ، ومن المحتمل أن نجدا

عاشت تحت نوع الحكم الذي وصفته حتى زمن الرسول ﷺ وبعد ذلك، ولزمن قصيرصارت جزءا من الامبراطورية الاسلامية وشاركت في الادارة المركزية أو شبه المركزية للخلفاء، التي استبدلت حكما ثيوقراطيا (دينيا) بالاشكال البسيطة التي سبقته . ومع انها مهد الاسلام، فلم يكن هنــــاك جزء من الامبراطورية العربية أسرع في التمرد منبلاد العرب ذاتها. ففي القرن الثاني لعصر الاسلام، عادت شبه الجزيرة كلها تقريباً الى استقلالها القديم، ولم تدخل نجد منذ ذلك الحين، الا موقتاً في نطاق النظــام الامبراطوري لاي ملك أجنبي أو متسلط .

دعوة الشيخ محمد .. وقيام الدولة السعودية

وفي منتصف القرن الماضي على أية حال، تماماً مثلما أكد الرسول ﷺ سلطته الروحية على شبه الجزيرة، أسس أمير العارض الوهابي [1] حكومة مركزية ثيوقراطية (دينية) في

---

(١) كلمة « وهابي » او « وهابية » مما اطلقه اعداء الحركة الاصلاحيــــة الدينية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله . فأصبح اعداء هذه الحركة يطلقون على معتنقي تلك الفكرة الاصلاحية ومؤازريها ذلك اللقب، ويطلقون على الدولة السعودية التي آزرت الشيخ لقب الدولة الوهابيــــة . واضطررنا للمحافظة على الأصل ايراد الكلمة كما اوردتها الكاتبة الانجليزية مع اعتقادنا بعدم صحة اطلاقها على تلك الدعوة الاصلاحية . (المترجم)

بلاد العرب . فجرد الأمراء البدو واحداً بعد الآخر، وقامت امبراطورية عربية جديدة . وهذه لم تشمل جميع نجد فحسب ولكن أيضاً ، وفي أحد المرات ، اليمن، والحجاز، والاحساء، والصحراء الشمالية حتى خط عرض دمشق ،ولستين سنة خلت تقريباً حطم استقلال كل المدن والقبائل الداخلية ، واستبدل نظام امبراطوري بالنظام القديم وحكم أئمة نجد من آل سعود حكماً لا يقل ولا يزيد عن حكم الخلفاء الأوائل، إلا أن حكمهم أتى الى نهايته في سنة ١٨١٨ حينما فتح الترك نجداً وأخذ ابن سعود الحاكم أسيراً وقطع رأسه في القسطنطينية ، ثم عند جلاء الترك «لأنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بفتحهم طويلاً» ،أكد حكم الرعاة نفسه مرة أخرى ، وأسست إمارة جبل شمر .

تأسيس حكومة ابن رشيد :

وقبيلة شمر هي الاقوى في شمال نجد . وقد وضعت مدن حائل ، وقفار ، وبقعا . وبقية المدن الاخرى ، نفسها تحت حماية عبدالله بن رشيد الذي نجح في ان يكسب لنفسه شياخة شمر ، ويبدو أنه كان رجلاً ذا مقدرة عظيمة ، واليه تنسب سياسة الحكومة التي تابعها خلفاؤه من بعده . اتخذ مقامه في حائل ، وبنى القلعة هناك، وكسب الاعتراف لنفسه بالامارة، كتابع في البداية لابن سعود ، الذي ظهر مرة اخرى في العارض ، ثم ، في النهاية ، لحسابه الخاص . ويبدو ان سياسته كانت أولا ان يسترضي قبائل نجد الاخرى او أن يخضعها ، مجبراً إياها على ان تصير تابعة لقبيلته ، شمر ، وثانياً ان يقيم

حمايته على جميع مدن الشمال . وكانت هذه خطة غـــاية في البساطة ، قد يتوسل بها أي شيخ بدوى ، غير أن جدارة عبدالله تكمن في طريقة تطبيقها . لقـــد رأى لكي يكسب هدفه ، انه يجب ان يستثير الأفكار القومية والعصبيةالقومية ، وكان ينفق الاتاوة التي يستمدها من المدن بسخاء في الصحراء. ويمارس كرماً لا حدود له تجاه كل شخص يصادف ان يزوره. أعطى الهدايا للجميع ، وبهرهم بعظمته ، فيعودون الى القبائل بانطباعات ضخمة عن ثروته وقوته ، وبهـذا كسب اصدقاء عديدين وبمساعدتهم استطاع ان يخضع البقية من اعداءه ومنافسيه . وفي معاملته لهؤلاء يبدو أنه دائمـــاً كان يحاول اولا طريقة الاسترضاء ويكتفي ، اذا أجبر على الالتجاء الى السلاح، بنصر واحد ، متخذاً من المنهزمين اصدقاء ، وحتى انه يعيـد اليهم ممتلكاتهم وهو عمل من أعمـــال المروءة يلقى كل تقدير في الصحراء .

وبهذه الوسيلة تزايدت قوته وسمعته بسرعة، وكذلك اخوه وساعده الايمن عُبيد ، الذى هو الآن بطل اسطوري في نجد.

عبد الله بن رشيد وثروته ..

وأمر آخر أولاه مؤسس دولة آل رشيد انتباهاً كبيراً ، هو المالية . فبالرغم من صرفه سنوياً مبالغ ضخمة على الهدايا والضيافة ، فانه اجتهد ألا تتعدى هذه المصاريف دخله ،

وعند موته ترك داراً مملوءة بقطع الفضة، طبقاً لتقرير شائع ، ولم يكن أحد من خلفائه – ومن المستحيل بالطبع – أن يخمن بالدقة مقدار المال المدخر ، ولكن من المؤكد أنه يمثل مبلغاً خيالياً في بلاد العرب ، وامتلاك هذا ، بجانب الصيت الذي تمنحه الثروة في بلد فقير ، هو مصدر هائل للقوة .

الحالة السياسية والادارية

وأخيراً ، فان عبدالله ، وكل عائلة ابن رشيد ، قد وهبوا قسطاً وافراً من الحيطة ، فما من مشروع هام اتخذ فيه قرار على عجل ، ومن المؤكد أن جميع شئون الدولة الآن تبحث في مجلس عائلي ، قبل أن ينفذ أي أمر ، ويبدو أن القاعدة دائماً عند آل رشيد أن يفكروا مرتين وثلاثاً أو اثنتي عشرة مرة قبل أن يبرموا أمراً ، حتى أعمال محمد العنيفة تجاه أبناء أخيه قد أمعن فيها النظر،وفكر فيها شهوراً قبل القيام بها ، وهم في سلوكهم نحو آل سعود وسلاطين الترك ، ينتظرون دائماً الفرصة المناسبة ويتجنبون انشقاقاً علنياً ، ومن المدهش جداً أن كثيرين من هذه الاسرة رجال متفوقون، فمن الصعب أن تقول من هو أقدرهم ، عبد الله ، أو عبيد ، أو طلال ، أو محمد ، أو ابن عمه حمود . وليس الجيل الجديد أقل في ما يبشر به .

وبعد أن وحد جميع قبائل شمال نجد في نوع من الاتحاد

التعاهدي ، أصبح عبد الله بالطبع السيد الاعلى في جميع المدن، إلا أنه لم يكتف بمجرد السلطة ، بل هدف إلى جعل حكمه محبوباً ومن مفاخره ومفاخر خلفائه أنه ما من أحد منهم ، فيما يبدو ، قد أساء استعمال مركزه .

سياسة آل رشيد :

وقد كانت سياستهم مطبوعة بطابع التحرر ، والاسترضاء المقرونين بالتلويح بالقوة في المناسبات ، وطبقت هذه السياسة بالنسبة لسكان المدن والبدو ، وبهذا وضعوا حكمهم على القاعدة المضمونة الوحيدة الشعبية ، وقد كان على آل رشيد في أيامهم المبكرة أن يحاربوا من أجل مركزهم في حائل ، ثم في الجوف وسكاكا ولكن حكمهم الآن معترف به باختيار في كل مكان، وبحماسة في جبل شمر .

وانها لغرابة مفاجئة يقابلها المسافر الجديد من تركية ان يسمع التعليقات التي يطلقها سكان حائل عن حكومتهم ، فمن المستحيل ان تتحادث عشر دقائق مع أحد منهم دون أن يؤكد لك ان حكومة الأمير أحسن حكومة في العالم .

(الحمدلله ، بلدنا محظوظ ، الأمر معنا يختلف عما هو مع الترك والفرس . الذين حكومتهم ليست حكومة . هنا نحن في سعادة ورخاء ، الحمدالله) . ولقد أدهشتني هذه النعرة القومية .

الجند ؛ والمحافظة على الامن

وفي حائل يعيش الأمير في أبهة ، فله حرس مكون من ٨٠٠ أو ١٠٠٠ رجل لهم نوع من الزي الموحد ، أثواب بنية وكوافي (غتر) حمر او زرق ومسلحون بسيوف مقابضها من الفضة ، ويجند هؤلاء من بين شباب المدن والقرى بالاختيار ، والذين يرغبون في الخدمة يسجلون اسماءهم في القلعة ،ويستدعون اذا تطلبت ذلك مناسبة، وواجباتهم خفيفة ، ويعيش معظمهم مع عـــائلاتهم ، ولا يتلقون رواتب ولا أرزاقاً الا حينما يستخدمون بعيداً عن مواطنهم في حاميات القلاع النائية وفي الجوف . فتكاليفهم بالنسبة للامير ، إذن ، تزيد قليلاً عن تكاليف ملابسهم وسلاحهم . واليهم توكل اعمال الشرطة التي قد تكون ضرورية في المدن ، الا أن من النادر ان تحتاج سلطة الأمير سنداً آخر غير سند الرأي العام . وعرب نجد عنصر فريد في اعتداله، وقلما يدخلون في شغب أو تعكير لصفو الأمن، فان ثار نزاع بين المواطنين فانه يسوى في الحال بتدخل الجيران،ومبدأ المشاغبة والعنف المعروفين في المدن الاوربية غير معروف في حائل وحينما لا تسوى الخصومات بتدخل الاصدقاء ، فإن المتنازعين يذهبون بقضاياهم الى الامير ، وهو يصدر قراره فيها في محكمة مفتوحة (المجلس) وكلمته نهائية .

النظام والقانون

ويخيل لي أن قانون القرآن ولو أنه يشار اليه ، ليس هو القاعدة الرئيسية في قرارات الامير ، وانما العرف العربي ، وهو سلطة أقدم بكثير من الشريعة الاسلامية . وأشك في أن هناك ضرورة لتدعيم هذه القرارت بقوة الجنود. وقد أكد لي باستمرار أن السرقة غير معروفة في حائل، غير أن قطاع الطرق أو اللصوص الذي يضبطون متلبسين يفقدون يداً واحدة للجريمة الاولى ورؤوسهم للجريمة الثانية .

وفي الصحراء ، وفي كل مكان آخر خارج أرباض المدينة ، يقوم البدو بحفظ الأمن، والامير يقضي معهم جزءاً من العام . وهو عندئذ ليس بأقل ولا أكثر من بدوي ، فيخلع نعليه وكل ترف المدينة ويتسلح بحربة ، ويعيش جواباً في صحراء النفود وعادة يقوم بهذا في بداية الربيع ، والربيع هو فصل حروبه . وعندما تبلغ حرارة الصيف أقصاها يعود الى حائل .

الضرائب والاتاوات

وتقدر الاتاوة التي تدفعها كل مدينة وقرية طبقا لثروتها من أشجار النخيل ، ومن الاغنام التي يحتفظ بها أهل المدن مع البدو . واعتقد أن كل شجرة يدفع عليها أربعة قروش ،

وتعفى الأشجار دون السبع سنوات . وفي حائل يقوم أعوان الأمير بفرض هذه الضريبة ، وفي الأماكن الأخرى يقوم بذلك الشيوخ المحليون ، وهم مسئولون عن جبايتها ابان استحقاقها . وفي الجوف وسكاكا ، اللتين لا تزالان اقليمين ضما حديثا ، يمثل ابن رشيد وكيل ، ويقوم بفرض الضريبة في شكل نقود ، والعملة التركية هي وسيلة التبادل المعترف بها في كل مكان .

الدخل والمصروفات

وبدون ادعاء الدقة فقد أجرينا عمليات حسابية وقدرنا أن دخل الأمير من جميع الموارد ، اتاوة وضريبة ، يمكن أن إلى ٦٠ ألف جنيه سنوياً ، ورسم مرور الحج في ممتلكاته يمكن أن يأتي لخزينته بمبلغ يتروح بين ٢٠ و ٣٠ ألفا من الجنيهات .

أما فيما يتعلق بمصروفاته ، فربما كان حسابها أسهل . فهو يدفع مبلغا ضيئلا كاتاوة لشريف المدينة ، كقربان ديني من جهة ، وليضمن حصانة لممتلكاته النائية ، كخيبر ، وكاف ، وغيرها ، من اعتداء الاتراك ، وسوف أخمن هذه الاتاوة بين ٣ آلاف جنيه و ٥ آلاف جنيه ، ولم أستطيع أن أتأكد من الرقم الحقيقي ونفقات الأمير على جيشه مع المدنين المدرجة

اسماؤهم تحت الخدمة وكل مصاريف الحكومة لا تـكاد تبلغ أكثر من عشرة آلاف جنيه .

وقد تبلغ مصاريف مـنزله ٥ آلاف جنيه ومصاريف الاسطبل ألف جنيه. وأضخم بند في ميزانيته هو بند الضيافة. فمحمد بن رشيد تقليداً لأسلافه، يطعم يومياً بين مائتين وثلثمائة ضيف ، ويكسو الفقراء ، وتعطى هدايا من الجمال والملابس للأغنياء الاغراب ، القادمين من بعيد . والوجبة تتألف من رز ولحم جمال ، وأحياناً لحم ضأن ، وبجـانب ذلك تقدم الـكليجا [1] والقهوة والتمر باستمرار ، ولا يمكن تقدير ذلك بأقل من ٥٠ جنيهاً في اليوم ، وليكن ٢٠ الف جنيه سنوياً ، أو مع الهدايا ٢٥ الفاً من الجنيهات. وعلى ذلك تكون الميزانية في حدود ٤٥ الف جنيه نفقات مقابل ٨٠ الف إلى ٩٠ الف جنيه دخلاً – وبهذا يتحقق فائض لا بأس به من أجل الحرب وحوادث اخرى ، ولتكديسه في الخزانة وهو أمر تقليدي في آل رشيد ، وعلى أية حال فمن المحتم على أن أقول مرة اخرى أنني أخمن فقط وربما مـا من إنسان في جبل شمر ، ما عدا الأمير نفسه وحمود، يستطيع أن يصنع أكثر مما قلت .

---

(١) الـكليجا نوع من الخبز يعجن بالدهن ويضاف اليه السكر ويخبز حتى ييبس ويبقى وقتاً طويلاً . والـكلمة فارسية ذكرها ابن بطوطة في رحلته (المترجم) .

الازدهار في جبل شمر :

وسوف يتضح من كل هذا أن جبل شمر في حالة ازدهار، من الناحية المالية . فلعنة تسليف النقـــود لم تغزه بعد ، ولا يستطيع لا الأمير ولا الشعب أن يصرف ستة بنسات زيادة عما لديهم .

وحتى الآن،ليس هناك أشغال عامة فيسبيل الانجاز تحتاج الى نفقات عامة ودين عام ، ومن الصعب أن نتصور مكونات هذه الأشغال العامة . وحفر بئر جديدة هي الواجب الوحيد الوحيد الذي يمكن أن تقوم بتنفيذه « جماعة » لأن الطرق غير ضرورية في بـــلد كلها أشبة بطريق مرصوف بالحصباء ، وليس هناك من أنهار حتى تنشأ قنوات،أو ضواحي حتى يحتاج سكانها الى (ترام) ويمكن للمرء أن يتنبأ بثقة أن سر استخدام البخار في النقل سوف يكون قد نسى حتى قبل أن تصل السكة الحديد جبل شمر .

لا يحكم العرب الا العرب :

وبالنسبة لشكل الحكومة ، فهو حسن فقط لأنه فعال .

وانه لأمرٌ غير مطابق لملائمة الأفكار السياسيةالاوربية أن تستقر السلطة العليا في أيدى البدو . إلا أن هذه الأيدي هي

الوحيدة التي تستطيع أن تديرها في بلاد العرب . فالمدينة لا تستطيع أن تقهر الصحراء ، ولذلك من أجل العيش بسلام يجب أن تقهر الصحراء المدينة .

عجز الترك عن حكم الصحراء :

والترك بكل جهـــازهم الاداري وسلطة الثروة والقوة العسكرية ،لم يستطيعوا قط أن يؤمنوا أرواح وأموال المسافرين في الصحراء ، وقد ظلوا في بلاد العرب لا سلطان لهـم في السيطرة على غير المدن . حتى طريق الحج من دمشق ، رغم انه اسمياً في يدهم ، لا يمكنهم عبوره إلا بجيش ومخـــاطرة عظيمة .

الاستقرار والامن

أما ابن رشيد فبمجرد تأثير ارادته ، يحفظ كل الصحراء في سلام مطلق . وفي جبل شمر بأكمله وهو من أقفر الصحاري ويسكنه ناس من أشرس من في العالم ، يمكن للمسافر أن يسير بلا سلاح ولا حراسة . بتسهيلات أو عقبات أكثر مما لو كان يسير في احدى طرق (انجلترا) .

وعلى كل طريق في جبل شمر ، يمكن أن تجد رجالا من المدن يتلكأون على حميرهم ، أو على أقدامهم وبمفردهم ، يحملون كل ما يملكون . وإذا سألتهم عن مخاطر الطرق أعادوا إليك

السؤال : (أو لسنا في بلاد ابن رشيد ؟) . لن يستطيع أي نظام ، مهما كان كاملا ، من نظم العساسة والحصون والحرس أن يأتي بنتائج مثل هذه والأمير البدوي في المدينة ، على استبداده واقع تحت ضبط محكم من الرأي العام .

النظام والقانون :

ومواطنوا جبل شمر ليس لهم ما نسميه بالحقوق الدستورية ، فليس ثمة جهاز منهم لتأكيد سلطتهم غير أن من المحتمل أن ليس هناك مجتمع مـــا في العالم القديم ، يمارس فيه الشعور الشعبي نفوذاً على الحكومة أقوى مما في حائل . فالأمير ، مهما كان غير مسؤول في اعماله الفردية ، يعرف جيداً انــــه لا يستطيع أن يتخطى القانون التقليدي غير المكتوب في بلاد العرب دون أن ينال جزاء فالشيخ غير المحبوب سيتوقف عن أن يكون شيخاً ، ورغم أنه لا يجرد من مركزه باحتفال عام ، ولا يمس بتجريح في شخصه ، إلا أنه سيجد نفسه قد أهمل لصالح عضو آخر من عائلته أكثر قبولاً لدى الناس . وجنود المدينة لن يسندوا طاغية معترفاً به في المدينة ، ولا البدو خارج المدينة سيفعلون ذلك . واذن فان امراء بلاد العرب عليهم أن يعتبروا الرأي العام قبل كل شيء آخر .

فوضى وراثة الحكم

ولعل الخلل في النظام، ولكل نظام خلل ، هو في التباس حق الخلافة في الشياخة أو العرش البدوي . فعند موت الأمير ، إن لم يكن له ابن في سن الرشد وذى مقدرة معترف بها ليتولى مقاليد الحكم ، يقوم النزاع المسلح بين المتنافسين — من اخوة ، وأعمام ، وأولاد العم على الخلافة، وكثيرة ومريرة هي الحروب التي نشأت نتيجة لذلك . ومن ذلك ، الخصومة التي هزت العارض عند موت فيصل ابن تركي آل سعود ، وقادت إلى تحلل الملكية الوهابية (١) .

الكاتبة كانت تتوقع النهاية

وعلى هذا ، فلا يستطيع المرء أن يكتم مخاوفه من أن يكون هذا هو مصير جبل شمر عند موت محمد . فليس لمحمد أبناء ، وأبناء طلال وهم الذين يلونه في سلسلة العرش، لهم من

(١) كلمة (الوهابية) من الكلمات التي أطلقها أعداء الدعوة الاصلاحية التي قام بها الامام محمد بن عبد الوهاب — رحمه الله — على تلك الدعوة ، تنفيراً للناس عن قبولهـا ، وقد شاعت حتى أصبحت علماً لتلك الحركة الاصلاحية ، وللدولة السعودية الكريمة التي آزرتها ونصرتها .

والكاتبة غربية لا تفهم مدلولها ، فاستعملتها كغيرها من الكتاب الذين يجهلون معناها .

حمود منافس خطير. والأمير ما زال صغير السن، (٤٥ سنة) وقد يعيش طويلاً ، ويبدو ، إذا حدث ذلك ، أن خلافة المملكية الوهابية في يديه. لقد صنع هو وأسلافه ، اتحاد جميع مشايخ البدو ، من (مشهد علي إلى المدينة ، تحت قيادته ، وهو على صلة قريبة بمشايخ القصيم والعارض. وسلطته مسيطرة شمالاً حتى (كاف) . وعيناه ترصدان مدنا أبعد إلى الشمال ، فيما لو تحركت ضد القيود التركية .

واني لأنتظر اليوم الذي تتحالف فيه معه أيضاً الرولة وولد علي،وجائز أن تنضم أيضاً السبعة وابن هذال، ولو انه ليس من المحتمل ولا من المرغوب فيه أن يعاد تأسيس الامبراطورية الوهابية بأسسها المركزية ، فاتحاد تعاهدي بين قبائل الشمال يمكن أن يستمر على أحسن تقاليده ، وقد كانت مدن حوران واللجاه والفرات ذات مرة توابع لآل سعود ، ويمكن أن تكون كذلك يوماً ما لآل رشيد . وقد يبدو هذا بعيداً ، ولكنه ليس أبعد مما ينظر محمد [1]

---

(١) حاشية المؤلفة : –
كون محمد بن رشيد لم يقصر اطماعه على نجد فحسب قد ثبت مؤخراً . ففي ابريل الماضي ١٨٨٠ خرج بجيش مكون من ٥٠٠٠ رجل من حائل ومر بوادي السرحان وباغت محمد بن دوخى بن سمير في(حرا؟)،وسلب مخيمه ثم واصل سيره الى حوران . ولم يكن ذعر اهل دمشق قليلا حين علموا ذات صباح ان الامير في (بصرى) على بعد اقل من ٦٠ ميلا من العاصمة السورية وكانت هناك تخمينات كثيرة بالنسبة لاهدافه من التوغل شمالا الى هذا الحد.←

ـــفلم يكن قد شوهد أي جيش من نجد في(البشالك)منذ ايام الامبراطورية الوهابية ثم دار الهمس في ان ابن رشيد قد عقد صداقة مع ابن سمير ، وان الخصومة بينهما كانت خطأ ، وان دليلا شراريا قد اعتبر مسؤولا عن الخطأ فقطع رأسه ، واخيراً اقام ابن رشيد وليمةفخمة لقبائل الشمال للمصالحة وفيها ذبح ٧٥ جملا ، و ٦٠٠ خروف ، وعاد الامير الى نجد بعد ان مكث بعض اسابيع في (الملاح) .

وبدون أن أتظاهر بمعرفة ما كان يدور في ذهن محمد للقيام بهذه الغزوة أو كل ما حدث فعلا ، يبدو لي أنه ليس من الصعب تخمين هدفه الرئيسي . فتغلب ابن سمير على ابن شعلان قد وضعه في مركز قيادي بالنسبة لقبائل الشمال . وغارته ضد دروز حوران - وهو اقليم كان في يوم من الأيام من توابع امراء نجد - احنق محمداً عليه رمن سياسة ابن رشيد أن يضرب ضربة واحدة ثم يتبعها بعقد سلام . وبذلك يقلل من أهمية أنجح الرؤساء ، ويصبح صاحب الانعام عليه، وقد نجح محمد بهذه الخطة في أن ينال السمعة التي يقدرها أكثر بين قبائل الشمال . فقد أكد تفوقه ، حينما اختار أن يكون كذلك ، في الصحراء ، وفوق ذلك ذكر سكان الحدود في سوريا بالمطالب الوهابية القديمة في سوريا الشرقية . ومما يمكن تصوره انه ، وقد أجبر أو أقنع عنزة على الانضمام لجماعته ، قد ينجح بعد تحطيم الامبراطورية العثمانية ، في ضم ذلك الجزء من ميراثها ، ويعترف بسيادته على كل الأراضي الواقعة خلف الأردن .

القسم السابع : في طريق العودة من حائل

(في هذا الفصل ـ وهو الثالث عشر من الجزء الأول من الكتاب - تقدم المؤلفة انطباعاتها عن الحياة في حائل، وعن مشاهد من نجد ، وملاحظات عن العرب ، وموكب الحجاج الفرس ، وهو مشهد قـد اختفى منذ أن حلت وسائل المواصلات الحديثة محل الوسائل القديمة ، وكان مورد دخـل محترم لحكومة ابن رشيد . اشارت اليه الكاتبة في الفصل للسابق) .

« كانت بابـل مقصورة للصيد للنمرود ، ثم أصبحت مدينة البساتين ، والأسوار ، والثروة المذهلة وفيها ساد بنو خذ نصر ، ملكا بين الرجال الى أن انكب على الرعى ذات يوم ذات صيف »
بيرون

« ... آه ما اتعس ذلك الرجل الفقير الذي يعيش على احسان الأمراء . »
شكسبير

حديث عن الدليل :

لقد أشرت إلى الغموض الذي وجدنا أنفسنا محاطين به بعد بضعة أيام من وصولنا إلى حائل، والذي سبب لنا آنذاك قلقاً ليس بالقليل . لقد كان مصدره بعض تصرفات صبيانية من جانب محمد (دليل الكاتبة)، الذي أسكرته الحفاوة اللطيفة التي قابله بها الأمير باعتباره من (آل عروج)، وأخشى ، أن تدليلنا له كان له أيضاً دخل في هذا . وحتى اليوم ، لست متأكدة تماماً من اننا سمعنا بكل ما حدث، ولهذا فاني أمتنع عن الدخول في الموضوع بالتفصيل ، إلا أنه بقدر ما سمعنا ، يبدو أن غرور محمـــد قد قاده إلى أن يكبر من مركزه في عيون رجال بلاط ابن رشيد بتقديمنا كأشخاص وضعهم تحت حمايته،ومن هم بطريق منّا معتمدون عليه ، مفاخراً أن الجمال، والخيول ، والأموال الاخرى هي من ماله ، وأن خدمنا هم قومه . وتحت ظروف عادية كان يمكن أن يكون لهذا الأمر نتيجة غير ذات أهمية،وما كنا لنتذمر منه بسبب تمجيد نفسه

قليلاً على حسابنا ، مدركين – كما كنا – اننا مدينون بالنجاح في رحلتنا حتى الآن أساساً ، إلى اخلاصه .

تكدر من الامير .. ثم صفاء : –

ولكن، لسوء الحظ، كان الدور الذي عينه لنا بهذا الشكل، قد جعل علاقتنا بالأمير ليست محرجة فحسب ، بل خطرة بالتأكيد . كان استقبالنا في البداية وديا للغاية مما جعلنا نتكدر أن نجد بعد أربعة أيام من وصولنا إلى حائل، اننا لم نعد نحظى بالاهتمام الذي حظينا به حتى ذلك الوقت . فقد وقفت هدايا اللعب ، والخروف ، الذي كنا نتحف بـه للغداء ، حل محله لحم جمل . وبدلاً من جنديين يحرساننا في الطريق إلى القصر ، أتى غلام صغير مملوك برسالة . وفي اليوم الخامس لم ندع إلى حفلة المساء ، وفي اليوم السادس ، عندما ذهب (ولفرد) لزيارة القصر ، أخبر باقتضاب أن الأمير لم يكن هناك . ولم نستطع أن نتصور سبباً لهذا التغيير ، وأصبح محمد ، وهـو عادة ، المرح المنشرح الصدر ، عابساً ومحرجاً ، يقضي معظم الوقت مع الخدم في المنزل الخارجي .

و (حَنّـا) حنـّا المخلص ، بدأ يلمح بغموض أن الأمور ليست على ما يرام ، وبدا أن عبد الله وبقية الخدام المسلمين غير عازمين على القيام بواجبهم . وتذكرننا أننا بين ... قوم متعصبين ، فبدأنا نتزعج بشدة .

كنا ما زلنا بعيدين عن تخمين السبب الحقيقي . ولم يعلم

(ولفرد) حقيقة الأمر إلا بعد أسبوع من مجيئنا إلى حائل ، في مقابلة له مع مبارك كبير عبيد الأمير . ولم يكن من المفيد أن نغضب ، فسلوك محمد في الواقع كان صبيانياً أكثر منه عدم ولاء ، وما كان التشكي يستحق الذكر إلا كتصوير لطباع العرب وطريقة تفكيرهم ، وإلا كتوضيح لسبب تقصير مدة إقامتنا في حائل أكثر مما نوينا ، ولماذا انضممنا إلى الحجاج الفرس في طريقهم إلى (مشهد علي) ، بدلاً من ذهابنا إلى التصيم .

وبالطبع لم تقف الأمور عند ذلك ، فعند عودته من مقابلة مبارك وبخ (ولفرد) محمداً على حماقته ، ثم أرسل إلى القصر يطلب مفرج ، رئيس التشريفات ، وهو نفس الرجل المهيب الذي استقبلنا عند وصولنا ، وبعد أن أوضح له الظروف رجاه بدوره أن يشرحها للأمير ووعد الرجل الشيخ في أن يقوم بهذا . ولا شك في أنه وفى بوعده ، لأننا استدعينا إلى القصر مرة أخرى في نفس الليلة واستقبلنا بنفس الود القديم . وانه لما يسجل لترتيبات بلاط حائل أن أي نوع من أنواع الايضاحات لم يكن مدار حديث . ورغم أن محمد وضع في محله اللائق به ، فانه استقبل بلطف ، ان المزيد من الرعاية المحببة هو فقط ما جعلنا نتذكر انه كان هناك سبب للشكوى في وقت ما . أما بالنسبة لمحمد فان علي أن أقول أنه بمجرد ما تبخر غروره ، لم يعد يحمل أي نوع من الحقد بسبب ما

أجبرنا على عمله ، وصار مرة أخرى الصديق البالغ اللطف واليقظة والخدوم الذي كأنه حتى الآن. إن سوء المزاج نقيصة لا يعرفها العرب . ومع ذلك فالحادثة كانت درساً وتحذيرا ، درساً في أننا كنا ما زلنا اوربيين بين آسيويين ، وتحذيراً في أن حائل هي عرين الأسد و ولو أننا لحسن الحظ كنا أصدقاء الأسد . وبدأنا نضع خطتنا للرحيل .

زيارة لمخيم الحجاج : على الخيل :

لم أقل بعد الا قليلا عن الحجاج الفرس ، المخيمين خارج اسوار حائل ، والذي كان مخيمهم من الملامح الرئيسية للمكان ففي يوم ثلاثاء ، أرسل الينا الأمير رسالة يقول أنه يتوقع خروجنا معه للركوب ، وانه سوف يقابلنا في بوابة المدينة حيث كان الحجاج ، وكان يوماً سعيداً لنا ، لا لأننا رأينا الحجاج ،بل لأننا رأينا ماكنا قد قمنا بالرحلة من أجل مشاهدته وكدنا نيأس من ذلك ، أحسن خيول الأمير وهي تعدو :

لقد انشرحنا للمناسبة ، واسرعنا بالاستعداد . وفي نصف ساعة كنا نمتطي أمهارنا ، في الشارع .وكان هناك حشد كبير من الناس يتحرك نحو المخيم ، وخارج المدينة وجدنا موكب الأمير ، استوعب هذا كل فكري لحظة ،لاني لم أر قبل خيول حائل وهي مركوبة. وكان الأمير بملابسه الفاخرة يمتطي مهراً أبيض جميلاً ، بينما تبعته (كروش) الشقراء يمتطيها عبد .

وكان جميع الاصدقاء هناك ، حمود ، وماجد ، وصبيان هما أخواه ، وصبي آخر أصغر قدموه لنا على أنه ابن متعب ، الأمير المتوفي ، والجميع في روح عالية ،وفي لهفة لعرض خيولهم وفروسيتهم ، والى جانب الأمير وتحت حمايته الخاصة ركب الشاب ذو التاريخ المحزن ، نائف ،البقية الباقية من ابناء طلال الذين قتلهم أخوه محمد ، والذي كما يجرى الهمس ، سيدعى يوما ما للانتقام لمقتلهم وكان هناك أيضاً مبارك ، العبد الابيض عبد بالاسم فقط ، لأنه بملامحه كواحد من أسرة الأمير وهو أغنى وأشهر شخصية في حائل .

وتتألف بقية الجماعة من أصدقاء وخدم ، يرتدون أحسن ملابسهم ويمتطون أمهار الأمير . وكان حمود على حصانه الكميت الجميل ، باديا للعيان ، وكالمعتاد ، قام بواجب الضيافة نحونا ، فشرح لنا الاشخاص والاشياء المختلفة التي رأيناها .

صفاء الجو في نجد :

وكان صباحاً لا يمكن للمرء أن يجد مثله إلا في نجد. فالجو مشرق ، منير ، الى درجة لا يستطيع المرء أن يتصورها في أوروبا ، ويملأ النفس بمعنى للحياة مثل ذلك الذي يتذكر الانسان انه أحس به في الطفولة ، ويملؤه رغبة في أن يصيح. والسماء كثيفة الزرقة ، والتلال من أمامنا كأنما هي منحوتة من ياقوت أزرق ، والسهل هش (متجعد) ومستو كمنضدة

(بليارد) يرتفع بلطف في اتجاهها . وعلى الجانب ، أسوار حائل وبروجها ذات المشارف ، والقصر يبزغ من بين كتلة النخيل الكثيفة التي تكاد تبدو سوداء في نور الشمس ، وفي الجانب الآخر ، مخيم الحجاج ، كتلة من الخيام المتعددة الألوان ، زرقاء ، وخضراء ، وحمراء ، وبيضاء . والحجاج أنفسهم في جمهرة سوداء ، يراقبون بتطلع ، وعيون نصف فزعة ، المعرض البربري الذي كوّنا نحن جزءاً منه .

فرصة .. ومعركة مصطنعة :

وأعطى الأمير إشارة التقدم وفي اتجاه الجنوب الغربي تحرك جمعنا في اتجاه دغل من النخيل على بعد ميلين . وفجأة اندفع الامير بمهره في العدو ، والتحم الجمع في معركة مصطنعة في طراد وازدواج الواحد تلو الآخر ، ثم في عودة الى الأمير الذي ظل معنا وارتفع الصراخ كما لو كانوا سيدنون السماء من آذانهم . وفي النهاية لم يعد الأمير بقادر على المقاومة ، فاندفع بنفسه بين الآخرين ، بعد أن اختطف جريدة نخل من أحد العبيد . وفي لحظة نسى هيبته وطباعه المدنية ، وصار بدويا من جديد ، بدويا على حقيقته هو وجميع أسرته ، فارتمت عمامته الحريرية الى الخلف ، وبدا حاسر الرأس ، تسيل ضفائره البدوية في الريح ، حافي القدمين ، عاري الساعدين ، يعدو هنا وهناك ، هاجماً

على الحشد ، يطارِد ويطارَد ، صائحاً ، كأنه لم يشعر قط بهَمّ ، ولم يرتكب جريمة في حياته قط .

ووجدنا أنفسنا وحيدين ، مع وجيه صغير كنا قد رأيناه يركب بجانب الأمير ، وبدا أكثر منا نفوراً في مظهره من هذه التسلية الرائعة . وآمل على الأقل ، أننا بدونا أقل إثارة للسخرية مما بدا . فهو على كديش صغير عسيف ، وفي ملابس من طراز ملابس أطفال أوروبين منذ ٥٠ سنة : صدرية عالية ذات ثنية من الاسفل وسراويل تصل ركبتيه ، وفي قدميه نعل (شبشب) ، وعلى رأسه غطاء بني ، وله وجه حليق يشبه غلاماً سريع النمو ، ولكنه ما كان في الحقيقة الشخص الرئيسي بين الحجاج الفرس كان (علي كولي خان) ابن خان البختيارية الكبير ، الذي عامله الامير من أجل والده بكل تجلة ممكنة ، وكان الآن ، مع بقية الحجاج ، في طريق عودته من مكة . وقد كان من أهداف تنظيم هذه الحفلة هو التأثير عليه بهيبة الامير .

لم نبق وحدنا طويلاً ، فقد توقف العدو في بضع دقائق ثم سرنا باتزاننا السابق ، وبمرور الوقت وصلنا الى نخل ، اتضح فيما بعد أنه من أملاك الأمير ، في بستان محاط بسور عـال . وهنا دعينا الى أن نترجل ، وجلسنا فوق سجادة بسطت تحت الاشجار ، وبسرعة كان الخدم مشغولين بتقديم غذاء خفيف من اللحم الحلو . وترك الاطفال يتسلقون أشجار الليمون

ويساقطون الفواكه ، ثم دارت القهوة . ثم أدت الجماعة كلها الصلاة ما عدانا ، نحن والفارسي ،الذي لم ينضم اليهم في العبادة باعتباره (شيعياً) وركبنا مرة أخرى عائدين الى المنزل ، وهذه المرة ، انضممنا الى الجماعة في العدو ، الذي استؤنف بسرعة ، ناعمين باللهو ، وبهذه الطريقة عدنا الى حائل .

مع رئيس حجاج العجم :

وفي اليوم التالي زار (ولفرد) [١] (علي كولى خان) في خيمته مصطحباً محمـدا الذي عاد الآن رفيقاً معقولاً وتابعاً وادعاء محمد بالحسب والنسب في المخيم الفارسي [٢] ، لم يكن في الواقع ليؤبه بـــه ، لأن الفرس لا يهتمون اطلاقاً بالنبالة العربية ، بل يعاملون العرب جميعاً كبدو وبربريين [٣] .

و (علي كولي) ، رغم انه أصغر اخوته ، كان مسافراً في ابهة ، مصطحباً امه معه ، وعدداً كبيراً من الخدم ، رجالاً ونساء إلى جانب متعهدي احماله ، والعرب الذي يسوسون حيواناته .

وكان مترجمه شخصية مهيبة ، وأتباعه في ملابس كهنوتية مما أضفى عليه مظهراً يشعر بأنه رئيس ذو أهمية . وكانت

---

(١) زوج الكاتبة .

(٢) مخيم حجاج العجم .

(٣) هذا بحسب رأي الكاتبة . والواقع ان المسلمين منهم يحبون العرب .

خيمته تركية الطراز، حسنة الخطوط ومريحة، أرضها مفروشة ببسط أعجمية، وفيها أريكة.

وهناك وجده (ولفرد) يجلس مع صديق قديم. هو عبد الرحمن، ابن تاجر من (كرمان شاه) وهـــو في نفس الوقت وكيل قنصل بريطانيا هناك. وكان أطفـال الفرس لطافاً جداً، ولكن تباين طباعهم عن طباع العرب المتكلفة أثارت انتباه (ولفرد) في الحال. لم يكن هناك أي شيء من ذلك الثناء المحكم، والاستفسارات المهذبة، التي يجدها المرء في حائل، ولكنه استقبال أوربي في شكله. ومن أجل راحة ولفرد اجلسوه الاريكة، وأتوا بالشاي الذي اعـــد على (سَماوَر)، وفي الحال صبّوا عليه تاريخاً طويلاً من معاناتهم في الحج. رووا هذا في عربية مكسرة جداً، وبنبرة لا يستطيع المرء مقاومة لكنتها، لأن الفرس يتكلمون بنغمة بطيئة، غريبة بالنسبة للعربية ولغة (علي) الطبيعية، كما يقول، هي الكردية، ولكن حيث انه شخص متعلم، وضابط في جيش الشاه، فهو يتكلم الفارسية بنفس الاتقان. وفي فارس تلعب العربية في التعليم نفس الدور الذي لعبته اللاتينية في اوربا قبل أن تصبح لغة ميتة تماماً.

حديث عن العرب

وكان علي وعبد الرحمن يصرخان بالشكوى من كل ما هو

عربي ، وبالرغم من وجود محمد ، فقد شتما كل العنصر العربي ، فقر المدن، وجهل المواطنين ولصوصية البدو، والأجور الباهضة للجمالين العرب ، والجمالين ، وبؤس السفر في الصحراء .» هل هناك شيء أبأس مما في سوق حائل ، حيث لا يمكن ان نجد كيس حلوى بالحب أو النقود، ان العرب مجرد برابرة، وشراب قهوة بدلا من الشاي . » وبين وقت وآخر ، ينفجرون في محادثة بلغتهم .

وعلى أية حال ، فقد أحب (ولفرد) (على كولى) ، وافترقا صديقين حميمين ، بدعوة من الشابين الفارسيين للسفر معهم إلى (مشهد) على الفرات ، حيث ينهى الفرس حجهم دائماً بزيارة ضريح علي والحسين .

وبدت هذه فرصة ممتازة ، وبعد مشاورة مع الأمير ، الذي وافق على الخطة، قررنا السفر مع الحجاج حين يسافرون.

زيارة بلدة عقدة ، ووصفها

ولم تكن أيامنا الاخيرة في حائل أقل متعة ، بأية حال . وكبرهان على حسن نية الأمير فقد أعلن انه يمكننا ان نزور (عقدة) ، وهي قلعة في الجبال على بعد اميال من حائل ولم يرها احد من الغرباء قط من قبل .

كتمان موقع عقدة بأمر الأمير !

ولست في حل أن أقول أين تقع بالضبط ، لأننا أرسلنا

لنراها على وعد الكتمان ، ولو اني آمل ألا يتعرض ابن رشيد لخطر غزو أجنبي فلن أقدم مفتاحاً لاعداء احتماليين . يكفي أن أقول : انها تقع في الجبال ، في مركز ذي قوة طبيعية ، وازداد قوة بمجهودات بدائية للتحصين ، وهي بكل تأكيد من أغرب الأمكنة في العالم .

يقترب المرء إليها من السهل عن طريق واد ضيق متعرج ، يذكره كثيراً بوديان جبل سيناء (الطور) ، حيث تبرز صخور (الجرانيت) بغتة على الجانبين خارجة من قاع رملي نقي.

خربة « سنحاريب » !

وعلى واحدة من هذه الصخور نقشت كتابة عربية نقلناها، ولو انها غير جيدة الوضوح إلا انها يمكن أن تقرأ كالتالي :

« هذه خربة سنحاريب» هذا هو المعنى على الأقل في رأي المستر (سابنجي) من ثقات دراسي العربية ، ولو اني لن أغامر لأشرح المناسبة التي اتخذ (سنحاريب) فيها طريقه إلى نجد ، ولا السبب الذي جعله يكتب بالعربية بدلاً من كتابته المسمارية.

ومن داخل التحصينات يتسع الوادي الى مدرج مكون من اتصال ثلاثة وديان أو أربعة ، حيث توجد قرية وبستان من النخيل ، وبجانب ذلك تمتلىء الوديان بالنخيل الوحشي تسقى بالعناية الالهية . أو كما يقول العرب (من الله) ، على الأقل ليس بيد بشرية .

وصف شعري للبلدة :

وهي جميلة جداً في تكوينها – التباين بين خضرة الخصب الخلابة وبين الصخور الجرانيتية العادية التي تطل عليهامن جميع الجهات ، وربما كان ارتفاع هذه الصخور الف قدم ، وتنحدر عموديا الى سطح الوديان الرملي . بحيث تذكر الناظر اليهـــا بوادي الماس حيث تعيش الحيات ، وحيث رمى التجار اللحم لطيور الرخ من احل جمع الماس ، في قصة (السندباد البحري) وما من حيّات تعيش في (عقدة) وانما يعيش هناك قوم من شمر الأمناء ، الذين اضافونا بعطـاء سخي من اصناف التمر والقهوة ، كان من الصعب ان تعدل بينها . وصحبنا فارسان من فرسان الأمير ، من شمر ، قاما بواجب الضيافة في الطريق الى (عقدة) وكل ما فيها كان في الحقيقـة ملك خاص لابن رشيد . وقد قدم لنا هذان الفارسان والقرويون كثيرا من المعلومات عن التلال التي كنا فيها،وأرونا موقع المعركةالكبيرة التي حارب فيها ابو محمد ، وعمه عبيد (ابنَ علي) الأمير السابق للجبل .

ويبدو ان (عقدة) هي اقدم ممتلكات آل رشيد وانهم عند اخذهم لحائل مشى اليهم (آل علي) فتراجعوا الى القلعةمن حيث اداروا المعركة ، وانزلوا هزيمة بأهل (قفار) ضمنت لآل

رشيد السلطة العليا منذ ذلك الحين [١] . وأرونا أيضاً باعتزاز كبير سوراً بناه عبيد ، ليسد الوادي الضيق ، وجعلونا نتفرج على كل شيء ، الآبار والبساتين ، والمنازل بحيث اننا قضينا كل اليوم تقريباً هناك .

حيوان الوبر

كما اخبرونا أيضاً عن الحيوان الغامض الذي يأتي من التلال في الليل فيتسلق النخل من اجل التمر. « بحجم الارنب البري ذي ذيل طويل ، وهو جيد للاكل » كما وصفوه بأنه يجلس على قائمتيه الخلفيتين ، ويصفر ، مما جعل (ولفرد) يظل أنه فأر بري . ولكن هل تتسلق الفئران البرية؟ ويسمونه (الوبر)

أغنية حربية لشمر

وفي عودتنا سارت الخيل تعدو بنا عدوا مبهجاً يرافقنا بدويان (لم يكن محمد معنا) تعلمنا منهما احدى اغاني الحرب لشمر وتجري كالاتي :

(١) لأهل هذه البلدة قصص وملاحم شعرية حول استيلاء (السناعيس) على عقدة ، واخراج (بهيج) منها . ومن شعرهم قصيدة مشهورة عندهم جاء فيها : —

قَبْلِكْ (بهيجٍ) حَدَّرُوه (السناعِيس)
مِنْ (عِقدة) اللّيْ ما يْزَحْزَحْ قَنَاهَا

والسناعيس : عِزوة أهل حائل .

مَا رِيْدَ انا رِكْبَ الذّلولْ
لَوْ زَيَّنُوا لِي شَدَادَهـا [1]
أريدَ انا حَمْــراً شِنُوفْ
حَمْراً سِريعْ أَوْرَادَهـا [2]

وكانا يمتطيان فرسين رشيقين صغيرين، الا انهما لم يستطيما العدو بنفس السرعة التي عدونا بها .

اباء عربي وترفع

ولو كنا في (تركية)، أو أي مكان اخر عدا بلاد العرب لكان علينا ان ننفحهما بسخاء بعد رحلة من هذا النوع ، أما في حائل فشيء من هذا النوع لم يكن ليتوقع . وكان كل من هذين الشمرين بالغ الذكاء ، حسن السلوك، وروحاهما تسموان على النقود . كانا يقومان بواجبهما نحو الأمير ، كشيخ، وليس نحونا كغريبين وقاما به متحمسين .

أجمل أيام حائل

و (عقدة) على ارتفاع ٣،٧٨٠ قدما فوق مستوى سطح البحر ، وحائل على ارتفاع ٣،٥٠٠

---

(١) لا أريد ركوب الناقة المذللة للركوب ، ولو كان (شدادها) رحلها الذي يجلس فيه الراكب قد زين وجمّل بغاية الجمال والراحة .

(٢) أريد فرساً حمراء ، طويلة قوية ، سريعـــة السير ، الانقضاض على العدو ، أورادها (إيرادها) وهو انحدارها مسرعة .

كان هذا أجمل الأيام التي قضيناها في حائــل ، وسوف تعيش طويلا معنا كذكرى منعشة .

في وداع ابن رشيد :

وفي اليوم التالي كنا سنرحل وكان محمد أثناء غيابنا يقوم باستعدادات الرحيل . فابتاع جملين آخرين ومؤونــة شهر من التمر والرز ، بالاضافة الى هدية ممتــازة من بن اليمن ، أرسلها الينا الأمير وكانت آخر مقابلة مــع ابن رشيد متميزة . فلم يكن في القصر ، وإنما في بيت بالقرب من بوابة مكة ، من حيث يستطيع أن يراقب من نافذة دون أن يلاحظه أحد كل ما يجري في مخيم الحجيج أسفل منه . وجدناه وحيــداً ، فقد زال عنه الآن كل خوف من أن نكون مغتالين ، كان هناك في النافذة كطير كاسر ، يحسب بدون شك كم قطعــة أخرى من الفضة يمكن أن يجمعها من الفُرْس قبل أن يكونوا بعيدين عن مخالبه . وبين آونة وأخرى كان يميل الى خارج النافذة التي كانت جزئياً مغطاة بضلفة ، ويصيح بأحد رجاله الذين كانوا يقفون بالخارج مبلغاً إياه رسالة تتعلق بالحجاج . وبـــدا أنه يستمتع بسلطته عليهم ، وهي سلطة مطلقة .

وكان بالنسبة لنا ودوداً ، مجدداً إقامة الحجة على صداقته واهتمامه ، عارضاً أن يعطينا أي شيء نختـــاره ، (هجن) للرحلة ، أو أي واحد من أمهاره . وهذا ، وإن كنا نحب

أن نقبل العرض الأخير ، ما أبيناه ،بالطبع ،وألقى (ولفرد) خطبة قصيرة بالطريقة العربية قائلا فيها : ان الشيء الوحيد الذي نطلبه هو صداقة الامير ، متمنياً له طول العمر . ورجا ابن رشيد أن يعتبره وكيله في أوروبا في حالة احتياجه الى أية مساعدة من أي نوع ،وشكر له اللطف الذي تلقيناه على يديه. ثم اقترح الأمير أن نرجىء رحيلنا ، ونذهب معه في غزو كان سيبدأ به بعد أيام قليلة ، وهو عرض جذاب كان من الصعب أن نرفضه لو تقدم به في وقت مبكر ، فأبيناه الآن. وفي الواقع كانت رؤوسنا بين فكي الاسد وقتاً طويلاً فيه الكفاية ، وكان هدفنا الوحيد الآن هو أن نخرج من العرين بهدوء واحتشام . ومن أجل ذلك اعتذر (ولفرد) بضيق الوقت ، وأضفنا ان جمالنا كانت في الطريق الى الرحيل ، وقلنا : وداعاً ! واستأذنا .

عند الامير حمود:

وكان علينا أن نؤدي زيارة لاعتبارات الصداقة هذه المرة أكثر من اعتبارات الرسميات . فحينما سرنا راكبين خلال المدينة توقفنا عند منزل حمود ، ووجدناه هناك مع كل عائلته . وكان وداعنا لهم بحق تعبيراً عن الأسف للفراق ، وقدم لنا حمود نصيحة سليمة حول ذهابنا مع الحجاج الى

(مشهد علي) بدلا من محاولتنا العبور الى البصرة . فقد نزلت الامطار ، كما قال ، على طريق الحج ، وان البرك ملأى بالماء (برك زبيدة) ، ولذلك فان رحلتنا ستكون سهلة بصفة استثنائية ، بينما ان العبور إلى البصرة سيحتم علينا ان نمر في إقليم عديم المياه ، بدون أن يكون هناك شيء ليعوض عن عن هذه الصعوبة .

ولكن هذا ما يمكن أن ننظر فيه بعد الرحيل ، فالشيء الاول ، كما قلت ، كان هو أن نغادر ، وسوف يكون هناك وقت كاف فيما بعد لوضع تفاصيل خط سيرنا .

هدية للكاتبة وزوجها:

وكان ماجد هناك وتلقى من (ولفرد) كذكرى ، خنجراً اسبانياً ذا مقبض فضي ، ومن أجل ذلك أرسل من يأتي بعباءة سوداء، طوقها مطرز بالذهب، وقدمها هدية إليّ، وكانت هدية مناسبة ، فلم يكن لدي شيء من نوعها ، نعم لم يكن لدي عباءة محترمة على الاطلاق ، وكانت هذه ذات مظهر مهيب وهادىء . ان ماجداً ، على الأقل ، وأنا متأكدة ، يأسف لفراقنا ، ولو تأخذنا الظروف مرة أخرى الى حائل، فسوف يكون أحسن حظ لنا أن نجده أو أباه على العرش . انهما يعتبران الوارثين الطبيعيين للشياخة ، وابن رشيد لا يبدو كمن سيعيش طويلا .

خارج المدينة

امتطينا خيولنا بعد هذا ، وفي خمس دقائق اخرى كنا خارج المدينة . ثم ملتفتين الى الوراء ، شد كل منا نفساً عميقاً فحائل بكل سحر غرابتها ، وسكانها اللطـــاف ، أصبحت كسجن بالنسبة لنا . وفي وقت ما عندما تخاصمنا مع محمـــد بدت كثيرة الشبه بقبر .

غادرنا حائل من نفس البوابة التي دخلنا منها ، وبدا كأنما كان قبل سنين، ولكن بدلا من أن ندور في اتجاه الجبال، حاذينا سور المدينة ، ثم بساتين النخيل التي هي امتداد لها في نحو ثلاثة أميال، منحدرين الى وهدة ضيقة ، ثم خرجنا الى السهل مرة أخرى . وعند مجموعة منعزلة من شجرات الاثل ، توقفنـــا لنتمتع بالظل للمرة الاخيرة قبل أن ننضم الى ركب الحجيج الذي كان يبدو كخط طويل من النمل يعبر السهل بيننا وبين سلسلة جبل شمر الرئيسية .

صفاء الجو في الصحراء

وبدون استثناء ، كان أجمل منظر رأيتـــه في حياتي وسأحاول وصفه ، ويجب أن يكون مفهوماً ، منذ البداية ، ان الجو وهو دائماً صاف في جبل شمر ، كان هذا اليوم ، ذا

صفاء شفاف ، يفوق كل المرئيات في الصحاري العادية أو في المناطق العليا من (الألب) أو في القطب الشمالي ، أو في أي مكان آخر باستثناء – ربما – القمر . لأن هذا هو نفس مركز الصحراء على بعد أربعمائة ميل من البحر، وعلى ارتفاع ٤الاف قدم تقريباً من مستوى سطح البحر .

جمال ضواحي المدينة

ومن أمامنـــا امتدت واجهة أمامية خشنة لرمال محمرة ، وما غسلت الأمطار من صخور جبل أجا (الجرانيتية) مع أدغال عظيمة من الاثل هنا وهناك ، أشجار عظيمـــة ذات فروع مقاس جذورها بين ٢٠ – ٣٠ قدماً . (قسنا إحدى هذه الاشجار ذات الفروع فوجدنا محيط جذعها ٣٦ قدمـاً وارتفاعه عن الارض ٥ أقدام) وتنمو هـــذه الاشجار على روابي صغيرة مبينة مواقع البيوت في الماضي – تماماً مثلمـــا تفعل أشجار السدر في (سوسيكس) – لأن المدينـــة قد انتقلت من نهاية الواحة هذه إلى حيث تقوم الآن . وعبر هذا الرمل يمتد حزام طويل أخضر من الشعير ، ربما كان فدانين وسنابل الغلة الخضراء متألقة ، وقد ارتفعت الى المستوى الذي يسمح بحجب (السواقي) مجاري الماء . وخلف هذا بميل أو أكثر ، يتحول متـــلاشياً أفق الصحراء من اللون الأحمر الى البرتقالي ، حتى يقطعه ما يبدو صفحة مشعة من المياه يعكس

زرقة السماء العميقة – سراب بالطبع ، ولكنه أجمل وهم يمكن تصوره .

وعبر هذا ، وهو ما يبدو خائضاً في الماء ،كان خط جمال الحجاج ، وكل واحد منها ينعكس تماماً في السراب الذي تحته مع نقط زرقاء ، وحمراء ، وخضراء وقرنفلية ، ، ممثلة العفش أو الخيمة التي يحملها . ويمكن ان خط الموكب كان خمسة أميال أو أكثر طولاً ، لم نستطع أن نرى آخره . وما وراء ذلك، مرة أخري،شمخت قنن جبل (أجا) بلون الياقوت في كتلة مختلطة رائعة ، كأغرب وأجمل سلسلة جبال يمكن أن تخطر على الخيال – مرأي حبيب .!!

الكاتبة وزوجها يهزجان بالعربية !

وبعد ان توقفنا معجبين بكل هذا، وانهيت رسما تخطيطياً له – فلم يكن هناك من داع للسرعة – امتطينا جيادنا من جديد وانطلقنا نعدو متمتعين – نحن والجياد – بحريتنا ، ونغني اغنية شمر :

مَا رِيْدَ انا رِكْبَ الذّلولْ

لَوْ زَيَّنُوا لِي شَدَادَها

أريدَ انا حَمْراً شِنُوفْ

حَمْراً سِريعْ أوْرَادَها

وهَزْجُنا بهذه الأغنية أثَرٌ في جيادنا أكثر مما كان يستطيعه

سوط أو مهماز ، وجعل الجمال عندما قربنا من قافـلة الحج ، تجفل، ودفع الحجاج الى ان يفزعوا ظانين ان بدو(حرب) في طريقهم اليهم مرة أخرى .

اللحاق بالحجاج :

هكذا سرنا يتبعنا محمد حتى وصلنا الى طليعة الحجاج والى العلم ذي اللونين الاخضر والاحمر الذي يسير امام الموكب . وبالقرب من هذا وجدنا جمالنا، وبعد ذلك بفترة وجيزةخيمنا معهم ، ليس على بعد لا يبلغ عشرة أميال من حائل ، في واد صغير ركز فيه العلم .

نصبنا خيامنا على بعد ٢٠٠ ياردة من مخيم الحج ، الذي انتصب في احتشاد خوفا من اخطار الصحراء .

أذن المؤذنون لصلاة المغرب، وها هم الناس يؤدون عبادتهم خيولنا تمضغ شعيرها ، وصقرنا (وهو طائر مدرب اشتريناه امس بستة مجيديات من بدوي في حائل) يقبع امامنا ناظراً الى وكره . انه مساء بارد ، ولكن آه كم هو نظيف ومريح في خيمتنا !

الامير الرشيدي يؤخر سير الحجاج

٢ — فبراير :

يبدو أن نصف الحجاج فقط غادروا حائل أمس . لقد

كانت هناك صعوبة فيما يتعلق بالجمال – يقول البعض ، ويقول آخرون إن ابن رشيد لن يتركهم يذهبون. ويحتمل أنها مسألة نقود في كلا الحالين . وهكذا ما كدنا نسير حوالي الميلين ، حتى اصدر أمير الحج (عنبر) و عبـد اسود لابن رشيد أمراً بالتوقف،وبقيت الجمال ورا ' متراصة على قطع مرتفعة من الارض ، لغرض عدهم – كما ذ وعلى اية حال ، فقد استمر الدراويش والحجاج المشاة في سيرهم مما يحبون، وكذلك فعلنا نحن ، لاننا لا نعتبر انفسنا مقيدين بأية قاعدة من قواعد موكب الحج ، وعند عبدالله اوامر ان يسير جمالنا خـــارج حدود الجماعة الرئيسية .

لم يكن هناك أي طريق أو درب اليوم ، وواصلنا سيرنا في مكان ما ، امامنا ، عابرين ارضاً صعبة ووديانا هي أقرب الى الوهاد ، لقد اصبحنا الآن ـ بحثا عن ماء سمعنا انه يقع ـ متعودين على الصحراء ، الى حد اننا ميزنا الماء من بعد كبير ، مخمنين موقعه عن طريق اللون الابيض للارض القريبة منه . ان البياض سببه ترسبات شبه صخرية يكونها الماء حينما يبقى طويلا في أي مكان وفي هذا المثل يقع في مستودعات طبيعية أو في عدةمستودعات في بطن واد ضحل. وهذه (المستودعات) لا بد انها قد امتلأت في وقت ، ماء اثناء الشتاء بفعل المطر ، واسرعنا لنملأ قربنا منها ، وهي لا تزال نظيفة، لأن الحجاج سريعاً سيشربون منها وسيلوثونها. انها ليست سوى برك صغيرة وجدنا (عواد) قد وصل الى هناك،وكان قد ارسل في المقدمة

مع ذلول ليضمن تموينا،ولم تكد اجراءات ملء القرب تنتهي حتى وصل الدراريش الذين يسيرون دائماً على رأس الحجاج . ولهم عادة كريهة هي انهم يغتسلون في الماء اولا ، ثم يشربونه بعد ذلك ، وهي طبقاً لما سمعنا جزء من طقوسهم الدينية .

كانت الريح تهب بعنف طول اليوم محملة بقدر كبير من الرمال ، ولكنها الآن قد كفت . كان طريقنا منذ غادرنا حائل شرقاً بشمال . ويتجه نحو تل مرتفع ، جبل (جلديه)، وهو علم بادي الظهور . ان مخيمنا الليلة أسر منه بالامس لأنه أبعد عن الحجاج ؛ ولدينا واد صغير كله لنا ، مع وفرة في الوقود الجيد ، وعلف للجمال .

٣ — فبراير :

مع ان النيران اوقدت هذا الصباح في الساعة الرابعة كما لو كان استعداداً للرحيل المبكر ، فلم تبدأ أية حركة ، اليوم . نصف الحجاج ما زالوا في حائل — كما اخبرونا — ويجب ان ينتظروا . ذهب اليوم (ولفرد) ليبحث عن صديقنا (علي كولي خان)، ولكنه لم يجد احداً سواء هو او عبد الرحمن، او أي شخص آخر يعرفه قد وصل .

مقارنة بين اخلاق العرب واخلاق

العجم

ان الحجاج الفرس ، مع انهم غير مقبولين في أشخاصهم

وعاداتهم (لأنهم يفتقرون الى اللباقة التي هي سجية عربية) وَدُودُون بشكل كاف ، ولو أمكن التحدث اليهم ، لكان ذلك ممتعاً ، غير انهم يبدون من المقارنة السطحية مع العرب أفظاظاً ومملين . ومعظمهم ذوو سحن صافيــة ، وقد يكون شعرهم أشقر وعيونهم زرقاء،ولكن ملامحهم خشنة (غليظة)، وهناك من الفرق الكبير بينهم وبين (شمر) الذين يحرسونهم مثل الفرق بين حصان عربة (هولاندي) وبين مهر من أمهار ابن رشيد . وبالرغم من الاستحمام الذي يقومون بـه بمناسبة وبدون مناسبة طول اليوم ، فانهم يبدون قذرين ، بشكل لا يوصف ، في ملابسهم ذات الملمس الدهني ، كما لم يبد أي عربي لم يستحم. وبين آونة وأخرى يثور النزاع بين(عواد)والآخرين وبينهم كلما اقتربوا من خيامنا بحثاً عن وقود ، ومن الواضح انه ليس هناك حب مفقود بين الفرس والعرب .

قضيت يومي بشكل مريح في المنزل،أعيد حشو سرجي، الذي كان يحتاج الى ذلك بشكل يرثى له .

وقد عاد محمد الى نفسه الاصيلة تماماً ، بدون تعاظم ، ولا تظرف من أي نوع ، ويقول : ان هواء حائـــل لم يناسبه . ويبدو أنه الآن قلق ليمحو كل أثر لذكرى الماضي ، وقدجعل نفسه مقبولا ، يحكى لنا القصص المتعلقة بـ (السبعة)وخيولهم وكلها ذات عبرة ، وبعضها مسل .

يوم آخر .. حتى يؤذن للحجاج بالسفر

٤ - فبراير : -

يوم آخر من الانتظار ، والحجاج مثلنا عجلون ، ولكن العجلة ليست حسنة . ولكي نشغل الوقت ، ذهب (ولفرد) بنفسه في عملية مسح ، مع مهره والكلاب السلوقية ، سار في خط مستقيم في اتجاه الشمال، نحو صف من التلال المنخفضة، التي يمكن رؤيتها من هنا من الارض المرتفعة وهي على بعد ١٢ ميلا . لم يقابل أي انسان ما عدا بدويين على ذلول ذاهبين إلى (عطوه؟) حيث توجد بئر- على حد قولهما . نظرا اليه والى بندقيته بريبة، ولم يحبا أن يكونا موضع استجواب . وبعد ذلك وجد الصحراء خالية من الحياة ، متتابعات من السهول الرملية المستوية ، وسلاسل خشنة من الصخور الرملية . والتلال ذاتها التي وصلها قبل ان يقفل عائدا كانت ايضاً من الصخور الرملية الصفراء ، تميل إلى السواد في بعض البقع ، ومن قمة السلسلة قدر ان يميز النفود كبحر احمر . وقطع المسافة ذهابا وأوبة في ثلاث ساعات عدوا . وكان ذهابه مفيدا من حيث انه مكنه من ان يعرف موقع عدد تلال رئيسية، لـ (ياطب) و (جلديه)، وتلال أخرى ، ويضعها على خريطته . لم يخبرني أين كان قاصدا ، وبما ان الامر قد وقع، فقد عاد قبل أن يمر وقت كاف يجعلني أقلق .

وفي الوقت ذاته، كان عواد وعبد الله يعطيان الصقر درساً

بطعم صنعاه من المخلاة . ويبدو أن الطائر أليف، فيذهب إلى عواد عندما يدعوه صائحاً (اشو،آشو) ، والتي يفسرها بانها اختصار لاسمه ، (رشام) وهي تحريف لكلمة (راشمون) والتي تعني (لامع كالبرق) . ونأمل الآن بمساعدة (رشام) أن يكون مــــددنا من اللحم متصلا ، فان الارانب البرية موجودة بوفرة .

جاء زوار بعد الظهر ، بعضهم بدو من شمر من عائلة ابن طوالة ، الذين فضلوا أن يخيموا بجانبنا ، كجيران أخف ظلاً عليهم من الفرس . انهم في طريقهم من حائل إلى خيامهم في النفود ، ومعهم رسالة من الأمير أن جمالاً اخرى مطلوبة ، ثم يذهبون بعد ذلك مع الحجاج إلى مشهد علي ، وربما حتى السماوة على الفرات ، ليشتروا رزاً (تـمّن) وبرا .

مرتين في السنة فقط يستطيع جبل شمر أن يتصل بالعالم الخارجي ، مناسبة عبور الحجاج ذاهبين وعائدين من مكة . انهم حينئذ يجمعون مؤنهم للسنة . وأكبر هؤلاء (الطولة) رجل في الستين من عمره ، حسن الطباع ، ولطيف ، تناول غذاءه مع محمد والخدم في خيمهم ، ثم جاء للجلوس معنا بعد ذلك في خيمتنا . اننا حائرون بين أمرين : بين أن نسافر مع الحجاج المتلكئين وبين أن نذهب معه غداً . ولكن خيامه تقع — إلى حد ما — يسار طريقنا .

وبالاضافة إلى (الطولة) ، يوجد بعض فقراء البدو مع جمالهم التي أناخوها في وادينا، حتى تكون بعيدة عن الأنظار. انهم خائفون أن يوهموا بانهم حجاج، وفي البداية كان من الصعب أن نفهم سبب هذا الخوف .

وإذا كان الأمر كذلك ، فكان يجب أن يقتربوا منه . ولكنهم أوضحوا انهم أملوا أن ينغمروا في الحشد ، وأملوا أن ينالوا ميزات مصاحبته ، بدون أن تثقل جمالهم بالأحمال . وهم ، مثل غيرهم في طريقهم إلى (مشهد علي) لشراء حنطة .

هناك اخبار ان الامير قادم غداً من حائل، وانه سيسافر ثلاثة ايام مع موكب الحج ، متجهاً بعد ذلك الى حيث لا يعلم انسان ، في غزو . سيكون هذا امراً متعباً ، لأننا الآن ، وقد ودعناه ، نريد ان نبعد عنه .

رحلة قصيرة

٥ فبراير :

واخيراً تحركنا ، ولكن عشرة اميال اخرى فقط ، الى واد اكبر ، يبدو انه مسيل الجهة بأكملها ، ويدعونه وادي (الخنصر) ، اما لماذا سمي هكذا ؟ لا استطيع القول . وتوجد هنا عدد من الآبار ، وبقع كبيرة من كلأ الإبل ، من النوع الذي يسمى (رِمْث) وتكثر في هذا المكان

الارانب البرية ، وقد قمنا ببعض المطاردة مع كلابنا السلوقية ، يساعدها كلب من كلاب الصيد ، ألحق نفسه بنا ، ويسميه الخدم (مرزوق) ، وهو حيوان غير جذاب ولكنه يمتاز بحاسة شم قوية .

مكان اثري ، ذو كتابات وصور

وبعد ساعتين أتينا الى تل عجيب ينتصب وحيداً في السهل . وهو ، مثل سائر الجهات ، الآن ، من الصخر الرملي وسرّنا ان نجده مغطى بنقوش ، وصور طيور وحيوانات من نفس النوع الذي شاهدناه من قبل ، ولكنها بطريقة احسن كثيراً ، وعلى مقاس اكبر [1] .

والكتابة ، اياً كان اسمها ، جميلة جداً وواضحة ومتناسقة كوضوح وتناسق الحروف الاغريقية او اللاتينية الكبيرة ، وبعض الرسوم لها خصائص الفن الخام ، ولكنها فنية حقاً ،

(١) بخبر من السيد رسام ، الذي أجرى حفريات في بابل ، ان هذه النقوش هي بالحروف الفينيقية القديمة . ويبدو أن الفينيقيين ، وهم أمة من التجار ، كان من عاداتهم ارسال مسافرين تجاريين بعينات من بضائعهم في كل أنحاء آسيا . وحينا يتوقفون على الطريق ، ينقشون اسماءهم ، اذا وجدوا صخرة لينة ، ويرسمون صور حيوانات. وقد يكون هذا التفسير هو الصواب، ولكن كيف يعمد هؤلاء التجار الى اختيار موضوعات صحراوية بحتة لفنهم- جمال ، ونعام ، ووعول ، وفرسان برماح . اني اتخيل أن هذه من أعمال العرب . أو من يمثل العرب كائناً من كان ، في عهد مضى ، انها على أي حال من أعمال قوم كانوا يعيشون في البلد . ولكني لست من علماء الآثار. (الأصل)

وهي لا يمكن ان تكون عمل مجرد بربريين .

ومن الملحوظ ان الحيوانات الممثلة هي بشكل اساسي عربية ، الغزال، والجمل ، والوعل ، والنعامة . ولاحظت ايضاً ان شجرة النخل عولجت بطريقة تقليدية ، ولكن لا شيء مثل بيت ، او حتى خيمة . والموضوع الرئيسي هو تكوين من جملين متقاطعي العنقين ، هو تكوين لا يستهان بخصائصه ، ويصاحبه نقش منتظم الحفر . ويدل على ان هذه الاشياء قديمة . لون الخطوط ، والصخرة من اصل رملي محمر ، مع ميل الى الاسوداد ، ومن الواضح ان الحروف والرسوم عندما كانت جديدة كانت حمراء على ارضية سوداء ولكنها الآن قد تغلب عليها مرة اخرى ، وهي عملية لا بد انها احتاجت الى قرون لتحدث تأثيراً في هذا المناخ الجاف .

كنا في مقدمة الحجاج عندما اتينا إلى هذا التل (تل السيلية ؟) وانتظرنا على قمته ، بينما كان الموكب يمر بنا ، ساعة أو اكثر . كان منظر غريبا . ومن الارتفاع الذي كنا نقف فيه ، استطعنا أن نرى مسافة ثلاثين أو اربعين ميلا ، حتى جبل (أجا) على السفح الذي تقع عليه حائل .

موكب الحجاج

وكان الموكب بطول ثلاثة أميال ، مؤلفا من نحو أربعة آلاف جمل (ولم يكن هذا كل الحجاج) ، مع عدد كبير من المشاة .

مشاة الحجاج

وفي المقدمة كان الدراويش ، يسيرون مسرعين ، يجرون تقريبا ، أناس قذرون متوحشون ، ولكنهم لطيفون ، ومستعدون لتبادل الحديث . لو كانوا يعرفون العربية ، ثم مجموعة من الناس في ملابس محترمة ، يمشون بدافع الورع ، رجل بعمامة خضراء ضخمة نعتقد أنه افغاني، وشاب نحيف ، حسن المنظر ، قد يكون من الكتبة أومساعد صاحب دكان، يقرأ في قرطاس ملفوف يمشي . وآخرون يحملون في ايديهم زمزميات من الجلد تحتوي على ماء وضوئهم ، الذي يقفون بين آونة وأخرى ليقوموا به . وأحياناً يغنون أو يرددون أدعية

كل هؤلاء المتعبدين خشنون معنا ، لا يردون إذا حييناهم، ويسقطون في الفزع إذا اقتربت منهم الكلاب خشية أن تمسهم فتدنسهم . وقف واحد منهم ، الشاب ذو القرطاس الملفوف، هذا الصباح عند نارنا ليدفىء يديه، فقدمنا له كوبا من القهوة، ولكنه قال : انه قد افطر ، واستدار ليتحدث إلى الخدم ، زملائه المسلمين ، غير ان الخدم أخبروه أن ينصرف ، لأن رفض فنجان من القهوة عند العرب يعتبر اهانة ، وتكادتكون معادلة لاعلان حرب ، ان العرب لا يفهمون تعصب الشيعة الفرس الديني .

الموكب .. والعلم الرشيديان :

وخلف هؤلاء المسرعين في المقدمة يأتي (البيرق) محمولا في وسط جماعة تمتطى هجنا عليها حلى ، وتمشي مسرعة . هذه المخلوقات الجميلة لها معاطف كالاطلس . وعيون كعيون الغزلان ، وحركة رشيقة يعجز عنها الوصف . حتى الحصان العربي ليس له مثل منظر الجمال الكريمة الاصل ، انها تعرف بـ (النائمية) لان المرء قد يذهب في النوم وهو راكب عليها دون أدنى هزة تزعجه .

و (البيرق) وهو لواء ابن رشيد ، مربع من الحرير الارجواني ذو حافة خضراء يتوسطه شعار أبيض . ويقوم بحمله خادم على هجين طويل، وعادة يطوى جزئياأثناء المسير، و (عنبر) أمير الحج الزنجي،غالبا ما يصاحب هذه المجموعة وله مهر صغير أبيض يسوسه عبد يسير وراءه لم نره راكباً .

وخلف (البيرق) يأتي جمع الحجاج ، كل اثنين يركبان جملا أحيانا ، وعلى الجمل أحيانا صندوقان من كل جهة . يضمان الاثاث . والجمال يملكها البدو ، هم غالبا من شمر ، وكثير منهم من الغيو ، أو الشرارات أو (الحويسن ؟) ويسيرون وراء جمالهم مشيا على الاقدام ، وهم في خصام دائم مع الحجاج ، الا أنه لو وصل الامر إلى الاشتباك فان شرطة ابن رشيد الهجانة تتدخل ، وتنتهي الخصومة بطريقة مختصرة.

بين الفارسي .. وبين الجمل !

والفارسي ، وهو يركب جملاً أعظم منظر في العالم مثير للسخرية . فهو يصر على أن يركب مدلياً رجليه على الجانبين ويبدو أنه غير قادر على الأطلاق ان يفهم طباع (الحيوان) الذي يركبه ، وهو يتحدث اليه بصوته النشاز بلغة لا يمكن أبداً لجمل عربي أن يفهمها ، والنكات التي يطلقها العرب على الفرس لا تنقطع قط من الصباح حتى المساء .

وصف المحمل (الهودج)

وأحسن طبقات الحجاج، وطبعاً جميع النساء عدا الفقيرات، يسافرون على محامل – سلال من القش على كل جمل منها اثنان – مغطاة ، مثل عربة التاجر بستارة زرقاء او حمراء ، شخص او اثنان يملكان (تختروانات) ، وهي معدات اكثر تكلفة ، وتحتاج الى بغلين – او جملين لحملها – واحد من الامام وآخر من الخلف ، وفي أي من هذين الوسيلتين يمكن المسافر ان يقعد القرفصاء او يتمدد لينام ، والجمال التي تختار لحمل المحامل قوية ، ذات خطو مستو، وبعض هذه (الهوادج) المزدوجة مهيأة بعناية ورشاقة بالبسط الفارسية الفاخرة، ويقود الجمل سائق موثوق به، ويسير الخدم أحياناً على جانبه (الجمل) ويحتفظ احد الحجاج برجل يمشي أمامه يحمل (نارجيلة)

يدخن منها بواسطة انبوبة طويلة ، وهو جالس في (الهودج). ويوجد عدد من الخيول – ربما ستة . ويسمى احدها (خيلان حرقان ؟) اشتراه منذ يومين حاج غني من بدوي من شمر – أحد الحرس . ويبدو ان هذا الحصان كريم الأصل . طبقاً لما يستطاع الحكم عليه من رأسه وذنبه ، وارساغه، وبقية جسمه يخفيه (بعلان ؟) او سرج للحمل – مزين بالحلى ، وعليه يركب مالكه الجديد . ولم أر شيئاً آخر يستحق الذكر .

تتابع الموكب أمامنا بينما كنا جالسين على تل (السيلية) فوق رؤسهم تماماً .

حجاج من أهل المدينة

عرفنا بعض الناس – حجازيين من المدينة – الذين أتوا اليوم إلى خيمتنا وجلسوا بمودة لشرب القهوة معنا. والحجازيون، ولو انهم معدودون عرباً خلصاً ، سود كالزنوج تقريباً ، ذوو ملامح قميئة دنيئة ، لا تشبه قط ملامح شمر والعناصر القحة التي شاهدناها . وهم يفتقرون أيضاً إلى الكرامة ولهم سمعة غير حسنة ، في هذا الجزء من بلاد العرب .

حديث مع شيخ الحرم المدني

وكان هؤلاء أناســاً معروفين . ورئيسهم ، (صالح بن

بنجى ؟) هو سادن المسجد الكبير في المدينة ، وهو الآن يسافر إلى فارس لجمع الصدقات . وقد أخبرنا انه ، مع عزمه التام على أن يصادقنا هنا ويشرب قهوتنا لا يستطيع أن ينصحنا بالذهاب إلى المدينة . لا لأن ليس للانجليز كانكليز صيت حسن ، ولكن لأنه يخالف القاعدة : (لن يسمح لغير المسلمين بدخول المدينة) فاذا جئنا كمسلمين ، فذلك حسن ، أما كنصارى فغير ممكن — انه هو نفسه سيكون أول من يحاول أن يتمم موتنا . لقد وجدوا يهوديا في السنة الماضية في المدينة فأعدموه ، وغضب الناس جداً لأن السلطان أرسل مهندساً (افرنجياً) ليقوم بمسح المنطقة، وأشاع انه كان مسلماً. وتطبق القاعدة بالنسبة للمدينتين المقدستين ، مكة والمدينة ، وليس لبقية البلاد .

والمسلمون من رعايا الملكة (فكتوريا ملكة انجلترا) الذين يأتون من الهند يستقبلون دائماً استقبالاً حسناً (حتى ولو كانوا شيعة) ، وكذلك سنكون لو أسلمنا .

والفرس ، وان عاملهم الحجازيون بتسامح ، مكروهون كفرس ، وزنادقة ، وكثيراً ما يضربون في المدينة . وهو ، (أي صالح) كان ذاهباً ليجمع منهم نقوداً ، وكأنهم أغبياء إلى الدرجة التي يعطونه اياها، إلا أنه لم يحرص على مرافقتهم. انه حالاً سيسافر معنا . وقد نلتقي في هذه الجولة خلال فارس . شيء واحد لم يستطع فهمه عن الحكومة البريطانيه ،

هو : ما هي مصلحتها الدنيوية في تدخلها في تجارة الرقيق ؟.
قلنا : انها منع القسوة. ولكنه أصر على ألا قسوة فيها وسأل: (من ذا الذي رأى زنجياً تساء معاملته ؟) لم نستطع أن نقول اننا رأينا ذلك في بلاد العرب ، وحقاً انه لشيء مشهور أن العبيد عند العرب كالأطفال المدللين أكثر من كونهم خدماً .

وكان علينا أن نوضح أن العبيد أسيئت معاملتهم في اقطار أخرى ، ولكن بما أن (صالحا) ظل غير مقتنع ، فاننا استطعنا فقط أن نخلص إلى أن ننتهى إلى ملاحظة عامة ، وهي أن هذا التدخل في تجارة الرقيق هو (شغل حكومة)، وليس من شئوننا . وبدا أنه مطلع اطلاعاً لا بأس به على ما كان يجري في العالم فقد سمع عن الحرب الروسية ، ولو انه لم يسمع كل الظروف المتعلقة بانتهائها ، والتنازل عن (قبرص)، التي أشار اليها على أن السلطان أعطاها كـ (بخشيش) لملكة الانكليز . وكانت آخر كلماته : (الكلام بصراحة أحسن . هنا أنا صديقكم ، لكن ، تذكروا ، ليس في المدينة ، لأمر يتعلق بالدين) .

من (حائل) الى (الفرات)

« تعالى ، يا ميرها ، فلنذهب الى الفرات . »
بيرون

٦ فبراير : (١٨٧٩ م) .

نحن متعبون من تلكؤ الحجاج ، وفوق ذلك ، لا نحرص

أن نرى ابن الرشيد الذي يتوقع وصوله اليوم ، مرة أخرى .
انها قاعدة طيبة الا تتجاوز اقامتك الترحيب بك،وأن تذهب عندما تكون قد قلت كلمة الوداع ، وهكذا ، عندما لم نجد أية شارة للتحرك في معسكر الحجاج هذا الصباح ، قررنا أن نسير بدونهم . اننا لم نذهب بعيداً بعد ، حقا ، فمن الأرض العالية حيث نخيم نستطيع أن نرى دخان المعسكر يرتفع في طرف السهل ، ويوجد كلأ وفير هنا .

(بقعاء) أو (طيبة اسم)

ولدينا منظر رفيع واسع الى الجنوب والغرب جبـــل « جلدية » في اتجاه الجنوب منا ، وجبل « أجا » الى الغرب بجنوب ، وحائل على بعد اربعين ميـلا تقريباً ، والى الشمال النفود ، وخلفنـــا من الشرق الى السلسلة التي فوق مخيمنا ، نستطيع ان نتصفح سبخة تبعد ستة او سبعة اميـال ، مع واحة (بقعا) او (طيبة اسم) – طاب اسمهـا – حول شواطئها . لقد كان المحل يسمى دائماً (نقعة) ، هكذا أخبرنا، حتى سنوات قليلة ، حينما ظن ان الاسم كان سيء الحظ ، أوغير ، ولو انني لا استطيع ان افهم تمامـاً لماذا ، لأن الكلمة تعني المكان حيث يمكن ان يجمع الماء .

لحم ارانب برية .. على ضوء القمر

طيرنا صقرنا اليوم ، وبعد مرة او مرتين من خيبة الأمـل

قبض لنا على ارنب بري . ان الوديان مليئة بالارانب البرية ، ولكن الكلاب لا تستطيع رؤيتها في الاجمات العالية ، وكان هذا هو الوحيد الذي انطلق في المكشوف . خيمنا في وقت مبكر ، واننا لننعم بالعزلة . سيكون القمر مكتملاً الليلة ، وانه ليدفع الى التفكير ،كم من ضوئه قد ذهب سدى بالتأخير ، ان القمر ذو فائدة قليلة للسفر بعد ان يكتمل .

٧ فبراير (١٨٧٩ م)

مع اننا لم نحرك مخيمنا اليوم ، فقد ركبنا طويلاً ، وبلغنا بعيداً حتى قرية (طيبة اسم) ، التي هي جديرة بالمشاهدة ، انها مكان غريب ، يشبه (جبة) فيما يتعلق بالموقع . حقـاً ، يبدو محتملاً ان معظم مدن نجد تشترك في هذا الملمح ، ذلك انها تقع في تجاويف ينصرف الماء نحوها ، كما انــه في موقع كهذا يمكن ان تحفر الابار بدون جهـد كبير ، مثل جبة ، فطيبــة اسم سبخة ، ولكن الاخيرة في جملتها واحة اكثر اهمية ، لأن بساتين النخيل تصل تقريبـاً الى كل مـا حوالي البحيرة ، ولو انها ليست متصلة تماماً ، فمن المحتم ان لها امتداد يبلغ اربعة او خمسة اميال. وتبدو البيوت متناثرة في مجموعات على امتداد هذا الطول ، وليس هناك مدينة خاصة [١] .

---

(١) كانت طيبة اسم هي المكان الذي فر اليه عبد الله بن سعود منذ عشر سنين حينما أخرجه أخوه من العارض ، ومنها أرسل تلك الرسالة الغادرة الى مدحت باشا في بغداد والتي أتت بالترك الى الاحساء وحطمت الامبراطورية الوهابية وهناك وجدت بقع من رمل النفود مع عاذر النفود الأخضر.(الأصل)

(جيولوجية) اقليم الجبل

(ان جيولوجية) الاقليم هي أكثر ما يثير الاهتمام ففي طرف السبخة ينبثق الصخر الرملي من جروف غريبة رائعة ، ليس أكثر من ٥٠ قدماً ارتفاعاً) ولكنها ذات شكل مهيب بعضها ، وقد اتخذ شكل الفطر (نبات المشروم) يكشف أن السبخة كانت حتما في زمن ما بحيرة هامة ، بدلا من الشبيه الجاف لبحيرة كما هي الان . قسنا أكبر هذه ، فوجدناها اربعينقدماً طولا باتساع ٢٥ قدما في اعلاها ، بجذع ذيخمسة اقدام فقط ، والكتلة كلها ترسو على قاعدة عالية . وبدت الصخور الاخرى كما لو كانت قد بردت فجأة وهي في حالة غليان وحارة حمراء ، وتحجرت الفقاعات عندما صعدت . كانت هناك الواح عريضة من الصخر ذات لون وردي مثل القشدة بالفراولة (كريم فراولة) اكثر من صب القشدة فيها ولما تمزج بعد،معرقة بلون أحمر فاتح وأبيض.وهناالنبات ناميا عليها ، مع تجمعات من النخيل الوحشي ، ونباتات الطرفاءمع بركة أو بركتين من الماء المر .

واحة (بقعاء)

والسبخة ، ولو أنها جافة تماماً ، بدت مثل بحيرة هكذا كان السراب كاملا من الماء الازرق الصافي بدون تموج تعكس

النخيل والبيوت على الشط المقابل . مررنا الى بعض من هذه ، فوجدنا بساتين جميلة،ومزارع حسنة مع بقع منالشعير الاخضر نام في الخارج،كانت هذه تروي من آبار عمقها حوالي ٤٥ قدماً ذات ماء طيب ، متح الناس منه من اجل أمهارنا لتسقى . مررنا ولكننا لمنذهب داخل قصر الميدان الكبير الذي يملكه ابن رشيد ، حيث كان بضعة (درزن او هكذا) من دراويش الحج يتسكعون حوله - سألونا عن الأخبار ما اذا كان الامير قد جاء ، وما اذا كان الحجاج ما زالوا منتظرين . وكم يكن معظم هؤلاء من دراويش الفرس ، ولو انهم شيعة ، بل من بغداد ومشهد على ناس من العنصر العربي .

لبن الابل .. ورسالة من الامير

وفي طريق عودتنا ، مررنا بجماعة من بدو شمر ، يأتون بجمالهم للسقيا من النفود ، وهو قريب من هنا.قدموا لنا بعضا من اللبن لنشرب ، اول ما ذقنا هذا العام. كانت هناك نساء معهم . قابلنا ايضاً رجلاً وحيداً على ذلول رفيعـة . وابدى محمد ملاحظة عن هذا الحيوان كانت نوعاً ما عارية عن الثناء وعند ذلك اوضح المالك في ازدراء عظيم انها كانت (بنت عدهان) ، احسن سلالة للنجائب في بلاد العرب ، وان محمدا لو قدم له مائة جنيه لما باعها ، وانها كانت الراحلة التي كان ابن رشيد يبعثها في مهات تحتاج الى سرعة . ثم هب مبتعداً

في خطوات ، رغم انها بدت شيئا لا يستحق الملاحظة ، فانها سرعان ما اخفته عن الانظار .

ذهب عواد وابراهيم القصير عائدين الى معسكر الحجاج من اجل الماء، وعادوا يحملون اخباراً تقول: ان الامير وصل بالفعل ورسالة منه، مؤداها اننا اذا ذهبنا الى آبار (الشعيبة) فسوف يقابلنا هناك .

القسم الاخير : عن الخيل

(هذا هو الفصل الثاني عشر ، تصف فيه الكاتبة مشاهداتها عن الخيل في نجد -

وموضوع الخيل كان هو الدافع الأول للقيام بالرحلة) وقد أنشأت الكاتبة اصطبلا (مزرعة) في لندن ، لتربية الخيول العربية ، لا يزال موجوداً) ·

شهرة خيل ابن رشيد

« ولم اجد فيها هذه الاشكال التي توقعت أن اجدها في موطن زيد الخيل » – غراماني[1]

وعدت بفصل عن الخيل التي رأينا في حائل ، وقد يكون حسناً أن أفي به هنا .

ان مزرعة ابن رشيد لتربية الخيل هي الآن أشهر من نار على علم في جزيرة العرب ، وقد احتلت في تقدير الجمهور مكان مزرعة فيصل بن سعود التي رآها المستر بلجريف منذ ستة عشر عاماً في الرياض، والتي وصفها في فقرات تصويرية أصبحت منذ ذلك الحين موضع اقتباس .

ويكمن السبب في انتقال التفوق هذا من العارض الى جبل شمر في التغييرات السياسية التي حدثت منذ ١٨٦٥ ، والتي

(١) كارلو غراماني رحالة اوربي جاء الى حائل سنة ١٨٦٤ م للبحث عن الخيول الأصيلة (أنظر طرفاً من أخباره في كتاب « اكتشاف جزيرة العرب » ص ٢٨٨) وزيد الخيل هو الفارس الطائي المعروف .

أخرجت زعامة اواسط بلاد العرب من أيـــدي آل سعود ووضعتها في أيدي أمراء حائل .

وليس محمد بن رشيد الآن أقوى شيوخ البدو فحسب ، بل أغنى أمير في بلاد العرب ، وبهذه الصفةلديه من الوسائل أفضل مما لدى الآخرين لاقتناء أحسن خيول نجد ، وما كان هو ليهمل هذه .

ان امتلاك أمهار أصيلة هو بين العرب دائماً رمز للقوة ، وبفقدان مركزهم المتفوق في نجد ، فقد آل سعود سيطرتهم على السوق ، ومالت حظيرتهم لتربية الخيل الى التضاؤل ، وان نزاع الاخوين عبدالله وسعود ، ابني فيصل ، عند موت أبيهما ، وانتصاراتهما وحروبهما المتبادلة في العاصمة ، والتدمير الذي أنزله الترك بها ، كل ذلك حطم مؤسسة اعتمدت على الثروة والأمن والطمأنينة من أجل صيانتها ، وفي اللحظة الحاضرة اذا صح ما تتحدث به التقارير الشائعة ، لا يكاد الجزء الذي بقي في الحظيرة القديمة يوازي الخمس . وانتقلت البقية الى أيد أخرى .

خيل آل سعود :

أما ان حظيرة فيصل لتربية الخيل في أيامها كانت أحسن حظيرة في بلاد العرب فذلك محتمل ، وقـد تكون – لعدم

وجود تجميع الآن هناك — مزية مساوية ، الا أن هناك سبباً صغيراً ، فيما يبدو ، لافتراض انها اختلفت في أي شيء فيما عدا الدرجة عما رأينا نحن بانفسنا ، او ان الحيوانات المكونة لها كانت متميزة عن تلك التي لا تزال تمتلكها مختلف قبائل البدو في نجد . على العكس ، كل تحرياتنا (ولم ندخر مناسبة لطرح اسئلة) تميل الى أن تبين ان من الخطأ ان نفترض أن الخيل التي يحتفظ بها أمير الرياض كانت من سلالة خاصة ، حوفظ عليها في مدن العارض منذ أزمنة مغرقة في القدم ، أو انهـا كانت مختلفة بأي شكل عن تلك التي تربى في أي مكان آخر ، في أواسط بلاد العرب . كانت ، كما أكد لنا مراراً ، مجموعة جلبت من قبائل شتى من (النفود) — مجموعة رفيعة ، بدون شك ، الا أنها مع ذلك مجموعة ، كل بدوي سألناه ضحك من فكرة كونها سلالة نجدية خاصة ، توجد فقط في العارض . في معرض الاجابة على أسئلتنا ، اخبرنا ان مبعوثين من الرياض في أيام فيصل كانوا دائماً في بحث عـن الأمهار حيثما أمكنهم وجودها ، وان الامير كثيراً ما قام بغزو ضد هذه القبيلة او تلك ، دون أي غرض آخر غير حيازة حيوان معين،من سلالةمعينة.والقبيلة التي حصل منها على أحسن السلالات : (حمداني السمري)و(كحيلان الكرش) كانت (مُطَيْر) أحياناً تسمى (الدوشان) ، بينما أمدته بنو خالد ، والظفير ، وشمر ، وحتى عنزة بعينات في مناسبات .

وما يزال عبدالله بن سعود ، خليفته ، يحتفظ بقليل منها.

انتقال الخيل الى آل رشيد

ولكن معظم المجموعة قد تشتتت ، انتقل الكثير من أحسنها إلى ايدي (متعب) و (بندر) سلفي محمد بن رشيد ويتبع محمد نفسه بدقة نفس النظام ، باستثناء انه لا يأخذ بالقوة ، بل بالثمن. فهو يقوم بعمليات الشراء من جميع القبائل المحيطة ، ولو انه يربى في المدينة ، فمجموعته باستمرار تجد مدداً من الخارج . ولو لم تكن هذه هي الحال ، فسرعان ما كانت ستتدهور ، لأن الخيل التي تربى في المدينة في بلاد العرب ، وهي تطعم في الاصطبل ، ولا تجد اي نوع من التمرين ، نادراً ما تكون صالحة للامور العظيمة .

شيء عن تربية الخيل

ان هناك فكرة خاطئة في ان الواحات ، مثل واحات جبل شمر والعارض ، هي مواقع موافقة بصفة خاصة لتربية الخيل ، وان القفار الرملية خارجها لا تحتوي على مراع . ولكن العكس تماماً هو واقع الحال. فالواحات التي تقوم فيها المدن لا تنتج شيئاً غير التمر ، ومنتجات البساتين ، كلا وليس هناك نصل واحد من الحشيش ، أو حتى عذق واحد من كلأ الابل فيما يجاورها .

وأهل المدن يحتفظون بحيوانات باستثناء قليـل من الجمال تستعمل لمتح المياه من الآبار ، والا حمارا تجده هنا أو هناك . حتى هذه يجب ان تعلف اما حنطة أو تمراً ، وهـــذا ما لا يطيقه الا الأغنياء . إن الخيل ترف مقصور على الامراء فقط، وحتى أغنى أغنياء المدن يقومون باسفارهم من قرية الى اخرى على اقدامهم . وفي الرحلات الطويلة تستخدم نجائب يؤتى بها من الصحراء لهذا الغرض ، وهي إما يمتلكها البدو أو يتركها أهل المدن لديهم مشاطرة . ومن جهة أخرى ، يحتوي النفود على كلأ وفير ، ليس فقط من أجل الابل ، بل أيضاً من أجل الاغنام والخيل ، وفي النفود تربى كل هذه .

وابن رشيد يذهب كل ربيع مع معظم مواشيه الى الصحراء ويتركها خلال جزء من الصيف مع القبائل، محتفظاً فقط ببعض الحيوانات للاستعمال في المدينة . وأمر لا يمكن الاصرار عليه بشدة : ان هضبة نجد العليا ، حيث توجد المدن والقرى، قفر صخري يكاد يكون خالياً تماماً من النبات ، بينما يقدم النفود مددا من الكلأ لا ينفد . وانما يحددمن القيمة الرعوية لهذا (أي النفود) الحاجة الى الماء فقط ، فالمنطقـة المسكونة محدودة بالضرورة بدائرة نصف قطرها ٢٠ ميلا حول كل بئر–والآبار نادرة . هذه الحقائق ، أظن ، لما تعرف حتى الآن معرفة كافية لتقدر .

وصف لخيل ابن رشيد

اما بالنسبة لمجموعة ابن رشيد في حائل ، فقد نظرنا اليها اكثر من ثلاث أو أربع مرات في الاصطبلات ، ورأيناها في الخارج مرة في يوم عيد ، حينما هيء كل منها ليبدو أحسن ما يكون . وتتألف الاصطبلات من أربعة أفنية مكشوفة متصل بعضها ببعض ، فيها تقف الحيوانات ، وكل منهـا مربوط الى مذود مربع من اللبن. وهي ليست مستورة بأية طريقة ولكنها تلبس قطائف طويلة ثقيلة مثبتة الى صدورها. وتغل الى الارض بواحد أو أكثر من أطرافها ، وليس عليها لجم . ومن حيث أن الفصل كان شتاء ، فقد كانت في أقسى حالة ممكنة .

مظهر لا ينم عن مخبر

وكانت اولى انطباعاتنا، كما ذكرت، خيبة أمل. وهي إن الخيل عندما تكون في حائل لا يجري عليها تدريب منتظم ، وتبقى كما يبدو أسابيع مجتمعة مربوطة هكذا ، الا دقائق قليلة في المساء عندما تؤخذ لتشرب . وتعلف في الغالب شعيراً جافاً في الربيع فقط ، لأسابيع قليلة ، تأكل حنطة خضراء تزرع لهذا الغرض ، وبعد ذلك تؤخذ الى النفود في غزوات وانه لأمر مدهش انها تستطيع القيام بأعمالها تحت ظروف كهذه .

كان أول فناء ، يدخله المرء في مروره خلال الاصطبلات،

يضم –عندما رأيناه– بين٢٥ الى ٣٠ مهراً. وكان في الثاني ٢٥ أخرى، موضوعة تحت ظرف معين من أجل استخدامها في حال الضرورة، ولكن حتى هذه تلقى قليلا جدا من التمرين. وكما تقف هناك في الفناء، محلولة وشعثاء، ليس لها الا قليل من تلك الروح التي يتوقع المرء أن يجدها في الخيـــل الكريمة الأصل، والمرء بحاجة الى قدر كبير من الخيال لينظر اليها باعتبارها حقاً من تلك السلالة العربية التي ليس مـــا يفوقها. ولقد وقعنا في خطأ، وخطأ شائع جداً، ان نحكم على الخيل بحالتها، لأن هذه، في حالة امتطائها وانطلاقهـــا، تتغيرت هيئتها في التو.

ويمكن ان اقدم هنا وصفاً لحيوانات معينة، كتب بعـد احدى زياراتنا للحظيرة، وهذا قد يقدم فكرة عنها افضل من أية ملاحظات عامة. في مذكراتي اجد ما يلي:

من أنواع الخيل

١ – كحيلة الكرش:

شقراء، ذات ثلاث قوائم بيض (مطلق اليمين)، ١٤ «قبضة»[1] او ١٤,١، ولكنها قوية جداً؛ رأسها أبسط من معظم ما هنا– سوف يعتبر رأساً جميلاً في انجلترا – هزيلة وضيقة نوعاً ما. لها عنق ثقيل جداً، إلا ان كتفها رفيـــع

(١) مقياس طوله ١٠ سم.

جداً ، كاهلها عال ، حوافر كالصلب ،مؤخرة خشنة حتماً ، شعر كثير في الكعوب ، عندما يراها المرء في الحظيرة يميل الى القول انها ذات بنية اكثر منها ذات مران ، ولو انهـــا مؤثرة ، وعندما يكون المرء على ظهرها ، يجب ان يكون المرء عياباً ان لم يعجب بها . انها فرس محمد المفضلة ، وهي من افضل سلالة في نجد. حصل محمد على هذه السلالة من اصطبلات ابن سعود من الرياض ، ولكن في الاصل جاءت من(مطير).

٢ – حمدانية سمراء :

كميت ، من مجموعة ابن سعود ايضاً ، رأس رشيق ، غـير انه لا ميزة اخرى هناك . ملحوظة : هـــذا المهر من نفس سلالة مهرتنا شريفة ، لكنها اقل منها في الدرجة .

٣ – صقلاوية شفي :

غبراء ، في غاية البساطة ، كما تبدو لأول وهلة ، واهنــة الاطراف ، ذات رأس لا يثير الاعجاب بأية حال ، الا انها ذات كتفين رفيعين . وهذه الصقلاوية ذات سمعة كبيرة هنا ، وتولى اهتماماً خاصاً ، لأنها آخر ما بقي من فصيلتها ، الخلف الوحيد للفرس الشهيرة التي اشتراها عباس باشا ، الذي ارسل عربة تجرها الثيران من مصر الى نجد لأخذها ، لأنهـــا كانت عجوزاً ، وغير قادرة على السفر سيراً ، والقصة معروفة تماماً هنا ، ورويت لنا بالضبط كما سمعناها في الشمال ، بزيادة ان

مهرة ابن رشيد هذه هي الممثلة الوحيدة للسلالة الباقيـــة في جزيرة العرب [1] .

٤ – كحيلة عجوز :

مهرة سوداء ، هادئة، ١٤٢، قبضة، احدى قوائمها بيضاء، رائعة في كل جزء منها ، الكتف، والجانبان ، وكل جسمها ، ارشق رأس واسع عين في كل الموجود هنا . لها حركة مثالية، رأسها وذيلها مرتفعان إلى درجة الجمال ، تذكر بمهر (بطيان بن مرشد) ولكن رأسها أرفع .

انها ملك حمود الذي هو فخور بها ، ويخبرنا أنها جاءت من جبرة شمر وانها لمفاجأة لنا ان نجد هنا مهر من بلاد ما بين النهرين ، ولكنه يروى لنا ان تبادل الخيل بين شمر الجنوبيين وشمر الشماليين ليس نادرة بأية حال » .

٥ – كحيلة عجوز :

بلون بني غامق ، لا بياض فيها عدا بوصة واحدة في ما يعلو الحافر مباشرة ، رأس جميل، ومظهر يدل على الاصالة ، ربما كانت أفضل بالنسبة للعدو هنا ، ولو انها أقـل قوة من

---

(١) يقال ان صقلاوية عباس باشا أنجبت فلوين في مصر ، احدهما مات والآخر أهدي الى ملك ايطاليا المتوفي ، ولدى ملك ايطاليـــا الحالي خيل من نسله (الأصل).

حصان الأمير الكميت ومن مهر خمود . ومن الصعب أن تختار بين الثلاثة » .

أحسن حصان بين الثمانية جياد .

سويان صباح : ذو قوة كبيرة ، رأس كبير وممتاز ، انه يذكرنا بمهر فارس جبر الذي هو من نفس السلالة ، من المحتمل أن بينهما صلة نسب قوية ، فله نفس الاطراف ، المقدمة كاملة ، المؤخرة قوية ولو أنها أقل تميزا . وهو ، على أية حال ، من نتاج نجد » .

صقلاي جدران :

أغبر ، من ابن نديرى من جمسة عنزة ، عينة بائسة لتلك السلالة العظيمة ، ولكن البـدو يحترمونه لأنه هو الغالب هنا ، ولو أنهم لبس لديهم في نجد صقلاوية جدران الخالصة .

خيل (عنزة) وخيل نجد

وانه أمر مثير للاهتمام ان تجد هذا الحصان يحظى بالتقدير هنا ، لان الواقع يبرهن على أن خيل (عنزة) تحتل مركزا كبيرا في النفوس في نجد وكلما ازدادت رؤية المرء هنا لخيل نجد ، ازداد اقتناعا بتفوق خيل (عنزة) من ناحية السرعة . ومع ان كل انسان هنا فخور بالخيل النجدية » ، فإنه يبدو كأمر معترف به ، أن خيل عنزة تبزها في هذه الناحية » .

« ان مهرينا (العنزيين) ينظر اليهما كآيتين في السرعة ، وبمقارنة ما نرى هنا ، بما رأينا في العام الماضي في الشمال ، فأول شيء يخطر على بالنا أن هذه خيل صغيرة « بوني » ، وتلك خيل حقة . وان الفرق الحقيقي هو ليس كثيرا في الارتفاع ، ولو انه من المحتم أن هناك ثلاث بوصات في المتوسط، كما هو في الشكل ، الذي يولد هذا الانطباع . فخيل نجد كقاعدة، اعناقها في احتمالها أقصر، وكذلك أجسامها، وتقصر كثيرا عن خيل عنزة . ثم – ولو أن أكتافها بدون شك صالحة وكواهلها أعلى من تلك التي يراها المرء في الشمال – فإن مؤخرتها قصيرة ، ولو لم يكن وضع الذيل بشكل فريد ورائع ، لكانت بالتأكيد تفتقر الى ميزة . يبدو أن اطرافها طيبة الى حد بعيد ، ولكننا لم نر في أي منها ذلك الخط الرائع في الرجل الخلفية حتى الركبة الذي يجذب انتباهك في خيل عنزة الأصيلة .

أما بالنسبة لحوافرها فمن الصعب أن نصدر حكما ، فإن طول الوقوف من غير تدريب ، قد جعل حوافر أمهار الأمير تنمو نموا كبيرا . أما أعرافها وأذيالها فأثخن مما كان المرء يتوقع .

« وفي رؤوسها ، على أية حال ، يوجد بالتأكيد تفوق عام على أمهار عنزة ، على الأقل في النقط التي يكبرها العرب غالبا ولقد جذبت انتباهنا،عندما رأيناها مباشرة، بالفرق ».

وصف دقيق لاجسام الخيل

ومن حيث أنه يمكنني ان افترض باطمئنان الى ان قليلين هم الاشخاص خارج بلاد العرب لديهم فكرة عما هي الصفات المعتبرة هناك مناسبة في رأس حصان ، فسوف أقدم هنا وصفاً لها :

يجب ، قبل كل شيء ، ان يكون الرأس كبيراً، لا صغيراً فالرأس الصغير يكرهه العرب بصفة خاصة ، ولكن يجب ان يكون الحجم جميعه في الاجزاء العليا من الجمجمة . ويجب ان يكون هناك مسافة كبيرة بين الاذنين والعينين ، وبين العين الواحدة والاخرى ، ولو انه ليس بين الاذنين .

ويجب ، فوق ذلك ، ان تكون الجبهة وكل الجزء الذي بين العينين وما تحتها محدبا ، وأن تكون العينان ذاتها تقفان نوعاً ما « بجحوط » . ولكن يجب ألا يكون هناك امتلاء حول نتوء العظام ، وكل عظم يجب ان يكون حاداً ، فالجبهة المسطحة ليست محبوبة .

ويجب ان يكون ما حول العينين خالياً من الشعر ، حتي تظهر الادمة السوداء ، وما حول العينين تماماً يجب ان يكون بصفة خاصة أسود وصقيلا . وعظم الخد يجب ان يكون عميقاً ونحيلا ، وعظم الفك ذا علامة واضحة .

ثم يجب ان يضيق الوجـه فجأة وينحدر الى أسفل حتى ينتهي تقريباً الى طرف دقيق ، ولكن ليس على أية حال الى تلك الدرجة كما يجد المرء في حصان السباق الانكليزي ، الذي يبدو ان القطاع الجانبي لوجهه « بروفيل » وينتهي بالأنف ، ولكن الى طرف الشفة . والانف في حالة السكون .

يجب ان تكون منبسطة مع الوجه ، يبدو فيها مـا هو اكبر قليلا من شق طولي ، وطيقة ومجعدة .

وكذلك يجب ان يكون الفم ، الذي يجب ان تكون الشفة السفلى أطول من العليا . « مثل شفة الجمـل » كما يقول البدو . ويجب ان تكون الاذنان ، خاصة في المهر ، طويلتين، رفيعتين ومرسومتين باناقة ، كأذني غزال » .

ويجب أن يلاحظ أن الرأس والذيل هما النقطتان اللتان ينظر اليهما العرب بعين الاعتبار ، عند الحكم على حصان ، كما أنهم يظنون أنهم يستطيعون بهما أن يكشفوا آكد العلامات على سلالته .

وذيول خيل نجد غريبة كرؤسها، وأساسية بالنسبة لجمالها.

ومهما اختلفت الصفات الاخرى ، فكل حصان في حائل يتخذ ذيله نفس الوضع ، وفي حالة السكون يكون أشبه بذيل حصان متمايل ، لا كما وصف بأنه : « منتصب في قوس كامل» وفي أثناء الحركة يرتفع الذيل عالياً في الجو ، ويبدو كما لو كان يستحيل ان ينخفض تحت أية ظروف .

وصرح محمد بن عروج بوضوح أن هذه الظاهرة كانت بفعل الفن ، جزئياً على الاقل .

وأكد لنا أن الفلو قبل أن يصير عمره ساعة يعقد ذيله الى الخلف على عصا ، ويحدث الالتواء نتيجة دائمة . ولكن هذا يبدو محتمل ، وهو على أية حال قل أن يؤثر على وضع الذيل عند العدو .

ألوان الخيل الرشيدية

وفيما يتعلق بلون المائة من الخيل في اسطبلات حائل ، فكان هناك حوالي الأربعين غبراء أو بيضاء على الأصح ، وثلاثون كُميتاً، وعشرون شقراء، والبقية ذات لون بني لم نر أية منها ذات لون أسود حقيقي ، وبالطبع لا توجد هناك سمراوات او بلقاء، أو شهباء ، لأن هذه ليست ألوان عربية.

سألنا الأمير أحد الأيام : أي الألوان نفضله في انكلترا؟ ، وعندما أخبرناه أنه اللون الكميت أو الأشقر ، وافق معنا تماماً . كل العرب تقريباً يفضلون الكميت ذا النقط السوداء ، ولو أن النقط المحض مع الادمة السوداء والحوافر السوداء محبوب أيضاً . وفي الكميت أو الأشقر ، ثلاث أطراف بيض والطرف الأمامي أسود ، أمر لا اعترض عليه . إلا أن الاعتبار كقاعدة ، لا يؤخذ في الاعتبار كثيراً في حائل ،

لأن السلالة هناك كما هو الحال في أي مكان آخر في بلاد العرب هي الكل في الكل .

سوء التربية في اصطبلات ابن رشيد

« والى جانب الحيوانات الكاملة النمو يضم فناء ابن رشيد ثلاثين او اربعين فلوا ، وحوليا ، مخلوقات جميلة ولكنها تعانى سغبا وبائسة بشكل مرعب . والافـــلاء المولودة في الصحراء بائسة بما فيه الكفاية ، أما هذه المولودة في المدينة فلها مظهر عليل بيّن . ولكونها مربوطة من قدمهـا طول اليوم ، يبدو انها قد خارت عزيمتها تماما ، ولا تبين أي شيء من المـــرح الذي يجب أن يكون فيها في مثل هذا السن .

وأن استئناسها ، « كاستئناس الدواجـن والوحوش » يصدمك ان تراه . ويخبرنا الامير انه يرسل كل ربيـع مائة حولي الى الكويت على الخليج الفارسي تحت مسئولية واحد من عبيده ، يبيعها في (بومباي) بما يعادل مائة جنيه لكل واحد منها . انها الان طبعاً في أسوأ سنى حياتها ، ولكن امامها ما ينتظرها ، بضعة أشهر من الرعي في النفود قبل ان تظهر في السوق » .

« على العموم ، كلانا مصاب بخيبة امل نوعا ما بما نراه هنا من كل الامهار في اسطبل الامير ، لا أظن أن أكثر من ثلاثة أو

أربعة تستطيع أن تبرز أية ميزة بـــين الجاموس ، ونحن في الواقع منزعجان فقد يقترح الامير أن يبادلنا بشقرائنا « رأس الفداوي » التي يبدي كل انسان اعجابا عظيما بها . وان فعل فسوف لا نستطيع ، ولا نستحسن ، ان نرفض » .

عن خيل (نجد) وندرتها :ـ

وفيما يتعلق بخيل نجد بصفة عامة ، فالملاحظات الآتيـة مبنية على ما رأينا وسمعنا في حائل ، وفي اماكن اخرى من بلاد العرب .

فأولاً ، أياً كانت الحال فيما مضى ، فالخيـل من اي نوع اصبحت الآن نادرة بصفة متزايدة في نجد . فقد يسافر المرء مسافة شاسعة في شبه الجزيرة بدون ان يقابل حصاناً واحداً او حتى بدون ان يرى آثار أقدام حصان . وفي اثناء سيرنا في النفود وفي طريق عودتنا الى الفرات ، اختبرنا بعنـاية كل اثر للانسان او الحيوان صادفناه ، بيد انـــه من وقت مغادرتنا (الرولة) حتى قرب (مشهد علي) ، لم تبرهن عشرون من هذه على ان تكون آثار خيل . والريح بلا شك تطمس آثار الأقدام بسرعة ، ولكنها لا تستطيع ان تفعل ذلك كاملاً ، لو كان هناك عدد كبير من الحيوانات . وأخبرنا (الكثيريون) وهي قبيلة نجدية صميمة وفرع من (بني خالد) أخبرونا بشيء من الاعتزاز أنهم يستطيعون ان يجهزوا عشرين فارساً ، وحتى

(مطير) ، المشهورة بانها اعظم من يربي الخيل الاصيلة في نجد، يقال انها تملك فقط ٤٠٠ مهر . ان الخيل هي ترف بالنسبة لبدو شبه الجزيرة وليست - كما هي بالنسبة لأولئك الشماليين - ضرورة من ضرورات حياتهم اليومية . ان أسفارهم وغاراتهم وحروبهم كلها يقومون بها على الجمال ، لا على ظهور الخيل ، وعلى الاكثر يمتطي الشيخ مهرة في لحظة المعركة . ان الافتقار الى الماء في نجد سبب كاف لهذا . فالخيل هناك يحتفظ بها للعرض اكثر منه للاستعمال الفعلي ، وينظر اليها كشيء ثمين الى حد بعيد ليعرض لمخاطر غير ضرورية .

قرن الكلأ في نجد..

ثانياً : كل ما هنالك من خيل في ، تربى النفود . والهضاب الداخلية لا تحتوي على أي مرعى ملائم باستثناء أماكن قليلة جداً ، بينما يقدم النفود حشيشاً ، أخضر ويابساً ، على مدار السنة . و (مطير) ، و (بنو خالد) ، و (الظفير) ، و (شمر) هي الآن القبائل المنتجة الرئيسية للخيل في نجد ، ولكن (عنزة) تعتبر انها تملك أحسن السلالات .

وقد اختفت (عنزة) من نجد . لقد شرعت في الهجرة شمالا منذ حوالي مائتي عام ، وقد استمرت منذ ذلك الحين ، تنتقل في هجرات متوالية ، حتى هجروا جميعاً منازلهم الأصلية .

ومن المحتمل ان الاسم الضخم الذي تحظى به – بدون شك – خيل نجد في الشرق كان الفضل فيه أساساً لهؤلاء العنزيين الذين بخيولهم تقارن هذه . كانت (بشر عنزة) تقيم بجوار خيبر ، على الطرف الغربي للنفود . و (الرولة) في جنوب الجوف ، و (العمارات) في أقصى الشرق .

ومن المحتمل ان هذه من بينها كانت تمون الخيل النجدية في الأزمنة الماضية الى سورية ، وبغداد ، وفارس . ومن الجائز ان بعض بطون القبيلة شقت طريقها الى الجنوب ، لأن آل سعود أنفسهم من عنزة ولذلك فمن المحتمل ان احسن سلالات الخيل كانت ، آنذاك ، كما هو الآن في أيديهم . وإلى يومنا هذا تميز (عنزة) في الشمال نسل الامهار التي أحضروها معهم من نجد بكونها (نجدية) ، بينما يسمون نسل الامهار التي غنموها من قبائل الشمال (شمالية) .

تمرين الخيل في « نجد »

ويبدو ان ادارة الخيل وتعليمها تختلف قليلاً في نجد عنها في أي مكان آخر بين العرب. الا اننا فوجئنا ان نجد الشكيمة تستعمل في (حائل) محل الرسن البدوي . وفي البداية خيل الينا ان هذا كان تقليداً للطريقة التركية ، غير ان الاكثر احتمالا أن تكون عادة قديمة لعرب المدن . حقاً ان بدو الصحراء الكبرى ، ليسوا أقل من الترك في استعمال حلقة

الشكيمة ، وربما كانت بعد كل شيء من مخترعات جزيرة العرب وسيئة كما هي بالنسبة للفم ، فانها بالتأكيد نافعة في الركوب اختيالا ، الذي ينغمس فيه في حائل لعبة الجريد (والمعارك الصورية) . أما بين بدو نجد فالرسن فقط هو المستعمل .

سباق الخيل

وعن أي شيء كالسباق ، فلم نستطع ان نسمع عنه شيئاً. ومحاولات السرعة لم تعد طرازا ، كما كانت فيما مضى ،والبراعة في الدوران وفي التثني هي الوحيدة التي لها قيمة . اما ان بعض تقاليد التمرين لا تزال توجد بين العرب ، فان الوصف الآتي لتربية فلو يثبت ذلك ، هذا الوصف قدم لنا في معرض الرد على وصفنا للسباق الانكليزي ولخيول السباق ، وقد يمثل ممارسة تقليدية ، في جزيرة العرب ، تعود في قدمها الى أيام محمد (ص) .

وصفة عربية لتربية فلو :

قال محدثنا : اذا احببت ان تجعل فلوا يجري اسرع من لداته ، فتذكر القواعد الآتية :

« أثناء الشهر الأول من حياته دعه يكتف بلبن امه ، فسيكون كافياً له . ثم أضف الى هذا ، اثناء الأشهر الخمسة حليباً طبيعياً من حليب الماعز ، بالقدر الذي سيشربه ،ومدة

ستة أشهر اخرى اعطه حليب نياق ، والى جانب ذلك أعطه كيلا من البر منقعاً في الماء مدة ربع ساعة ، ويقدم اليه في مخلاة .

« وفي العام الأول من عمره سيكون الفلو قد فطم عن اللبن ، ويجب ان يطعم براً وحشيشاً ، براً ناشفاً في مخلاة ، وحشيشاً أخضر إذا وجد .

« وفي العام الثاني يجب ان يعمل ، والا فسيكون غير ذي قيمة . فاطعمه الآن شعيراً كحصان كامل النمو ، اما في الصيف فاعطه أيضاً ثريداً كل يوم عند الظهر . اصنع الثريد هكذا :— خذ مداً من الدقيق واخلطه في الماء جيداً بيديك ، حتى يبدو الماء كالحليب ، ثم رشحه ، تاركاً رواسب الطحين ، وقدم ما هو سائل الى الفلو ليشربه .

« احرص منذ اللحظة التي يولد فيها على ان تتركه يقف في الشمس ، فالظل يضر بالخيل ، ولكن دعه يشرب ماء كثيراً عندما تشتد حرارة النهار .

« ثم يجب ان يمتطى الفلو ، ويأخذه مالكه معه الى كل مكان ، حتى يشاهد كل شيء ويتعلم الشجاعة . ويجب أن يظل دائماً تحت التدريب . ولا يبقى أبداً مدة طويلة في الحظيرة . ويجب ان يؤخذ في رحلة ، لأن العمل سيقوي عضلاته .

« وفي عامه الثالث يجب ان يمرن على العدو . وعندئذ إذا كان أصيلاً حقاً ، فلن يسبق . يا الله ! » .

فهرس

الموضوع	الصفحة

تصحيح

(مع بذل الوسع في التصحيح وقعت أغلاط مطبعية،نورد بعضها هنا – فمعذرة) :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	٩	نسختها	أسخها
٧	١٧	Nej	Nejd
٨	١٠	ثانيها	ثانيتها
١٠	٢	Blnnt	Blunt
٢٤	٥	(كاف) (اثرى	(كاف)و(اثرى)
٣٢	٩	مجد	مجلد
٦٨	الحاشية	الكاقبة	الكاتبة
١٠٤	١٠	دلك	ذلك
١٢٠	١٥	قما	فما
١٢٤	٩	مرى	مرعي
١٢٧	٥	آيار	آبار
١٢٩	١٨	طريقة	طربقه
١٣١	٨	فليل	قليل
١٣٨	١	.ل	عمل
١٤٠	١٥	تفد	تنفد
١٥٣	٦	يالي	يبالي
١٦٨	حاشية	فلح	فلج
١٧٨	٨	النقود	النفود
١٧٩	٢٠	اخري	اخرى
١٩١	٥	صفاثه	صفاته
٢٣٢	٧	قرصنة	عرضة

ملاحظتان :

١ – تكرر في الصفحات ٣٧ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢٧ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٨٠ . – تكرر : –
سنة ١٨٧٩ والصواب ١٨٨٠ .

٢ – لم تتضح بعض الأعلام لمواضع وغيرها فكتبت بحسب نطق الحروف الانجليزية ووضع بجوارها علامة استفهام (؟) .

منشورات دار اليمامة

- ١ -

تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد

ووفيات بعض الأعيان وانسابهم وبناء بعض البلدان

(من ٧٠٠هـ الى ١٣٤٠هـ)

تأليف

ابراهيم بن صالح بن عيسى

(١٢٧٠هـ - ١٣٤٣هـ)

أشرف على طبعه

حمد الجاسر

الثمن : ٧ ريالات (الورق الابيض الصقيل)
٦ ريالات (« العادي)

وللكمية : تخفيض خاص

منشورات دار اليمامة

- ٢ -

مدينة الرياض
عبر أطوار التاريخ

بقلم: حمد الجاسر

ملحق به :

١ — مجموعة من الصور الاثرية للمدينة

٢ — خارطة كبيرة مقياس ٥٦ × ٤٨ س م

الثمن : ٦ ريالات (الورق الأبيض الصقيل)
٥ « (« « العادي)

وللكمية : تخفيض خاص